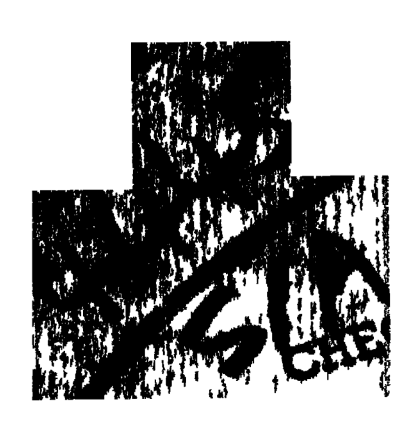




جمعها الاب يوحنا بلو والاب اغوستينوس [illegible]

من الرهبنة اليسوعية

الجزء الاول

القسم الثالث

وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى فُصُولٍ جُغْرَافِيَّةٍ و[illegible]



طبع رابعة في مطبعة المرسلين اليسوعيين

في بيروت ١٨٨٤

نخبة

من كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والبربر
ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر
لعبد الرحمن بن خلدون الحضرمي

من المقدمة في فضل علم التاريخ
وتحقيق مذاهبه والإلماع بما يعرض للمؤرخين
من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسبابها

اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفائدة شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط لأن الأخبار إذا اعتمد فيها مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في حكايات الوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا لم يعرضوها على أصولها وقاسوها بأشباهها ولا

سَبَرُوهَا بِمِعْيَارِ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ ٱلْكَائِنَاتِ وَتَحْكِيمِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَصِيرَةِ فِي ٱلْأَخْبَارِ فَضَلُّوا عَنِ ٱلْحَقِّ وَتَاهُوا فِي بَيْدَاءِ ٱلْوَهْمِ وَٱلْغَلَطِ سِيَّمَا فِي إِحْصَاءِ ٱلْأَعْدَادِ وَٱلْأَمْوَالِ وَٱلْعَسَاكِرِ إِذَا عَرَضَتْ فِي ٱلْحِكَايَاتِ إِذْ هِيَ مَظِنَّةُ ٱلْكَذِبِ وَمَطِيَّةُ ٱلْهَذْرِ وَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى ٱلْأُصُولِ وَعَرْضِهَا عَلَى ٱلْقَوَاعِدِ

وَمِنَ ٱلْحِكَايَاتِ ٱلْمَدْخُولَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً فِي سَبَبِ نَكْبَةِ ٱلرَّشِيدِ لِلْبَرَامِكَةِ مِنْ قِصَّةِ ٱلْعَبَّاسَةِ أُخْتِهِ مَعَ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ مَوْلَاهُ وَإِنَّمَا نَكَبَ ٱلْبَرَامِكَةَ مَا كَانَ مِنِ ٱسْتِبْدَادِهِمْ عَلَى ٱلدَّوْلَةِ وَٱحْتِجَانِ أَمْوَالِ ٱلْجِبَايَةِ حَتَّى كَانَ ٱلرَّشِيدُ يَطْلُبُ ٱلْيَسِيرَ مِنَ ٱلْمَالِ فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ فَغَلَبُوهُ عَلَى أَمْرِهِ وَشَرِكُوهُ فِي سُلْطَانِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعَهُمْ تَصَرُّفٌ فِي أُمُورِ مُلْكِهِ فَعَظُمَتْ آثَارُهُمْ وَبَعُدَ صِيتُهُمْ وَعَمَّرُوا مَرَاتِبَ ٱلدَّوْلَةِ وَخِطَطَهَا بِٱلرُّؤَسَاءِ مِنْ وُلْدِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَٱحْتَازُوهَا عَمَّنْ سِوَاهُمْ مِنْ وِزَارَةٍ وَكِتَابَةٍ وَقِيَادَةٍ وَحِجَابَةٍ وَسَيْفٍ وَقَلَمٍ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ بِدَارِ ٱلرَّشِيدِ مِنْ وُلْدِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ رَئِيساً مِنْ بَيْنِ صَاحِبِ سَيْفٍ وَصَاحِبِ قَلَمٍ زَاحَمُوا فِيهَا أَهْلَ ٱلدَّوْلَةِ بِٱلْمَنَاكِبِ وَدَفَعُوهُمْ عَنْهَا بِٱلرَّاحِ لِمَكَانِ أَبِيهِمْ يَحْيَى مِنْ كَفَالَةِ هٰرُونَ وَلِيِّ عَهْدٍ وَخَلِيفَةً حَتَّى شَبَّ فِي حِجْرِهِ وَدَرَجَ مِنْ عُشِّهِ وَغَلَبَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَكَانَ يَدْعُوهُ يَا أَبَتِ. فَتَوَجَّهَ ٱلْإِيثَارُ مِنَ ٱلسُّلْطَانِ إِلَيْهِمْ وَعَظُمَتِ ٱلدَّالَّةُ مِنْهُمْ وَٱنْبَسَطَ ٱلْجَاهُ عِنْدَهُمْ وَٱنْصَرَفَتْ نَحْوَهُمُ ٱلْوُجُوهُ وَخَضَعَتْ لَهُمُ ٱلرِّقَابُ وَقُصِرَتْ عَلَيْهِمِ ٱلْآمَالُ وَتَخَطَّتْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَقْصَى ٱلتُّخُومِ هَدَايَا ٱلْمُلُوكِ وَتُحَفُ ٱلْأُمَرَاءِ وَتَسَرَّبَتْ إِلَى خَزَائِنِهِمْ فِي سَبِيلِ

ٱلتَّزَلُّفِ وَٱلِاسْتِمَالَةِ أَمْوَالُ ٱلْجِبَايَةِ وَأَفَاضُوا فِي رِجَالِ ٱلشِّيعَةِ وَعُظَمَاءِ ٱلْقَرَابَةِ ٱلْعَطَاءَ وَطَوَّقُوهُمُ ٱلْمِنَنَ وَكَسَبُوا مِنْ بُيُوتَاتِ ٱلْأَشْرَافِ ٱلْمُعْدِمَ وَفَكُّوا ٱلْعَانِيَ وَمُدِحُوا بِمَا لَمْ يُمْدَحْ بِهِ خَلِيفَتُهُمْ وَأَسْنَوْا لِعُفَاتِهِمِ ٱلْجَوَائِزَ وَٱلصِّلَاتِ وَٱسْتَوْلَوْا عَلَى ٱلْقُرَى وَٱلضِّيَاعِ مِنَ ٱلضَّوَاحِي وَٱلْأَمْصَارِ فِي سَائِرِ ٱلْمَمَالِكِ حَتَّى آسَفُوا ٱلْبِطَانَةَ وَأَحْقَدُوا ٱلْخَاصَّةَ وَأَغَصُّوا أَهْلَ ٱلْوِلَايَةِ

فَكُشِفَتْ لَهُمْ وُجُوهُ ٱلْمُنَافَسَةِ وَٱلْحَسَدِ وَدَبَّتْ إِلَى مِهَادِهِمِ ٱلْوَثِيرِ مِنَ ٱلدَّوْلَةِ عَقَارِبُ ٱلسِّعَايَةِ حَتَّى لَقَدْ كَانَ بَنُو قَحْطَبَةَ أَخْوَالُ جَعْفَرٍ مِنْ أَعْظَمِ ٱلسَّاعِينَ عَلَيْهِمْ لَمْ تَعْطِفْهُمْ لِمَا وَقَرَ فِي نُفُوسِهِمْ مِنَ ٱلْحَسَدِ عَوَاطِفُ ٱلرَّحِمِ وَلَا وَزَعَتْهُمْ أَوَاصِرُ ٱلْقَرَابَةِ وَقَارَنَ ذُلِكَ عِنْدَ مَخْدُومِهِمْ نَوَاشِئُ ٱلْغَيْرَةِ وَٱلِاسْتِنْكَافِ مِنَ ٱلْحَجْرِ وَٱلْأَنَفَةُ وَكَامِنُ ٱلْحُقُودِ ٱلَّتِي بَعَثَتْهَا مِنْهُمْ صَغَائِرُ ٱلدَّالَّةِ وَٱنْتَهَى بِهَا ٱلْإِصْرَارُ عَلَى شَأْنِهِمْ إِلَى كَبَائِرِ ٱلْمُخَالَفَةِ كَقِصَّتِهِمْ فِي يَحْيَى بْنِ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ ٱلْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَخِي ٱلْمَهْدِيِّ ٱلْمُلَقَّبِ بِٱلنَّفْسِ ٱلزَّكِيَّةِ ٱلْخَارِجِ عَلَى ٱلْمَنْصُورِ وَيَحْيَى هٰذَا هُوَ ٱلَّذِي ٱسْتَنْزَلَهُ ٱلْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى مِنْ بِلَادِ ٱلدَّيْلَمِ عَلَى أَمَانِ ٱلرَّشِيدِ بِخَطِّهِ وَبَذَلَ لَهُمْ فِيهِ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ ٱلطَّبَرِيُّ وَدَفَعَهُ ٱلرَّشِيدُ إِلَى جَعْفَرٍ وَجَعَلَ ٱعْتِقَالَهُ بِدَارِهِ وَإِلَى نَظَرِهِ. فَحَبَسَهُ مُدَّةً ثُمَّ حَمَلَتْهُ ٱلدَّالَّةُ عَلَى تَخْلِيَةِ سَبِيلِهِ وَٱلِاسْتِبْدَادِ بِحَلِّ عِقَالِهِ حَرَمًا لِدِمَاءِ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ بِزَعْمِهِ وَدَالَّةً عَلَى ٱلسُّلْطَانِ فِي حُكْمِهِ وَسَأَلَهُ ٱلرَّشِيدُ عَنْهُ لَمَّا وُشِيَ بِهِ إِلَيْهِ فَفَطَنَ وَقَالَ أَطْلَقْتُهُ فَأَبْدَى لَهُ وَجْهَ ٱلِاسْتِحْسَانِ وَأَسَرَّهَا فِي نَفْسِهِ

فَأَوْجَدَ ٱلسَّبِيلَ بِذُلِكَ عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ حَتَّى ثُلَّ عَرْشُهُمْ وَأُكْفِئَتْ عَلَيْهِمْ

سَمَاؤُهُمْ وَخُسِفَتِ ٱلْأَرْضُ بِهِمْ وَبِدَارِهِمْ وَذَهَبَتْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ أَيَّامُهُمْ. وَمَنْ تَأَمَّلَ أَخْبَارَهُمْ وَٱسْتَقْصَى سِيَرَ ٱلدَّوْلَةِ وَسِيَرَهُمْ وَجَدَ ذٰلِكَ مُحَقَّقَ ٱلْأَثَرِ مُمَهَّدَ ٱلْأَسْبَابِ. وَٱنْظُرْ مَا نَقَلَهُ ٱبْنُ عَبْدِ رَبِّهِ فِي مُفَاوَضَةِ ٱلرَّشِيدِ عَمَّ جَدِّهِ دَاوُدَ بْنَ عَلِيٍّ فِي شَأْنِ نَكْبَتِهِمْ مَا ذَكَرَهُ فِي بَابِ ٱلشُّعَرَاءِ مِنْ كِتَابِ ٱلْعِقْدِ فِي مُحَاوَرَةِ ٱلْأَصْمَعِيِّ لِلرَّشِيدِ وَلِلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى فِي سَمَرِهِمْ تَتَفَهَّمْ أَنَّهُ إِنَّمَا قَتَلَهُمُ ٱلْغَيْرَةُ وَٱلْمُنَافَسَةُ فِي ٱلِٱسْتِبْدَادِ مِنَ ٱلْخَلِيفَةِ فَمَنْ دُونَهُ وَكَذٰلِكَ مَا تَحَيَّلَ بِهِ أَعْدَاؤُهُمْ مِنَ ٱلْبِطَانَةِ فِيمَا دَسُّوهُ لِلْمُغَنِّينَ مِنَ ٱلشِّعْرِ. ٱحْتِيَالًا عَلَى إِسْمَاعِهِ لِلْخَلِيفَةِ وَتَحْرِيكِ حَفَائِظِهِ لَهُمْ وَهُوَ قَوْلُهُ شِعْرٌ

لَيْتَ هِنْدًا أَنْجَزَتْنَا مَا تَعِدْ وَشَفَتْ أَنْفُسَنَا مِمَّا تَجِدْ

وَٱسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا ٱلْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِدْ

وَإِنَّ ٱلرَّشِيدَ لَمَّا سَمِعَهَا قَالَ إِي وَٱللّٰهِ عَاجِزٌ حَتَّى بَعَثُوا بِأَمْثَالِ هٰذِهِ كَامِنَ غَيْرَتِهِ وَسَلَّطُوا عَلَيْهِمْ بَأْسَ ٱنْتِقَامِهِ نَعُوذُ بِٱللّٰهِ مِنْ غَلَبَةِ ٱلرِّجَالِ وَسُوءِ ٱلْحَالِ وَأَمَّا مَا تُمَوِّهُ بِهِ ٱلْحِكَايَةُ مِنْ مُعَاقَرَةِ ٱلرَّشِيدِ ٱلْخَمْرَ وَٱقْتِرَانِ سُكْرِهِ بِسُكْرِ ٱلنُّدْمَانِ فَحَاشَا ٱللّٰهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ وَأَيْنَ هٰذَا مِنْ حَالِ ٱلرَّشِيدِ وَقِيَامِهِ بِمَا يَجِبُ بِمَنْصِبِ ٱلْخِلَافَةِ مِنَ ٱلدِّينِ وَٱلْعَدَالَةِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ صَحَابَةِ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْأَوْلِيَاءِ وَمُحَاوَرَتِهِ لِلْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ وَٱبْنِ ٱلسَّمَّاكِ وَٱلْعُمَرِيِّ وَمُكَاتَبَتِهِ سُفْيَانَ وَبُكَائِهِ مِنْ مَوَاعِظِهِمْ وَدُعَائِهِ بِمَكَّةَ فِي طَوَافِهِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْعِبَادَةِ وَٱلْمُحَافَظَةِ عَلَى أَوْقَاتِ ٱلصَّلَوَاتِ وَشُهُودِ ٱلصُّبْحِ لِأَوَّلِ فِي وَقْتِهَا

حَكَى ٱلطَّبَرِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ رَكْعَةٍ نَافِلَةً وَكَانَ

يَغْزُو عَامًا وَيَحُجُّ عَامًا. وَلَقَدْ زَجَرَ ٱبْنَ أَبِي مَرْيَمَ مُضْحِكَهُ وَسَمِيرَهُ حِينَ تَعَرَّضَ لَهُ بِمِثْلِ ذٰلِكَ فِي ٱلصَّلَاةِ لَمَّا سَمِعَهُ يَقْرَأُ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي. قَالَ وَٱللهِ لَا أَدْرِي لِمَ. فَمَا تَمَالَكَ ٱلرَّشِيدُ أَنْ ضَحِكَ. ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَيْهِ مُغْضَبًا وَقَالَ يَا ٱبْنَ أَبِي مَرْيَمَ فِي ٱلصَّلٰوةِ أَيْضًا إِيَّاكَ إِيَّاكَ وَٱلْقُرْآنَ وَٱلدِّينَ وَلَكَ مَا شِئْتَ بَعْدَهُمَا

وَأَيْضًا فَقَدْ كَانَ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَٱلسَّذَاجَةِ بِمَكَانٍ لِقُرْبِ عَهْدِهِ مِنْ سَلَفِهِ ٱلْمُنْتَحِلِينَ لِذٰلِكَ. وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَدِّهِ أَبِي جَعْفَرٍ بَعِيدُ زَمَنٍ إِنَّمَا خَلَّفَهُ غُلَامًا. وَقَدْ كَانَ أَبُو جَعْفَرٍ بِمَكَانٍ مِنَ ٱلْعِلْمِ وَٱلدِّينِ قَبْلَ ٱلْخِلَافَةِ وَبَعْدَهَا وَهُوَ ٱلْقَائِلُ لِمَالِكٍ حِينَ أَشَارَ عَلَيْهِ بِتَأْلِيفِ ٱلْمُوَطَّإِ يَا أَبَا عَبْدِ ٱللهِ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ ٱلْأَرْضِ أَعْلَمُ مِنِّي وَمِنْكَ وَإِنِّي قَدْ شَغَلَتْنِي ٱلْخِلَافَةُ فَضَعْ أَنْتَ لِلنَّاسِ كِتَابًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ تَجَنَّبْ فِيهِ رُخَصَ ٱبْنِ عَبَّاسٍ وَشَدَائِدَ ٱبْنِ عُمَرَ وَوَطِّئْهُ لِلنَّاسِ تَوْطِئَةً: قَالَ مَالِكٌ فَوَٱللهِ لَقَدْ عَلَّمَنِي ٱلتَّصْنِيفَ يَوْمَئِذٍ وَلَقَدْ أَدْرَكَهُ ٱبْنُهُ ٱلْمَهْدِيُّ أَبُو ٱلرَّشِيدِ هٰذَا وَهُوَ يَتَوَرَّعُ عَنْ كِسْوَةِ ٱلْجَدِيدِ لِعِيَالِهِ مِنْ بَيْتِ ٱلْمَالِ وَدَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا وَهُوَ بِمَجْلِسِهِ يُبَاشِرُ ٱلْخَيَّاطِينَ فِي إِرْقَاعِ ٱلْخُلْقَانِ مِنْ ثِيَابِ عِيَالِهِ. فَٱسْتَنْكَفَ ٱلْمَهْدِيُّ مِنْ ذٰلِكَ وَقَالَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَيَّ كِسْوَةُ هٰذِهِ ٱلْعِيَالِ عَامَنَا هٰذَا مِنْ عَطَائِي فَقَالَ لَكَ ذٰلِكَ وَلَمْ يَصُدَّهُ عَنْهُ وَلَا سَمَحَ بِٱلْإِنْفَاقِ مِنْ أَمْوَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ

فَكَيْفَ يَلِيقُ بِٱلرَّشِيدِ عَلَى قُرْبِ ٱلْعَهْدِ مِنْ هٰذَا ٱلْخَلِيفَةِ وَأُبُوَّتِهِ وَمَا رُبِّيَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلسِّيَرِ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَٱلتَّخَلُّقِ بِهَا أَنْ يُعَاقِرَ فِي ٱلْخَمْرِ أَوْ

مُجَاهِرٍ بِهَا. وَقَدْ كَانَتْ حَالُ ٱلْأَشْرَافِ مِنَ ٱلْعَرَبِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ فِي ٱجْتِنَابِ ٱلْخَمْرِ مَعْلُومَةً وَلَمْ تَكُنِ ٱلْكَرْمُ شَجَرَتَهُمْ وَكَانَ شُرْبُهَا مَذَمَّةً عِنْدَ ٱلْكَبِيرِ مِنْهُمْ وَٱلصَّغِيرِ. وَٱلرَّشِيدُ وَآبَاؤُهُ كَانُوا عَلَى نَهْجٍ مِنِ ٱجْتِنَابِ ٱلْمَذْمُومَاتِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَٱلتَّخَلُّقِ بِٱلْمَحَامِدِ وَأَوْصَافِ ٱلْكَمَالِ وَنَزَعَاتِ ٱلْعَرَبِ. وَٱنْظُرْ مَا نَقَلَهُ ٱلطَّبَرِيُّ وَٱلْمَسْعُودِيُّ فِي قِصَّةِ جِبْرَئِيلَ بْنِ بَخْتِيشُوعَ ٱلطَّبِيبِ حِينَ أُحْضِرَ لَهُ ٱلسَّمَكُ فِي مَائِدَتِهِ فَحَمَاهُ عَنْهُ. ثُمَّ أَمَرَ صَاحِبَ ٱلْمَائِدَةِ بِحَمْلِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ وَفَطِنَ ٱلرَّشِيدُ وَٱرْتَابَ بِهِ وَدَسَّ خَادِمَهُ حَتَّى عَايَنَهُ يَتَنَاوَلُهُ. فَأَعَدَّ ٱبْنُ بَخْتِيشُوعَ لِلِٱعْتِذَارِ ثَلَاثَ قِطَعٍ مِنَ ٱلسَّمَكِ فِي ثَلَاثَةِ أَقْدَاحٍ خَلَطَ إِحْدَاهَا بِٱللَّحْمِ ٱلْمُعَالَجِ بِٱلتَّوَابِلِ وَٱلْبُقُولِ وَٱلْبَوَارِدِ وَٱلْحَلْوَاءِ. وَصَبَّ عَلَى ٱلثَّانِيَةِ مَاءً مُثَلَّجًا. وَعَلَى ٱلثَّالِثَةِ خَمْرًا صِرْفًا. وَقَالَ فِي ٱلْأُولَى وَٱلثَّانِيَةِ: هٰذَا طَعَامُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِنْ خُلِطَ ٱلسَّمَكُ بِغَيْرِهِ أَوْ لَمْ يُخْلَطْ: وَقَالَ فِي ٱلثَّالِثَةِ هٰذَا طَعَامُ ٱبْنِ بَخْتِيشُوعَ وَدَفَعَهَا إِلَى صَاحِبِ ٱلْمَائِدَةِ حَتَّى إِذَا ٱنْتَبَهَ ٱلرَّشِيدُ وَأَحْضَرَهُ لِلتَّوْبِيخِ أَحْضَرَ ٱلْأَقْدَاحَ فَوَجَدَ صَاحِبَ ٱلْخَمْرِ قَدِ ٱخْتَلَطَ وَأَمَاعَ وَتَفَتَّتَ وَوَجَدَ ٱلْآخَرَيْنِ قَدْ فَسَدَا وَتَغَيَّرَتْ رَائِحَتُهُمَا

فَكَانَتْ لَهُ فِي ذٰلِكَ مَعْذِرَةٌ وَتَبَيَّنَ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّ حَالَ ٱلرَّشِيدِ فِي ٱجْتِنَابِ ٱلْخَمْرِ كَانَتْ مَعْرُوفَةً عِنْدَ بِطَانَتِهِ وَأَهْلِ مَائِدَتِهِ. وَلَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ عَهِدَ بِحَبْسِ أَبِي نُوَاسٍ لِمَا بَلَغَهُ مِنِ ٱنْهِمَاكِهِ فِي ٱلْمُعَاقَرَةِ حَتَّى تَابَ وَأَقْلَعَ. وَإِنَّمَا كَانَ ٱلرَّشِيدُ يَشْرَبُ نَبِيذَ ٱلتَّمْرِ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ ٱلْعِرَاقِ وَفَتَاوِيهِمْ فِيهَا مَعْرُوفَةٌ. وَأَمَّا ٱلْخَمْرُ ٱلصِّرْفُ مِنَ ٱلْعِنَبِ فَلَا سَبِيلَ إِلَى ٱتِّهَامِهِ بِهَا وَلَا تَقْلِيدِ ٱلْأَخْبَارِ ٱلْوَاهِيَةِ فِيهَا. فَلَمْ يَكُنِ ٱلرَّجُلُ بِحَيْثُ يُوَاقِعُ مُحَرَّمًا مِنْ أَكْبَرِ ٱلْكَبَائِرِ

عِندَ أَهْلِ ٱلْمِلَّةِ. وَلَقَدْ كَانَ أُولَئِكَ ٱلْقَوْمُ كُلُّهُمْ بِمَنْجَاةٍ مِنْ خِنْثِ ٱلسَّرَفِ وَٱلتَّرَفِ فِي مَلَابِسِهِمْ وَزِينَتِهِمْ وَسَائِرِ مُتَنَاوَلَاتِهِمْ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خُشُونَةِ ٱلْبَدَاوَةِ وَسَذَاجَةِ ٱلدِّينِ ٱلَّتِي لَمْ يُفَارِقُوهَا بَعْدُ. فَمَا ظَنُّكَ بِمَا يَخْرُجُ عَنِ ٱلْإِبَاحَةِ إِلَى ٱلْحَظْرِ وَعَنِ ٱلْحِلِّيَّةِ إِلَى ٱلْحُرْمَةِ. وَلَقَدِ ٱتَّفَقَ ٱلْمُؤَرِّخُونَ ٱلطَّبَرِيُّ وَٱلْمَسْعُودِيُّ وَغَيْرُهُمَا عَلَى أَنَّ جَمِيعَ مَنْ سَلَفَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي ٱلْعَبَّاسِ إِنَّمَا كَانُوا يَرْكَبُونَ بِٱلْحِلْيَةِ ٱلْخَفِيفَةِ مِنَ ٱلْفِضَّةِ فِي ٱلْمَنَاطِقِ وَٱلسُّيُوفِ وَٱللُّجُمِ وَٱلسُّرُوجِ وَأَنَّ أَوَّلَ خَلِيفَةٍ أَحْدَثَ ٱلرُّكُوبَ بِحِلْيَةِ ٱلذَّهَبِ هُوَ ٱلْمُعْتَزُّ بْنُ ٱلْمُتَوَكِّلِ ثَامِنُ ٱلْخُلَفَاءِ بَعْدَ ٱلرَّشِيدِ وَهٰكَذَا كَانَ حَالُهُمْ أَيْضًا فِي مَلَابِسِهِمْ. فَمَا ظَنُّكَ بِمَشَارِبِهِمْ وَيَتَبَيَّنُ ذٰلِكَ بِأَتَمَّ مِنْ هٰذَا إِذَا فَهِمْتَ طَبِيعَةَ ٱلدَّوْلَةِ فِي أَوَّلِهَا مِنَ ٱلْبَدَاوَةِ وَٱلْغَضَاضَةِ كَمَا نَشْرَحُ فِي مَسَائِلِ ٱلْكِتَابِ ٱلْأَوَّلِ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ تَعَالَى

وَيُنَاسِبُ هٰذَا أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً عَنْ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ قَاضِي ٱلْمَأْمُونِ وَصَاحِبِهِ وَأَنْ كَانَ يُعَاقِرُ ٱلْمَأْمُونُ ٱلْخَمْرَ وَأَنَّهُ سَكِرَ لَيْلَةً مَعَ شَرْبِهِ فَدُفِنَ فِي ٱلرَّيْحَانِ حَتَّى أَفَاقَ وَيُنْشِدُونَ عَلَى لِسَانِهِ

يَا سَيِّدِي وَأَمِيرَ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ ... قَدْ جَارَ فِي حُكْمِهِ مَنْ كَانَ يَسْقِينِي

إِنِّي غَفَلْتُ عَنِ ٱلسَّاقِي فَصَيَّرَنِي ... كَمَا تَرَانِي سَلِيبَ ٱلْعَقْلِ وَٱلدِّينِ

وَحَالُ ٱبْنِ أَكْثَمَ وَٱلْمَأْمُونِ فِي ذٰلِكَ مِنْ حَالِ ٱلرَّشِيدِ وَشَرَابُهُمْ إِنَّمَا كَانَ ٱلنَّبِيذَ وَلَمْ يَكُنْ مَحْظُورًا عِنْدَهُمْ. وَأَمَّا ٱلسُّكْرُ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ وَصَحَابَتُهُ لِلْمَأْمُونِ إِنَّمَا كَانَ خُلَّةً فِي ٱلدِّينِ. وَلَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ كَانَ يَنَامُ مَعَهُ فِي ٱلْبَيْتِ وَنُقِلَ مِنْ فَضَائِلِ ٱلْمَأْمُونِ وَحُسْنِ عِشْرَتِهِ أَنَّهُ ٱنْتَبَهَ ذَاتَ لَيْلَةٍ

فَقَامَ يَتَجَسَّسُ وَيَلْتَمِسُ الْإِنَاءَ مَخَافَةَ أَنْ يُوقِظَ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ وَثَبَتَ أَنَّهُمَا كَانَا يُصَلِّيَانِ الصُّبْحَ جَمِيعاً. فَأَيْنَ هٰذَا مِنَ الْمُعَاقَرَةِ. وَأَيْضاً يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ. وَقَدْ أَثْنَى عَلَيْهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَالْقَاضِي إِسْمٰعِيلُ وَخَرَّجَ عَنْهُ التِّرْمِذِيُّ فِي كِتَابِهِ الْجَامِعِ. وَذَكَرَ الْحَافِظُ الْمِزِّيُّ أَنَّ الْبُخَارِيَّ رَوَى عَنْهُ فِي غَيْرِ الْجَامِعِ. فَالْقَدْحُ فِيهِ قَدْحٌ فِي جَمِيعِهِمْ

وَكَذٰلِكَ نَبَزَهُ الْمُجَّانُ بِالْمَيْلِ إِلَى الْغِلْمَانِ بُهْتَاناً عَلَى اللّٰهِ وَفِرْيَةً عَلَى الْعُلَمَاءِ وَيَسْتَنِدُونَ فِي ذٰلِكَ إِلَى أَخْبَارِ الْقُصَّاصِ الْوَاهِيَةِ الَّتِي لَعَلَّهَا مِنِ افْتِرَاءِ أَعْدَائِهِ. فَإِنَّهُ كَانَ مُحَسَّداً فِي كَمَالِهِ وَخُلَّتِهِ لِلسُّلْطَانِ وَكَانَ مَقَامُهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ مُنَزَّهاً عَنْ مِثْلِ ذٰلِكَ. وَقَدْ ذُكِرَ لِابْنِ حَنْبَلٍ مَا يَرْمِيهِ بِهِ النَّاسُ فَقَالَ سُبْحَانَ اللّٰهِ سُبْحَانَ اللّٰهِ وَمَنْ يَقُولُ هٰذَا وَأَنْكَرَ ذٰلِكَ إِنْكَاراً شَدِيداً وَأَثْنَى عَلَيْهِ. وَقِيلَ لِإِسْمٰعِيلَ مِمَّا كَانَ يُقَالُ فِيهِ فَقَالَ مَعَاذَ اللّٰهِ أَنْ تَزُولَ عَدَالَةُ مِثْلِهِ بِتَكَذُّبِ بَاغٍ وَحَاسِدٍ وَقَالَ كَانَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ أَبْرَأَ إِلَى اللّٰهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ يُرْمَى بِهِ مِنْ أَمْرِ الْغِلْمَانِ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَقِفُ عَلَى سَرَائِرِهِ فَأَجِدُهُ شَدِيدَ الْخَوْفِ لِلّٰهِ لٰكِنَّهُ كَانَتْ فِيهِ دُعَابَةٌ وَحُسْنُ خُلُقٍ فَرُمِيَ بِمَا رُمِيَ بِهِ وَذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي الثِّقَاتِ وَقَالَ لَا يُشْتَغَلُ بِمَا يُحْكَى عَنْهُ لِأَنَّ أَكْثَرَهَا لَا يَصِحُّ عَنْهُ

وَمِنْ أَمْثَالِ هٰذِهِ الْحِكَايَاتِ مَا نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ الْعِقْدِ مِنْ حَدِيثِ الزِّنْبِيلِ فِي سَبَبِ إِصْهَارِ الْمَأْمُونِ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ فِي بِنْتِهِ بُورَانَ...... وَأَيْنَ هٰذَا كُلُّهُ مِنْ حَالِ الْمَأْمُونِ الْمَعْرُوفَةِ فِي دِينِهِ وَعِلْمِهِ وَاقْتِفَائِهِ سُنَنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ آبَائِهِ وَأَخْذِهِ بِسِيرَةِ الْخُلَفَاءِ

الأربعة أركان الملة ومناظرته للعلماء وحفظه للحدود في صلواته وأحكامه فكيف تصح عنه أحوال الفساق المشتهرين في التطواف بالليل وطروق المنازل وغشيان السمر سبيل عشاق الأعراب وأين ذلك من منصب بنت الحسن بن سهل وشرفها وما كان بدار أبيها من الصون والعفاف

وأمثال هذه الحكايات كثيرة وفي كتب المؤرخين معروفة وإنما يبعث على وضعها والحديث بها الانهماك في اللذات المحرمة وهتك قناع المروات ويتعللون بالقوم فيما يأتونه من طاعة لذاتهم فلذلك تراهم كثيرا ما يلهجون بأشباه هذه الأخبار وينقرون عنها عند تصفحهم لأوراق الدواوين. ولو ائتسوا بهم في غير هذا من أحوالهم وصفات الكمال اللائقة بهم المشهورة عنهم لكان خيرا لهم لو كانوا يعلمون. ولقد عذلت يوما بعض الأمراء من أولاد الملوك في كلفه بتعلم الغناء وولوعه بالأوتار وقلت له ليس هذا من شأنك ولا يليق بمنصبك. فقال لي أفلا ترى إلى إبراهيم بن المهدي كيف كان إمام هذه الصناعة ورئيس المغنين في زمانه. فقلت له يا سبحان الله وهلا تأسيت بأبيه أو أخيه أو ما رأيت كيف قعد ذلك بإبراهيم عن مناصبهم فصم عن عذلي وأعرض

ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام وهو داء دوي شديد الخفاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة ولا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة. وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم

لَا تَدُومُ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ وَمِنْهَاجٍ مُسْتَقِرٍّ. إِنَّمَا هُوَ ٱخْتِلَافٌ عَلَى ٱلْأَيَّامِ وَٱلْأَزْمِنَةِ وَٱنْتِقَالٌ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَكَمَا يَكُونُ ذٰلِكَ فِي ٱلْأَشْخَاصِ وَٱلْأَوْقَاتِ وَٱلْأَمْصَارِ فَكَذٰلِكَ يَقَعُ فِي ٱلْآفَاقِ وَٱلْأَقْطَارِ وَٱلْأَزْمِنَةِ وَٱلدُّوَلِ

وَقَدْ كَانَتْ فِي ٱلْعَالَمِ أُمَمُ ٱلْفُرْسِ ٱلْأُولَى وَٱلسِّرْيَانِيُّونَ وَٱلنَّبَطُ وَٱلتَّبَابِعَةُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ وَٱلْقِبْطُ. وَكَانُوا عَلَى أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ فِي دُوَلِهِمْ وَمَمَالِكِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ وَٱصْطِلَاحَاتِهِمْ وَسَائِرِ مُشَارَكَاتِهِمْ مَعَ أَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ وَأَحْوَالُ ٱعْتِمَارِهِمْ لِلْعَالَمِ تَشْهَدُ بِهَا آثَارُهُمْ. ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِهِمُ ٱلْفُرْسُ ٱلثَّانِيَةُ وَٱلرُّومُ وَٱلْعَرَبُ وَٱلْفِرَنْجَةُ. وَتَبَدَّلَتْ تِلْكَ ٱلْأَحْوَالُ وَٱنْقَلَبَتِ ٱلْعَوَائِدُ إِلَى مَا يُجَانِسُهَا وَيُشَابِهُهَا وَإِلَى مَا يُبَايِنُهَا وَيُبَاعِدُهَا. ثُمَّ جَاءَ ٱلْإِسْلَامُ بِدَوْلَةِ مُضَرَ. فَٱنْقَلَبَتْ تِلْكَ ٱلْأَحْوَالُ أَجْمَعُ ٱنْقِلَابَةً أُخْرَى وَصَارَتْ إِلَى مَا أَكْثَرُهُ مُتَعَارَفٌ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ يَأْخُذُهُ ٱلْخَلَفُ عَنِ ٱلسَّلَفِ، ثُمَّ دَرَسَتْ دَوْلَةُ ٱلْعَرَبِ وَأَيَّامُهُمْ وَذَهَبَ ٱلْأَسْلَافُ ٱلَّذِينَ شَيَّدُوا عِزَّهُمْ وَمَهَّدُوا مُلْكَهُمْ وَصَارَ فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ ٱلْعَجَمِ مِثْلِ ٱلتُّرْكِ بِٱلْمَشْرِقِ وَٱلْبَرْبَرِ بِٱلْمَغْرِبِ وَٱلْفِرَنْجِ بِٱلشَّمَالِ فَذَهَبَتْ بِذَهَابِهِمْ أُمَمٌ وَٱنْقَلَبَتْ أَحْوَالٌ وَعَوَائِدُ نُسِيَ شَأْنُهَا وَأُغْفِلَ أَمْرُهَا

وَٱلسَّبَبُ ٱلشَّائِعُ فِي تَبَدُّلِ ٱلْأَحْوَالِ وَٱلْعَوَائِدِ. أَنَّ عَوَائِدَ كُلِّ جِيلٍ تَابِعَةٌ لِعَوَائِدِ سُلْطَانِهِ كَمَا يُقَالُ فِي ٱلْأَمْثَالِ ٱلْحِكَمِيَّةِ ٱلنَّاسُ عَلَى دِينِ ٱلْمَلِكِ. وَأَهْلُ ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ إِذَا ٱسْتَوْلَوْا عَلَى ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْأَمْرِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْزِعُوا إِلَى عَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهُمْ فَيَأْخُذُونَ ٱلْكَثِيرَ مِنْهَا وَلَا يُغْفِلُونَ عَوَائِدَ جِيلِهِمْ

مَعَ ذٰلِكَ فَيَقَعُ فِي عَوَائِدِ ٱلدَّوْلَةِ بَعْضُ ٱلْمُخَالَفَةِ لِعَوَائِدِ ٱلْجِيلِ ٱلْأَوَّلِ. فَإِذَا جَاءَتْ دَوْلَةٌ أُخْرَى مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَزَجَتْ مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَعَوَائِدِهَا خَالَفَتْ أَيْضًا بَعْضَ ٱلشَّيْءِ وَكَانَتْ لِلْأُولَى أَشَدَّ مُخَالَفَةً. ثُمَّ لَا يَزَالُ ٱلتَّدْرِيجُ فِي ٱلْمُخَالَفَةِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى ٱلْمُبَايَنَةِ بِٱلْجُمْلَةِ. فَمَا دَامَتِ ٱلْأُمَمُ وَٱلْأَجْيَالُ تَتَعَاقَبُ فِي ٱلْمُلْكِ وَٱلسُّلْطَانِ لَا تَزَالُ ٱلْمُخَالَفَةُ فِي ٱلْعَوَائِدِ وَٱلْأَحْوَالِ وَاقِعَةً

وَٱلْقِيَاسُ وَٱلْمُحَاكَاةُ لِلْإِنْسَانِ طَبِيعَةٌ مَعْرُوفَةٌ وَمِنَ ٱلْغَلَطِ غَيْرُ مَأْمُونَةٍ تُخْرِجُهُ مَعَ ٱلذُّهُولِ وَٱلْغَفْلَةِ عَنْ مَقْصِدِهِ وَتَعُوجُ بِهِ عَنْ مَرَامِهِ. فَرُبَّمَا سَمِعَ ٱلسَّامِعُ كَثِيرًا مِنْ أَخْبَارِ ٱلْمَاضِينَ فَلَا يَتَفَطَّنُ لِمَا وَقَعَ مِنْ تَغَيُّرِ ٱلْأَحْوَالِ وَٱنْقِلَابِهَا فَيُجْرِيهَا لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ عَلَى مَا عَرَفَ وَيَقِيسُهَا بِمَا يَشْهَدُ. وَقَدْ يَكُونُ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَثِيرًا فَيَقَعُ فِي مَهْوَاةٍ مِنَ ٱلْغَلَطِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ مَا يَتَوَهَّمُهُ ٱلْمُتَصَفِّحُونَ لِكُتُبِ ٱلتَّارِيخِ إِذَا سَمِعُوا أَحْوَالَ ٱلْقُضَاةِ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ ٱلرِّئَاسَةِ فِي ٱلْحُرُوبِ وَقَوْدِ ٱلْعَسَاكِرِ فَتَتَرَامَى بِهِمْ وَسَاوِسُ ٱلْهِمَمِ إِلَى مِثْلِ تِلْكَ ٱلرُّتَبِ يَحْسَبُونَ أَنَّ ٱلشَّأْنَ فِي خِطَّةِ ٱلْقَضَاءِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَيَظُنُّونَ بِٱبْنِ أَبِي عَامِرٍ حَاجِبِ هِشَامٍ ٱلْمُسْتَبِدِّ عَلَيْهِ وَٱبْنِ عَبَّادٍ مِنْ مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ بِإِشْبِيلِيَةَ إِذَا سَمِعُوا أَنَّ آبَاءَهُمْ كَانُوا قُضَاةً أَنَّهُمْ مِثْلُ ٱلْقُضَاةِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ وَلَا يَتَفَطَّنُونَ لِمَا وَقَعَ فِي رُتْبَةِ ٱلْقَضَاءِ مِنْ مُخَالَفَةِ ٱلْعَوَائِدِ كَمَا نُبَيِّنُهُ فِي فَصْلِ ٱلْقَضَاءِ مِنَ ٱلْكِتَابِ ٱلْأَوَّلِ. وَٱبْنُ أَبِي عَامِرٍ وَٱبْنُ عَبَّادٍ كَانَا مِنْ قَبَائِلِ ٱلْعَرَبِ ٱلْقَائِمِينَ بِٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَأَهْلِ عَصَبِيَّتِهَا. وَكَانَ مَكَانُهُمْ

فِيهَا مَعْلُومًا وَلَمْ يَكُنْ نَيْلُهُمْ لِمَا نَالُوهُ مِنَ ٱلرِّئَاسَةِ وَٱلْمُلْكِ بِخِطَّةِ ٱلْقَضَاءِ كَمَا هِيَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ. بَلْ إِنَّمَا كَانَ ٱلْقَضَاءُ فِي ٱلْأَمْرِ ٱلْقَدِيمِ لِأَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّاتِ مِنْ قَبَائِلِ ٱلدَّوْلَةِ وَمَوَالِيهَا كَمَا هِيَ ٱلْوِزَارَةُ لِعَهْدِنَا بِٱلْمَغْرِبِ. وَٱنْظُرْ خُرُوجَهُمْ بِٱلْعَسَاكِرِ فِي ٱلصَّوَائِفِ وَتَقْلِيدَهُمْ عَظَائِمَ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي لَا تُقَلَّدُ إِلَّا لِمَنْ لَهُ ٱلْغَنَاءُ فِيهَا بِٱلْعَصَبِيَّةِ فَيَغْلَطُ ٱلسَّامِعُ فِي ذٰلِكَ وَيَحْمِلُ ٱلْأَحْوَالَ إِلَى غَيْرِ مَا هِيَ

وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ فِي هٰذَا ٱلْغَلَطِ ضُعَفَاءُ ٱلْبَصَائِرِ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ لِفِقْدَانِ ٱلْعَصَبِيَّةِ فِي مَوَاطِنِهِمْ مُنْذُ أَعْصَارٍ بَعِيدَةٍ لِفَنَاءِ ٱلْعَرَبِ وَدَوْلَتِهِمْ بِهَا وَخُرُوجِهِمْ عَنْ مَلَكَةِ أَهْلِ ٱلْعَصَبِيَّةِ مِنَ ٱلْبَرْبَرِ فَبَقِيَتْ أَنْسَابُهُمُ ٱلْعَرَبِيَّةُ مَحْفُوظَةً وَٱلذَّرِيعَةُ إِلَى ٱلْعِزِّ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَٱلتَّنَاصُرِ مَفْقُودَةً بَلْ صَارُوا مِنْ جُمْلَةِ ٱلرَّعَايَا ٱلْمُتَخَاذِلِينَ ٱلَّذِينَ تَعَبَّدَهُمُ ٱلْقَهْرُ وَرَئِمُوا لِلْمَذَلَّةِ يَحْسَبُونَ أَنَّ أَنْسَابَهُمْ مَعَ مُخَالَطَةِ ٱلدَّوْلَةِ هِيَ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا ٱلْغَلَبُ وَٱلتَّحَكُّمُ فَتَجِدُ أَهْلَ ٱلْحِرَفِ وَٱلصَّنَائِعِ مِنْهُمْ مُتَصَدِّينَ لِذٰلِكَ سَاعِينَ فِي نَيْلِهِ. فَأَمَّا مَنْ بَاشَرَ أَحْوَالَ ٱلْقَبَائِلِ وَٱلْعَصَبِيَّةِ فِي دُوَلِهِمْ بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْمَغْرِبِيَّةِ وَكَيْفَ يَكُونُ ٱلتَّغَلُّبُ بَيْنَ ٱلْأُمَمِ وَٱلْعَشَائِرِ فَقَلَّمَا يَغْلَطُونَ فِي ذٰلِكَ وَيُخْطِئُونَ فِي ٱعْتِبَارِهِ

تَمَّ ٱلْمَنْقُولُ مِنْ كِتَابِ ٱلْعِبَرِ وَدِيوَانِ ٱلْمُبْتَدَإِ وَٱلْخَبَرِ

لِٱبْنِ خَلْدُونَ

نُخَبٌ
مِنْ كِتَابِ نَفْحِ ٱلطِّيبِ مِنْ غُصْنِ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلرَّطِيبِ
تَأْلِيفِ ٱلْعَلَّامَةِ ٱلْمَقَّرِيِّ

فِي وَصْفِ جَزِيرَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ

فَأَقُولُ مَحَاسِنُ ٱلْأَنْدَلُسِ لَا تُسْتَوْفَى بِعِبَارَةٍ وَمَجَارِي فَضْلِهَا لَا يُشَقُّ غُبَارُهُ وَأَنَّى تُجَارَى وَهِيَ ٱلْحَائِزَةُ قَصَبَ ٱلسَّبْقِ فِي أَقْطَارِ ٱلْغَرْبِ وَٱلشَّرْقِ. قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِٱلْأَنْدَلُسِ بْنِ طُوبَالَ بْنِ يَافَثَ بْنِ نُوحٍ لِأَنَّهُ نَزَلَهَا كَمَا أَنَّ أَخَاهُ سَبْتَ بْنَ يَافَثَ نَزَلَ ٱلْعُدْوَةَ ٱلْمُقَابِلَةَ لَهَا وَإِلَيْهِ تُنْسَبُ سَبْتَةُ. قَالَ وَأَهْلُ ٱلْأَنْدَلُسِ يُحَافِظُونَ عَلَى قِوَامِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ لِأَنَّهُمْ إِمَّا عَرَبٌ أَوْ مُعَرَّبُونَ ٱنْتَهَى. وَقَالَ ٱبْنُ غَالِبٍ إِنَّهُ أَنْدَلُسُ بْنُ يَافَثَ وَٱللهُ أَعْلَمُ خَصَّ ٱللهُ تَعَالَى بِلَادَ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنَ ٱلرَّيْعِ وَغَدَقِ ٱلسُّقْيَا وَلَذَاذَةِ ٱلْأَقْوَاتِ وَنَزَاهَةِ ٱلْحَيَوَانِ وَدُرُورِ ٱلْفَوَاكِهِ وَكَثْرَةِ ٱلْمِيَاهِ وَتَبَحُّرِ ٱلْعُمْرَانِ وَجُودَةِ ٱللِّبَاسِ وَشَرَفِ ٱلْآنِيَةِ وَكَثْرَةِ ٱلسِّلَاحِ وَصِحَّةِ ٱلْهَوَاءِ وَٱبْيِضَاضِ أَلْوَانِ ٱلْإِنْسَانِ وَنُبْلِ ٱلْأَذْهَانِ وَفُنُونِ ٱلصَّنَائِعِ وَشَهَامَةِ ٱلطِّبَاعِ وَنُفُوذِ ٱلْإِدْرَاكِ وَأَحْكَامِ ٱلتَّمَدُّنِ وَٱلِٱعْتِبَارِ بِمَا حُرِمَهُ ٱلْكَثِيرُ مِنَ ٱلْأَقْطَارِ مِمَّا سِوَاهَا. ٱنْتَهَى

قَالَ أَبُو عَامِرٍ ٱلسَّلَمِيُّ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِدُرَرِ ٱلْقَلَائِدِ وَغُرَرِ ٱلْفَوَائِدِ ٱلْأَنْدَلُسُ مِنَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلشَّامِيِّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْأَقَالِيمِ وَأَعْدَلُهَا هَوَاءً وَتُرَابًا وَأَعْذَبُهَا مَاءً وَأَطْيَبُهَا هَوَاءً وَحَيَوَانًا وَنَبَاتًا وَهُوَ أَوْسَطُ ٱلْأَقَالِيمِ وَخَيْرُ

ٱلْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا. ٱنْتَهَى

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ ٱلْبَكْرِيُّ ٱلْأَنْدَلُسُ شَامِيَّةٌ فِي طِيبِهَا وَهَوَائِهَا يَمَانِيَةٌ فِي ٱعْتِدَالِهَا وَٱسْتِوَائِهَا هِنْدِيَّةٌ فِي عِطْرِهَا وَذَكَائِهَا أَهْوَازِيَّةٌ فِي عِظَمِ جِبَايَتِهَا صِينِيَّةٌ فِي جَوَاهِرِ مَعَادِنِهَا عَدَنِيَّةٌ فِي مَنَافِعِ سَوَاحِلِهَا. فِيهَا آثَارٌ عَظِيمَةٌ لِلْيُونَانِيِّينَ أَهْلِ ٱلْحِكْمَةِ وَحَامِلِي ٱلْفَلْسَفَةِ. وَكَانَ مِنْ مُلُوكِهِمِ ٱلَّذِينَ أَثَّرُوا ٱلْآثَارَ بِٱلْأَنْدَلُسِ هِرَقْلُسُ وَلَهُ ٱلْأَثَرُ فِي ٱلصَّنَمِ بِجَزِيرَةِ قَادِسَ وَصَنَمِ جِلِّيقِيَّةَ وَٱلْأَثَرُ فِي مَدِينَةِ طَرَّكُونَةَ ٱلَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ

قَالَ ٱلْمَسْعُودِيُّ بِلَادُ ٱلْأَنْدَلُسِ تَكُونُ مَسِيرَةُ عَمَائِرِهَا وَمُدُنِهَا نَحْوَ شَهْرَيْنِ وَلَهُمْ مِنَ ٱلْمُدُنِ ٱلْمَوْصُوفَةِ نَحْوٌ مِنْ أَرْبَعِينَ مَدِينَةً ٱنْتَهَى بِٱخْتِصَارٍ وَنَحْوُهُ لِٱبْنِ ٱلْيَسَعِ إِذْ قَالَ طُولُهَا مِنْ أَرْبُونَـةَ إِلَى إِشْبُونَةَ وَهُوَ قَطْعُ سِتِّينَ يَوْمًا لِلْفَارِسِ ٱلْمُجِدِّ وَٱنْتُقِدَ بِأَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنَّهُ يَقْتَضِي أَنَّ أَرْبُونَةَ دَاخِلَةٌ فِي جَزِيرَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلصَّحِيحُ أَنَّهَا خَارِجَةٌ عَنْهَا. وَٱلثَّانِي أَنَّ قَوْلَهُ سِتِّينَ يَوْمًا لِلْفَارِسِ ٱلْمُجِدِّ إِعْيَاءٌ وَإِفْرَاطٌ وَقَدْ قَالَ جَمَاعَةٌ أَنَّهَا شَهْرٌ وَنِصْفٌ. قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ وَهٰذَا يَقْرُبُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْفَارِسِ ٱلْمُجِدِّ وَٱلصَّحِيحُ مَا نَصَّ عَلَيْهِ ٱلشَّرِيفُ مِنْ أَنَّهَا مَسِيرَةُ شَهْرٍ وَكَذَا قَالَ ٱلْحِجَارِيُّ وَقَدْ سَأَلْتُ ٱلْمُسَافِرِينَ ٱلْمُحَقِّقِينَ عَنْ ذٰلِكَ فَعَمِلُوا حِسَابًا بِٱلْمَرَاحِلِ ٱلْجَيِّدَةِ أَفْضَى إِلَى نَحْوِ شَهْرٍ بِنَيِّفٍ قَلِيلٍ

قَالَ ٱلْحِجَارِيُّ فِي مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ إِنَّ طُولَ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنَ ٱلْحَاجِزِ إِلَى إِشْبُونَةَ أَلْفُ مِيلٍ وَنَيِّفٌ اه. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَٱلْمُرَادُ ٱلتَّقْرِيبُ مِنْ غَيْرِ مُشَاحَّةٍ كَمَا قَالَهُ ٱبْنُ سَعِيدٍ وَأَطَالَ فِي ذٰلِكَ. ثُمَّ قَالَ بَعْدَ كَلَامٍ وَمَسَافَةُ

ٱلْحَاجِزِ ٱلَّذِي بَيْنَ بَحْرِ ٱلزُّقَاقِ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ أَرْبَعُونَ مِيلًا وَهٰذَا عَرْضُ ٱلْأَنْدَلُسِ عِنْدَ رَأْسِهَا مِنْ جِهَةِ ٱلشَّرْقِ وَلِقِلَّتِهِ سُمِّيَتْ جَزِيرَةً وَإِلَّا فَلَيْسَتْ بِجَزِيرَةٍ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ لِاتِّصَالِ هٰذَا ٱلْقَدْرِ بِٱلْأَرْضِ ٱلْكَبِيرَةِ. وَعَرْضُ جَزِيرَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي مَوْسِطِهَا عِنْدَ طُلَيْطِلَةَ سِتَّةَ عَشَرَ يَوْمًا.......

قَالَ ٱلشَّيْخُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ ٱبْنِ مُوسَى ٱلرَّازِيُّ : بَلَدُ ٱلْأَنْدَلُسِ هُوَ آخِرُ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ وَهُوَ عِنْدَ ٱلْحُكَمَاءِ بَلَدٌ كَرِيمُ ٱلْبُقْعَةِ طَيِّبُ ٱلتُّرْبَةِ خِصْبُ ٱلْجَنَابِ مُنْبَجِسُ ٱلْأَنْهَارِ ٱلْغِزَارِ وَٱلْعُيُونِ ٱلْعِذَابِ. قَلِيلُ ٱلْهَوَامِّ ذَوَاتِ ٱلسُّمُومِ. مُعْتَدِلُ ٱلْهَوَاءِ وَٱلْجَوِّ وَٱلنَّسِيمِ رَبِيعُهُ وَخَرِيفُهُ وَمَشْتَاهُ وَمَصِيفُهُ عَلَى قَدَرٍ مِنَ ٱلِاعْتِدَالِ وَسُطَةٌ مِنَ ٱلْحَالِ لَا يَتَوَلَّدُ فِي أَحَدِهَا فَصْلٌ يَتَوَلَّدُ مِنْهُ فِيمَا يَتْلُوهُ ٱنْتِقَاصٌ تَتَّصِلُ فَوَاكِهُهُ أَكْثَرَ ٱلْأَزْمِنَةِ وَتَدُومُ مُتَلَاحِقَةً غَيْرَ مَفْقُودَةٍ. أَمَّا ٱلسَّاحِلُ مِنْهُ وَنَوَاحِيهِ فَيُبَادِرُ بِبَاكُورِهِ. وَأَمَّا ٱلثَّغْرُ وَجِهَاتُهُ وَٱلْجِبَالُ ٱلْمَخْصُوصَةُ بِبَرْدِ ٱلْهَوَاءِ فَيَتَأَخَّرُ بِٱلْكَثِيرِ مِنْ ثَمَرِهِ فَمَادَّةُ ٱلْخَيْرَاتِ بِٱلْبَلَدِ مُتَمَادِيَةٌ فِي كُلِّ ٱلْأَحْيَانِ وَفَوَاكِهُهُ عَلَى ٱلْجُمْلَةِ غَيْرُ مَعْدُومَةٍ فِي كُلِّ أَوَانٍ. وَلَهُ خَوَاصٌّ فِي كَرَمِ ٱلنَّبَاتِ تُوَافِقُ فِي بَعْضِهَا أَرْضَ ٱلْهِنْدِ ٱلْمَخْصُوصَةِ بِكَرَمِ ٱلنَّبَاتِ وَجَوَاهِرِهِ مِنْهَا أَنَّ ٱلْمَحْلَبَ وَهُوَ ٱلْمُقَدَّمُ فِي ٱلْأَفَاوِيهِ وَٱلْمُفَضَّلُ فِي أَنْوَاعِ ٱلْأُشْنَانِ لَا يَنْبُتُ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِٱلْهِنْدِ وَٱلْأَنْدَلُسِ. وَلِلْأَنْدَلُسِ ٱلْمُدُنُ ٱلْحَصِينَةُ وَٱلْمَعَاقِلُ ٱلْمَنِيعَةُ وَٱلْقِلَاعُ ٱلْحَرِيزَةُ وَٱلْمَصَانِعُ ٱلْجَلِيلَةُ وَلَهَا ٱلْبَرُّ وَٱلْبَحْرُ وَٱلسَّهْلُ وَٱلْوَعْرُ وَشَكْلُهَا مُثَلَّثٌ

وَهِيَ مُعْتَمِدَةٌ عَلَى ثَلَاثَةِ أَرْكَانٍ ٱلْأَوَّلُ هُوَ ٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي فِيهِ صَنَمُ قَادِسَ

ٱلْمَشْهُورُ بِٱلْأَنْدَلُسِ وَمِنْهُ مَخْرَجُ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُتَوَسِّطِ ٱلشَّامِيِّ ٱلْآخِذِ بِقِبْلِيِّ ٱلْأَنْدَلُسِ. وَٱلرُّكْنُ ٱلثَّانِي هُوَ بِشَرْقِيِّ ٱلْأَنْدَلُسِ بَيْنَ مَدِينَةِ بَرْبُونَةَ وَمَدِينَةِ بَرْدِيلَ مِمَّا بِأَيْدِي ٱلْفِرَنْجَةِ ٱلْيَوْمَ بِإِزَاءِ جَزِيرَتَيْ مَيُورْقَةَ وَمَنُورْقَةَ بِمُجَاوَرَةٍ مِنَ ٱلْبَحْرَيْنِ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمُتَوَسِّطِ وَبَيْنَهُمَا ٱلْبَرُّ ٱلَّذِي يُعْرَفُ بِٱلْأَبْوَابِ وَهُوَ ٱلْمَدْخَلُ إِلَى بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنَ ٱلْأَرْضِ ٱلْكَبِيرَةِ عَلَى بَلَدِ أُفْرَنْجَةَ. وَمَسَافَتُهُ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ مَسِيرَةُ يَوْمَيْنِ وَمَدِينَةُ بَرْبُونَةَ تُقَابِلُ ٱلْبَحْرَ ٱلْمُحِيطَ. وَٱلرُّكْنُ ٱلثَّالِثُ مِنْهَا هُوَ مَا بَيْنَ ٱلْجَوْفِ وَٱلْغَرْبِ مِنْ حَيِّزِ جِلِّيقِيَّةَ حَيْثُ ٱلْجَبَلُ ٱلْمُوفِي عَلَى ٱلْبَحْرِ. وَفِيهَا ٱلصَّنَمُ ٱلْعَالِي ٱلْمُشَبَّهُ بِصَنَمِ قَادِسَ وَهُوَ ٱلطَّالِعُ عَلَى بَلَدِ بَرْطَانِيَةَ

قَالَ وَٱلْأَنْدَلُسُ أَنْدَلُسَانِ فِي ٱخْتِلَافِ هُبُوبِ رِيَاحِهَا وَمَوَاقِعِ أَمْطَارِهَا وَجَرَيَانِ أَنْهَارِهَا أَنْدَلُسٌ غَرْبِيٌّ وَأَنْدَلُسٌ شَرْقِيٌّ. فَٱلْغَرْبِيُّ مِنْهُمَا مَا جَرَتْ أَوْدِيَتُهُ إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ ٱلْغَرْبِيِّ وَيُمْطَرُ بِٱلرِّيَاحِ ٱلْغَرْبِيَّةِ وَمُبْتَدَأُ هٰذَا ٱلْحَوْزِ مِنْ نَاحِيَةِ ٱلْمَشْرِقِ مَعَ ٱلْمَفَازَةِ ٱلْخَارِجَةِ مَعَ ٱلْجَوْفِ إِلَى بَلَدِ شَنْتَمَرِيَةَ طَالِعًا إِلَى حَوْزِ إِغْرِيطَةَ ٱلْمُجَاوِرَةِ لِطُلَيْطُلَةَ مَائِلًا إِلَى ٱلْغَرْبِ وَمُجَاوِرًا لِلْبَحْرِ ٱلْمُتَوَسِّطِ ٱلْمُوَازِي لِقُرْطَاجَنَّةَ ٱلْحَلْفَاءِ ٱلَّتِي مِنْ بَلَدِ لُورَقَةَ وَٱلْحَوْزُ ٱلشَّرْقِيُّ ٱلْمَعْرُوفُ بِٱلْأَنْدَلُسِ ٱلْأَقْصَى وَتَجْرِي أَوْدِيَتُهُ إِلَى ٱلشَّرْقِ وَأَمْطَارُهُ بِٱلرِّيحِ ٱلشَّرْقِيَّةِ وَهُوَ مِنْ حَدِّ جَبَلِ ٱلْبَشْكَنْشِ هَابِطًا مَعَ وَادِي إِبْرَةَ إِلَى بَلَدِ شِنْتَ مَرِيَهْ. وَمِنْ جَوْفِ هٰذَا وَغَرْبِهِ ٱلْبَحْرُ ٱلْمُحِيطُ وَفِي ٱلْقِبْلَةِ مِنْهُ ٱلْبَحْرُ ٱلْغَرْبِيُّ ٱلَّذِي مِنْهُ يَجْرِي ٱلْبَحْرُ ٱلْمُتَوَسِّطُ ٱلْخَارِجُ إِلَى بَلَدِ ٱلشَّامِ وَهُوَ ٱلْبَحْرُ ٱلْمُسَمَّى بِبَحْرِ تِيرَانَ وَمَعْنَاهُ ٱلَّذِي يَشُقُّ دَائِرَةَ

ٱلْأَرْضِ وَيُسَمَّى ٱلْبَحْرَ ٱلْكَبِيرَ. ٱنْتَهَى

قَالَ أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ عَبْدِ ٱلْحَكَمِ ٱلْمَعْرُوفُ بِٱبْنِ ٱلنَّظَّامِ. بَلَدُ ٱلْأَنْدَلُسِ عِنْدَ عُلَمَاءِ أَهْلِهِ أَنْدَلُسَانِ. فَٱلْأَنْدَلُسُ ٱلشَّرْقِيُّ مِنْهُ مَا صَبَّتْ أَوْدِيَتُهُ إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلرُّومِيِّ ٱلْمُتَوَسِّطِ ٱلْمُتَصَاعِدِ مِنْ أَسْفَلِ أَرْضِ ٱلْأَنْدَلُسِ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ وَذٰلِكَ مَا بَيْنَ مَدِينَةِ تُدْمِيرَ إِلَى سَرَقُسْطَةَ. وَٱلْأَنْدَلُسُ ٱلْغَرْبِيُّ مَا صَبَّتْ أَوْدِيَتُهُ إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْكَبِيرِ ٱلْمَعْرُوفِ بِٱلْمُحِيطِ أَسْفَلَ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْحَدِّ إِلَى سَاحِلِ ٱلْمَغْرِبِ. فَٱلشَّرْقِيُّ مِنْهُمَا يُمْطَرُ بِٱلرِّيحِ ٱلشَّرْقِيَّةِ وَيَصْلُحُ عَلَيْهَا وَٱلْغَرْبِيُّ يُمْطَرُ بِٱلرِّيحِ ٱلْغَرْبِيَّةِ وَبِهَا صَلَاحُهُ وَجِبَالُهُ هَابِطَةٌ إِلَى ٱلْغَرْبِ جَبَلًا بَعْدَ جَبَلٍ. وَإِنَّمَا قَسَمَتْهُ ٱلْأَوَائِلُ جُزْءَيْنِ لِٱخْتِلَافِهِمَا فِي حَالِ أَمْطَارِهِمَا وَذٰلِكَ أَنَّهُ مَهْمَا ٱسْتَحْكَمَتِ ٱلرِّيحُ ٱلْغَرْبِيَّةُ كَثُرَ مَطَرُ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلْغَرْبِيِّ وَقَحِطَ ٱلْأَنْدَلُسُ ٱلشَّرْقِيُّ وَمَتَى ٱسْتَحْكَمَتِ ٱلرِّيحُ ٱلشَّرْقِيَّةُ كَثُرَ مَطَرُ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلشَّرْقِيِّ وَقَحِطَ ٱلْغَرْبِيُّ. وَأَوْدِيَةُ هٰذَا ٱلْقِسْمِ تَجْرِي مِنَ ٱلشَّرْقِ إِلَى ٱلْغَرْبِ بَيْنَ هٰذِهِ ٱلْجِبَالِ. وَجِبَالُ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلْغَرْبِيِّ تَمْتَدُّ إِلَى ٱلشَّرْقِ جَبَلًا بَعْدَ جَبَلٍ تَقْطَعُ مِنَ ٱلْجَوْفِ إِلَى ٱلْقِبْلَةِ وَٱلْأَوْدِيَةُ ٱلَّتِي تَخْرُجُ مِنْ تِلْكَ ٱلْجِبَالِ يَقْطَعُ بَعْضُهَا إِلَى ٱلْقِبْلَةِ وَبَعْضُهَا إِلَى ٱلشَّرْقِ وَتَنْصَبُّ كُلُّهَا إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ بِٱلْأَنْدَلُسِ ٱلْقَاطِعِ إِلَى ٱلشَّامِ وَهُوَ ٱلْبَحْرُ ٱلرُّومِيُّ. وَمَا كَانَ مِنْ بِلَادِ جَوْفِيِّ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنْ بِلَادِ جِلِّيقِيَّةَ وَمَا يَلِيهَا فَإِنَّ أَوْدِيَتَهُ تَنْصَبُّ إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْكَبِيرِ ٱلْمُحِيطِ بِنَاحِيَةِ ٱلْجَوْفِ. وَصِفَةُ ٱلْأَنْدَلُسِ شَكْلٌ مُرَكَّنٌ عَلَى مِثَالِ ٱلشَّكْلِ ٱلْمُثَلَّثِ. رُكْنُهَا ٱلْوَاحِدُ فِيمَا بَيْنَ ٱلْجَنُوبِ وَٱلْمَغْرِبِ حَيْثُ ٱجْتِمَاعُ ٱلْبَحْرَيْنِ عِنْدَ صَنَمِ قَادِسَ. وَرُكْنُهَا ٱلثَّانِي فِي بَلَدِ جِلِّيقِيَّةَ حَيْثُ ٱلصَّنَمُ

ٱلْمُشْبِهُ صَنَمَ قَادِسَ مُقَابِلَ جَزِيرَةِ بَرْطَانِيَةَ. وَرُكْنُهَا ٱلثَّالِثُ بَيْنَ مَدِينَةِ بَرْيُونَةَ وَمَدِينَةِ بَرْدِيلَ مِنْ بَلَدِ ٱلفِرَنْجَةِ بِحَيْثُ بِقُرْبِ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلشَّامِيِّ ٱلْمُتَوَسِّطِ فَيَكَادَانِ يَجْتَمِعَانِ فِي ذَٰلِكَ ٱلْمَوْضِعِ فَيَصِيرُ بَلَدُ ٱلْأَنْدَلُسِ جَزِيرَةً بَيْنَهُمَا فِي ٱلْحَقِيقَةِ لَوْلَا أَنَّهُ يَبْقَى بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ بَرِّيَّةٌ صَحْرَاءُ وَعِمَارَةُ مَسَافَةِ مَسِيرَةِ يَوْمٍ لِلرَّاكِبِ مِنْهُ ٱلْمَدْخَلُ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْكَبِيرَةِ ٱلَّتِي يُقَالُ لَهَا ٱلْأَبْوَابُ وَمِنْ قِبَلِهِ يَتَّصِلُ بَلَدُ ٱلْأَنْدَلُسِ بِتِلْكَ ٱلْبِلَادِ ٱلْمَعْرُوفَةِ بِٱلْأَرْضِ ٱلْكَبِيرَةِ ذَاتِ ٱلْأَلْسُنِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ

قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ وَمِيزَانُ وَصْفِ ٱلْأَنْدَلُسِ أَنَّهَا جَزِيرَةٌ قَدْ أَحْدَقَتْ بِهَا ٱلْبِحَارُ فَأَكْثَرَتْ فِيهَا ٱلْخِصْبَ وَٱلْعِمَارَةَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ. فَمَتَى سَافَرْتَ مِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ لَا تَكَادُ تَنْقَطِعُ مِنَ ٱلْعِمَارَةِ مَا بَيْنَ قُرًى وَمِيَاهٍ وَمَزَارِعَ وَٱلصَّحَارِي فِيهَا مَعْدُومَةٌ . وَمِمَّا ٱخْتُصَّتْ بِهِ أَنَّ قُرَاهَا فِي نِهَايَةٍ مِنَ ٱلْجَمَالِ لِتَصَنُّعِ أَهْلِهَا فِي أَوْضَاعِهَا وَتَبْيِيضِهَا لِئَلَّا تَنْبُو ٱلْعُيُونُ عَنْهَا فَهِيَ كَمَا قَالَ ٱلْوَزِيرُ ٱبْنُ ٱلْحِمَارَةِ فِيهَا

لَاحَتْ قُرَاهَا بَيْنَ خُضْرَةِ أَيْكِهَا   كَٱلدُّرِّ بَيْنَ زَبَرْجَدٍ مَكْنُونِ

وَلَقَدْ تَعَجَّبْتُ لَمَّا دَخَلْتُ ٱلدِّيَارَ ٱلْمِصْرِيَّةَ مِنْ أَوْضَاعِ قُرَاهَا ٱلَّتِي تُكَدِّرُ ٱلْعَيْنَ بِسَوَادِهَا وَيَضِيقُ ٱلصَّدْرُ بِضِيقِ أَوْضَاعِهَا. وَفِي ٱلْأَنْدَلُسِ جِهَاتٌ تَقْرُبُ فِيهَا ٱلْمَدِينَةُ ٱلْعَظِيمَةُ ٱلْمُمَصَّرَةُ مِنْ مِثْلِهَا . وَٱلْمِثَالُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّكَ إِذَا تَوَجَّهْتَ مِنْ إِشْبِيلِيَةَ فَعَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَبَعْضِ آخَرَ مَدِينَةُ شَرِيشَ وَهِيَ فِي نِهَايَةٍ مِنَ ٱلْحَضَارَةِ وَٱلنَّضَارَةِ . ثُمَّ يَلِيهَا ٱلْجَزِيرَةُ ٱلْخَضْرَاءُ كَذَٰلِكَ ثُمَّ مَالَقَةُ . وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي ٱلْأَنْدَلُسِ وَلِهٰذَا كَثُرَتْ مُدُنُهَا وَأَكْثَرُهَا مُسَوَّرٌ مِنْ

أَجْلِ ٱلِاسْتِعْدَادِ لِلْعَدُوِّ فَحَصَلَ لَهَا بِذَٰلِكَ ٱلتَّشْيِيدُ وَٱلتَّزْيِينُ وَفِي حُصُونِهَا مَا يَبْقَى فِي مُحَارَبَةِ ٱلْعَدُوِّ مَا يُنِيفُ عَلَى عِشْرِينَ سَنَةً لِامْتِنَاعِ مَعَاقِلِهَا وَدُرْبَةِ أَهْلِهَا عَلَى ٱلْحَرْبِ وَٱعْتِيَادِهِمْ لِمُجَاوَرَةِ ٱلْعَدُوِّ بِٱلطَّعْنِ وَٱلضَّرْبِ وَكَثْرَةِ مَا تَخْزُنُ ٱلْغَلَّةُ فِي مَطَامِيرِهَا. فَمِنْهَا مَا يَطُولُ صَبْرُهُ عَلَيْهَا نَحْوًا مِنْ مِائَةِ سَنَةٍ. قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ وَلِذَٰلِكَ أَدَامَهَا ٱللهُ تَعَالَى مِنْ وَقْتِ ٱلْفَتْحِ إِلَى ٱلْآنَ. وَإِنْ كَانَ ٱلْعَدُوُّ قَدْ نَقَصَهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَشَارَكَ فِي أَوْسَاطِهَا. فَفِي ٱلْبَقِيَّةِ مَنَعَةٌ عَظِيمَةٌ فَأَرْضٌ بَقِيَ فِيهَا مِثْلُ إِشْبِيلِيَةَ وَغَرْنَاطَةَ وَمَالَقَةَ وَٱلْمَرِيَّةِ وَمَا يَنْضَافُ إِلَى هٰذِهِ ٱلْحَوَاضِرِ ٱلْعَظِيمَةِ ٱلْمُمَصَّرَةِ ٱلرَّجَاءُ فِيهَا قَوِيٌّ بِحَوْلِ ٱللهِ وَقُوَّتِهِ. ٱنْتَهَى

وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي إِشْبِيلِيَةَ إِنَّهَا قَاعِدَةُ بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَحَاضِرَتُهَا وَمَدِينَةُ ٱلْأَدَبِ وَٱللَّهْوِ وَٱلطَّرَبِ وَهِيَ عَلَى ضَفَّةِ ٱلنَّهْرِ ٱلْكَبِيرِ عَظِيمَةُ ٱلشَّأْنِ طَيِّبَةُ ٱلْمَكَانِ لَهَا ٱلْبَرُّ ٱلْمَدِيدُ وَٱلْبَحْرُ ٱلسَّاكِنُ وَٱلْوَادِي ٱلْعَظِيمُ وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ إِلَى أَنْ قَالَ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهَا مِنَ ٱلشَّرَفِ إِلَّا مَوْضِعُ ٱلشَّرَفِ ٱلْمُقَابِلُ ٱلْمُطِلُّ عَلَيْهَا ٱلْمَشْهُورُ بِٱلزَّيْتُونِ ٱلْكَثِيرِ ٱلْمُمْتَدِّ فَرَاسِخَ فِي فَرَاسِخَ لَكَفَى. وَبِهَا مَنَارَةٌ فِي جَامِعِهَا بَنَاهَا يَعْقُوبُ ٱلْمَنْصُورُ لَيْسَ فِي بِلَادِ ٱلْإِسْلَامِ أَعْظَمُ بِنَاءً مِنْهَا وَعَسَلُ ٱلشَّرَفِ يَبْقَى حِينًا لَا يَتَرَمَّلُ وَلَا يَتَبَدَّلُ وَكَذَٰلِكَ ٱلزَّيْتُ وَٱلتِّينُ. وَقَالَ ٱبْنُ مُفْلِحٍ إِنَّ إِشْبِيلِيَةَ عَرُوسُ بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ لِأَنَّ تَاجَهَا ٱلشَّرَفُ وَفِي عُنُقِهَا سِمْطُ ٱلنَّهْرِ ٱلْأَعْظَمِ وَلَيْسَ فِي ٱلْأَرْضِ أَتَمُّ حُسْنًا مِنْ هٰذَا ٱلنَّهْرِ يُضَاهِي دِجْلَةَ وَٱلْفُرَاتَ وَٱلنِّيلَ تَسِيرُ ٱلْقَوَارِبُ فِيهِ لِلنُّزْهَةِ وَٱلسَّيْرِ وَٱلصَّيْدِ تَحْتَ ظِلَالِ ٱلثِّمَارِ وَتَغْرِيدِ ٱلْأَطْيَارِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ مِيلًا وَيَتَعَاطَى ٱلنَّاسُ ٱلسَّرْحَ مِنْ جَانِبَيْهِ عَشَرَةَ فَرَاسِخَ فِي

عِمَارَةٌ مُتَّصِلَةٌ وَمَنَارَاتٌ مُرْتَفِعَةٌ وَأَبْرَاجٌ مُشَيَّدَةٌ وَفِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلسَّمَكِ مَا لَا يُحْصَى . وَبِٱلْجُمْلَةِ فَهِيَ قَدْ حَازَتِ ٱلْبَرَّ وَٱلْبَحْرَ وَٱلزَّرْعَ وَٱلضَّرْعَ وَكَثْرَةَ ٱلثِّمَارِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ وَقَصَبَ ٱلسُّكَّرِ وَيُجْمَعُ مِنْهَا ٱلْقِرْمِزُ ٱلَّذِي هُوَ أَجَلُّ مِنَ ٱللَّكِّ ٱلْهِنْدِيِّ وَزَيْتُونُهَا يُخْزَنُ تَحْتَ ٱلْأَرْضِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً . ثُمَّ يُعْتَصَرُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ أَكْثَرُ مِمَّا يَخْرُجُ مِنْهُ وَهُوَ طَرِيٌّ . ٱنْتَهَى مُلَخَّصًا

وَلَمَّا ذَكَرَ ٱبْنُ ٱلْيَسَعِ ٱلْأَنْدَلُسَ قَالَ لَا يَتَزَوَّدُ فِيهَا أَحَدٌ مَا حَيْثُ سَلَكَ لِكَثْرَةِ أَنْهَارِهَا وَعُيُونِهَا وَرُبَّمَا لَقِيَ ٱلْمُسَافِرُ فِيهَا فِي ٱلْيَوْمِ ٱلْوَاحِدِ أَرْبَعَ مَدَائِنَ وَمِنَ ٱلْمَعَاقِلِ وَٱلْقُرَى مَا لَا يُحْصَى وَهِيَ بِطَاحٌ خُضْرٌ وَقُصُورٌ بِيضٌ . قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ وَأَنَا أَقُولُ كَلَامًا فِيهِ كِفَايَةٌ مُنْذُ خَرَجْتُ مِنْ جَزِيرَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَطُفْتُ فِي بَرِّ ٱلْعُدْوَةِ وَرَأَيْتُ مُدُنَهَا ٱلْعَظِيمَةَ كَمَرَاكُشَ وَفَاسَ وَسَلَا وَسَبْتَةَ . ثُمَّ طُفْتُ فِي أَفْرِيقِيَةَ وَمَا جَاوَرَهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَوْسَطِ فَرَأَيْتُ بِجَايَةَ وَتُونُسَ . ثُمَّ دَخَلْتُ ٱلدِّيَارَ ٱلْمِصْرِيَّةَ فَرَأَيْتُ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةَ وَٱلْقَاهِرَةَ وَٱلْفُسْطَاطَ . ثُمَّ دَخَلْتُ ٱلشَّامَ فَرَأَيْتُ دِمَشْقَ وَحَلَبَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَمْ أَرَ مَا يُشْبِهُ رَوْنَقَ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي مِيَاهِهَا وَأَشْجَارِهَا إِلَّا مَدِينَةَ فَاسَ بِٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَقْصَى وَمَدِينَةَ دِمَشْقَ بِٱلشَّامِ وَفِي حَمَاةَ مَسْحَةٌ أَنْدَلُسِيَّةٌ وَلَمْ أَرَ مَا يُشْبِهُهَا فِي حُسْنِ ٱلْمَبَانِي وَٱلتَّشْيِيدِ وَٱلتَّصْنِيعِ إِلَّا مَا شُيِّدَ بِمَرَاكُشَ فِي دَوْلَةِ بَنِي عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ وَبَعْضِ ٱلْأَمَاكِنِ فِي تُونُسَ . وَإِنْ كَانَ ٱلْغَالِبُ عَلَى تُونُسَ ٱلْبِنَاءَ بِٱلْحِجَارَةِ كَٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَلَكِنَّ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةَ أَفْسَحُ شَوَارِعَ وَأَبْسَطُ وَأَبْدَعُ وَمَبَانِي حَلَبَ دَاخِلَةٌ فِيمَا يُسْتَحْسَنُ لِأَنَّهَا مِنْ حِجَارَةٍ صُلْبَةٍ وَفِي وَضْعِهَا وَتَرْتِيبِهَا إِتْقَانٌ . ٱنْتَهَى . وَمِنْ أَحْسَنِ مَا جَاءَ مِنَ ٱلنَّظْمِ فِي ٱلْأَنْدَلُسِ قَوْلُ ٱبْنِ سَفَرٍ

لِمَرِينِيٍّ وَالإِحْسَانُ لَهُ عَادَةٌ

فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ تَلْتَذُّ نَعْمَاءُ ... وَلَا يُفَارِقُ فِيهَا ٱلْقَلْبَ سَرَّاءُ
وَلَيْسَ فِي غَيْرِهَا بِٱلْعَيْشِ مُنْتَفَعٌ ... وَلَا تَقُومُ بِحَقِّ ٱلْأُنْسِ صَهْبَاءُ
وَأَيْنَ يُعْدَلُ عَنْ أَرْضٍ تَحُضُّ بِهَا ... عَلَى ٱلْمُدَامَةِ أَمْوَاهٌ وَأَفْيَاءُ
وَكَيْفَ لَا يُبْهِجُ ٱلْأَبْصَارَ رُؤْيَتُهَا ... وَكُلُّ رَوْضٍ بِهَا فِي ٱلْوَشْيِ صَنْعَاءُ
أَنْهَارُهَا فِضَّةٌ وَٱلْمِسْكُ تُرْبَتُهَا ... وَٱلْخَزُّ رَوْضَتُهَا وَٱلدُّرُّ حَصْبَاءُ
وَلِلْهَوَاءِ بِهَا لُطْفٌ يَرِقُّ بِهِ ... مَنْ لَا يَرِقُّ وَتَبْدُو مِنْهُ أَهْوَاءُ
لَيْسَ ٱلنَّسِيمُ ٱلَّذِي يَهْفُو بِهَا سَحَرًا ... وَلَا ٱنْتِثَارُ لَآلِي ٱلطَّلِّ أَنْدَاءُ
وَإِنَّمَا أَرَجُ ٱلنَّدِّ ٱسْتَثَارَ بِهَا ... فِي مَاءِ وَرْدٍ فَطَابَتْ مِنْهُ أَرْجَاءُ
وَأَيْنَ يَبْلُغُ مِنْهَا مَا أُصَنِّفُهُ ... وَكَيْفَ يَحْوِي ٱلَّذِي حَازَتْهُ إِحْصَاءُ
قَدْ مُيِّزَتْ مِنْ جِهَاتِ ٱلْأَرْضِ حِينَ بَدَتْ ... فَرِيدَةً وَتَوَلَّى مَيْزَهَا ٱلْمَاءُ
دَارَتْ عَلَيْهَا نِطَاقًا أَبْحُرٌ خَفَقَتْ ... وَجْدًا بِهَا إِذْ تَبَدَّتْ وَهْيَ حَسْنَاءُ
لِذَاكَ يَبْسِمُ فِيهَا ٱلزَّهْرُ مِنْ طَرَبٍ ... وَٱلطَّيْرُ يَشْدُو وَلِلْأَغْصَانِ إِصْغَاءُ
فِيهَا خَلَعْتُ عِذَارِي مَا بِهَا عِوَضٌ ... فَهْيَ ٱلرِّيَاضُ وَكُلُّ ٱلْأَرْضِ صَحْرَاءُ

وَلِلّٰهِ دَرُّ ٱبْنِ خَفَاجَةَ حَيْثُ يَقُولُ

إِنَّ لِلْجَنَّةِ بِٱلْأَنْدَلُسِ ... مُجْتَلَى مَرْأًى وَرَيَّا نَفَسِ
فَسَنَى صُبْحَتِهَا مِنْ شَنَبٍ ... وَدُجَى ظُلْمَتِهَا مِنْ لَعَسِ
فَإِذَا مَا هَبَّتِ ٱلرِّيحُ صَبًا • صِحْتُ وَاشَوْقِي إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ

وَقَدْ تَقَدَّمَتْ هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتُ . قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ قَالَ ٱبْنُ خَفَاجَةَ هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتَ وَهُوَ بِٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَقْصَى فِي بَرِّ ٱلْعُدْوَةِ وَمَنْزِلُهُ فِي شَرْقِ

ٱلْأَنْدَلُسِ بِجَزِيرَةِ شَقْرٍ. وَقَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ فِي ٱلْمُغْرِبِ مَا نَصُّهُ قَوَاعِدُ مِنْ كِتَابِ ٱلشُّهُبِ ٱلثَّاقِبَةِ فِي ٱلْإِنْصَافِ بَيْنَ ٱلْمَشَارِقَةِ وَٱلْمَغَارِبَةِ أَوَّلُ مَا تَقَدَّمَ ٱلْكَلَامُ عَلَى قَاعِدَةِ ٱلسَّلْطَنَةِ بِٱلْأَنْدَلُسِ فَنَقُولُ إِنَّهَا مَعَ مَا بِأَيْدِي عُبَّادِ ٱلصَّلِيبِ مِنْهَا أَعْظَمُ سَلْطَنَةٍ كَثُرَتْ مَمَالِكُهَا وَتَشَعَّبَتْ فِي وُجُوهِ ٱلِٱسْتِظْهَارِ لِلسُّلْطَانِ إِعَانَتُهَا وَنَدَعُ كَلَامَنَا فِي هٰذَا ٱلشَّأْنِ وَنَنْقُلُ مَا قَالَهُ ٱبْنُ حَوْقَلٍ ٱلنَّصِيبِيُّ فِي كِتَابِهِ لَمَّا دَخَلَهَا فِي مُدَّةِ خِلَافَةِ بَنِي مَرْوَانَ بِهَا فِي ٱلْمِائَةِ ٱلرَّابِعَةِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا وَصَفَهَا قَالَ وَأَمَّا جَزِيرَةُ ٱلْأَنْدَلُسِ فَجَزِيرَةٌ كَبِيرَةٌ طُولُهَا دُونَ ٱلشَّهْرِ فِي عَرْضٍ نَيِّفٍ وَعِشْرِينَ مَرْحَلَةً تَغْلِبُ عَلَيْهَا ٱلْمِيَاهُ ٱلْجَارِيَةُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلثَّمَرُ وَٱلرُّخْصُ وَٱلسَّعَةُ فِي ٱلْأَحْوَالِ مِنَ ٱلرَّقِيقِ ٱلْفَاخِرِ وَٱلْخِصْبِ ٱلظَّاهِرِ إِلَى أَسْبَابِ ٱلتَّمَلُّكِ ٱلْفَاشِيَةِ فِيهَا وَلِمَا هِيَ بِهِ مِنْ أَسْبَابِ رَغْدِ ٱلْعَيْشِ وَسَعَتِهِ وَكَثْرَتِهِ يَمْلِكُ ذٰلِكَ مِنْهُمْ مَهِينُهُمْ وَأَرْبَابُ صَنَائِعِهِمْ لِقِلَّةِ مُؤُونَتِهِمْ وَصَلَاحِ بِلَادِهِمْ. ثُمَّ أَخَذَ فِي عِظَمِ سُلْطَانِهَا وَوَصْفِ وُفُورِ جِبَايَاتِهِ وَعِظَمِ مَرَافِقِهِ

وَقَالَ فِي أَثْنَاءِ ذٰلِكَ وَمِمَّا يَدُلُّ بِٱلْقَلِيلِ مِنْهُ عَلَى كَثِيرِهِ أَنَّ سِكَّةَ دَارِ ضَرْبِهِ عَلَى ٱلدَّرَاهِمِ وَٱلدَّنَانِيرِ دَخْلُهَا فِي كُلِّ سَنَةٍ مِائَتَا أَلْفِ دِينَارٍ وَصَرْفُ ٱلدِّينَارِ سَبْعَةَ عَشَرَ دِرْهَمًا هٰذَا إِلَى صَدَقَاتِ ٱلْبَلَدِ وَجِبَايَاتِهِ وَخَرَاجَاتِهِ وَأَعْشَارِهِ وَضَمَانَاتِهِ وَٱلْأَمْوَالِ ٱلْمَرْسُومَةِ عَلَى ٱلْمَرَاكِبِ ٱلْوَارِدَةِ وَٱلصَّادِرَةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ. وَذَكَرَ ٱبْنُ بَشْكُوَالَ إِنَّ جِبَايَةَ ٱلْأَنْدَلُسِ بَلَغَتْ فِي مُدَّةِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ ٱلنَّاصِرِ خَمْسَةَ ٱلْآفِ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَرْبَعِمِائَةِ أَلْفٍ وَثَمَانِينَ أَلْفًا مِنَ ٱلسُّوقِ وَٱلْمُسْتَخْلَصُ سَبْعِمِائَةِ أَلْفٍ وَخَمْسَةٌ وَسِتُّونَ أَلْفَ دِينَارٍ

ثُمَّ قَالَ ٱبْنُ حَوْقَلٍ. وَمِنْ أَعْجَبِ مَا فِي هٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ بَقَاؤُهَا عَلَى مَنْ هِيَ فِي يَدِهِ مَعَ صِغَرِ أَحْلَامِ أَهْلِهَا وَضَعَةِ نُفُوسِهِمْ وَنَقْصِ عُقُولِهِمْ وَبُعْدِهِمْ مِنَ ٱلْبَأْسِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْفُرُوسِيَّةِ وَٱلْبَسَالَةِ وَلِقَاءِ ٱلرِّجَالِ وَمِرَاسِ ٱلْأَنْجَادِ وَٱلْأَبْطَالِ مَعَ عِلْمِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِمَحَلِّهَا فِي نَفْسِهَا وَمِقْدَارِ جِبَايَاتِهَا وَمَوَاقِعِ نِعَمِهَا وَلَذَّاتِهَا

قَالَ عَلِيُّ بْنُ سَعِيدٍ مُكَمِّلُ هٰذَا ٱلْكِتَابِ. لَمْ أَرَ بُدًّا مِنْ إِثْبَاتِ هٰذَا ٱلْفَصْلِ وَإِنْ كَانَ عَلَى أَهْلِ بَلَدِي فِيهِ مِنَ ٱلظُّلْمِ وَٱلتَّعَصُّبِ مَا لَا يَخْفَى وَلِسَانُ ٱلْحَالِ فِي ٱلرَّدِّ أَنْطَقُ مِنْ لِسَانِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَلَيْتَ شِعْرِي إِذْ سُلِبَ أَهْلُ هٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلْعُقُولَ وَٱلْآرَاءَ وَٱلْهِمَمَ وَٱلشَّجَاعَةَ. فَمَنِ ٱلَّذِينَ دَبَّرُوهَا بِآرَائِهِمْ وَعُقُولِهِمْ مَعَ مُرَاصَدَةِ أَعْدَائِهَا ٱلْمُجَاوِرِينَ لَهَا مِنْ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ وَنَيِّفٍ وَمَنِ ٱلَّذِينَ حَمَوْهَا بِبَسَالَتِهِمْ مِنَ ٱلْأُمَمِ ٱلْمُتَّصِلَةِ بِهِمْ فِي دَاخِلِهَا وَخَارِجِهَا نَحْوَ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ فِي نُصْرَةِ ٱلصَّلِيبِ وَإِنِّي لَأَعْجَبُ مِنْهُ إِذْ كَانَ فِي زَمَانٍ قَدْ دَلَفَتْ فِيهِ عُبَّادُ ٱلصَّلِيبِ إِلَى ٱلشَّامِ وَٱلْجَزِيرَةِ وَعَاثُوا كُلَّ ٱلْعَيْثِ فِي بِلَادِ ٱلْإِسْلَامِ حَيْثُ ٱلْجُمْهُورُ وَٱلْقُبَّةُ ٱلْعُظْمَى حَتَّى أَنَّهُمْ دَخَلُوا مَدِينَةَ حَلَبَ وَمَا أَدْرَاكَ وَفَعَلُوا فِيهَا مَا فَعَلُوا وَبِلَادُ ٱلْإِسْلَامِ مُتَّصِلَةٌ بِهَا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا هُوَ مَسْطُورٌ فِي كُتُبِ ٱلتَّوَارِيخِ وَمِنْ أَعْظَمِ ذٰلِكَ وَأَشَدِّهِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَغَلَّبُونَ عَلَى ٱلْحِصْنِ مِنْ حُصُونِ ٱلْإِسْلَامِ ٱلَّتِي يَتَمَكَّنُونَ بِهَا مِنْ بَسَائِطِ بِلَادِهِمْ فَيَسْبُونَ وَيَأْسِرُونَ فَلَا تَجْتَمِعُ هِمَمُ ٱلْمُلُوكِ ٱلْمُجَاوِرَةِ عَلَى حَسْمِ ٱلدَّاءِ فِي ذٰلِكَ. وَقَدْ يَسْتَعِينُ بِهِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَيَتَمَكَّنُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلدَّاءِ ٱلَّذِي لَا يُطَبُّ. وَقَدْ كَانَتْ

جَزِيرَةُ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ بِٱلضِّدِّ مِنَ ٱلْبِلَادِ ٱلَّتِي تَرَكَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَذٰلِكَ مَوْجُودٌ فِي تَارِيخِ ٱبْنِ حَيَّانَ وَغَيْرِهِ

فِي إِلْقَاءِ ٱلْأَنْدَلُسِ لِلْمُسْلِمِينَ بِٱلْقِيَادِ وَفَتْحِهَا عَلَى يَدِ مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ وَمَوْلَاهُ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ

قَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ بَعْدَ ذِكْرِهِ أَنَّ ٱلْقُوطِيِّينَ كَانَ لَهُمْ مُلْكُ ٱلْأَنْدَلُسِ وَأَنَّ مَلِكَهُمْ لِعَهْدِ ٱلْفَتْحِ يُسَمَّى لُذْرِيقَ مَا نَصُّهُ وَكَانَتْ لَهُمْ خُطْوَةٌ وَرَاءَ ٱلْبَحْرِ فِي هٰذِهِ ٱلْعُدْوَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ خَطَوْهَا مِنْ فُرْضَةِ ٱلْمَجَازِ بِطَنْجَةَ وَمِنْ زُقَاقِ ٱلْبَحْرِ إِلَى بِلَادِ ٱلْبَرْبَرِ وَٱسْتَعْبَدُوهُمْ. وَكَانَ مَلِكُ ٱلْبَرْبَرِ بِذٰلِكَ ٱلْقُطْرِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْيَوْمَ جِبَالُ غُمَارَةَ يُسَمَّى يُلْيَانَ فَكَانَ يَدِينُ بِطَاعَتِهِمْ وَبِمِلَّتِهِمْ وَمُوسَى بْنُ نَصِيرٍ أَمِيرُ ٱلْغَرْبِ إِذْ ذَاكَ عَامِلٌ عَلَى أَفْرِيقِيَّةَ مِنْ قِبَلِ ٱلْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ وَمَنْزِلُهُ بِٱلْقَيْرَوَانِ. وَكَانَ قَدْ أَغْزَى لِذٰلِكَ ٱلْعَهْدِ عَسَاكِرَ ٱلْمُسْلِمِينَ بِلَادَ ٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَقْصَى وَدَوَّخَ أَقْطَارَهُ وَأَثْخَنَ فِي جِبَالِ طَنْجَةَ هٰذِهِ حَتَّى وَصَلَ خَلِيجَ ٱلزُّقَاقِ وَٱسْتَنْزَلَ يُلْيَانُ لِطَاعَةِ ٱلْإِسْلَامِ وَخَلَّفَ مَوْلَاهُ طَارِقَ بْنَ زِيَادٍ ٱللَّيْثِيَّ وَالِيًا بِطَنْجَةَ. وَكَانَ يُلْيَانُ يَنْقِمُ عَلَى لُذْرِيقَ [١]

(١) ان لذريق (اي رودريق) اخر ملوك الويزيقوطي في اسبانيا كان ولد دوكا قرطبة الذي امر بقلع اعينه فيتيسا الملك الويزقوطي. فنهض رودريق المشار اليه ضده وحاربه فنزع منه التاج الملوكي (سنة ٧١٠ مسيحية) غير ان اولاد الملك واقاربه استغاثوا بالعرب فاتوا لنجدتهم وامامهم طارق فاستولى على البوغار المعروف باسمه وهو بوغاز جبل طارق. فسار اليه رودريق بجيوشه وكانت نحو ٩٠ الف مقاتل فتحارب الجيشان مدة تسعة ايام في كيريس فقتل رودريق في اليوم الثالث (سنة ٧١١). هذا ومن القبل الشايع ان الكونت يليان (اي جوليانوس) قد استغاث بالعرب لينتقم عن اهانة الحقت بابنته (بوللير)

مَلِكِ ٱلْقُوطِ لِعَهْدِهِ بِٱلْأَنْدَلُسِ فَعْلَةً فَعَلَهَا زَعَمُوا بِٱبْنَتِهِ ٱلنَّاشِئَةِ فِي دَارِهِ فَغَضِبَ لِذٰلِكَ وَأَجَازَ إِلَى لُذْرِيقَ وَأَخَذَ ٱبْنَتَهُ مِنْــهُ . ثُمَّ لَحِقَ بِطَارِقٍ فَكَشَفَ لِلْعَرَبِ عَوْرَةَ ٱلْقُوطِ وَدَلَّهُمْ عَلَى عَوْرَةٍ فِيهِمْ أَمْكَنَتْ طَارِقًا فِيهَا ٱلْفُرْصَةُ فَٱنْتَهَزَهَا لِوَقْتِــهِ وَأَجَازَ ٱلْبَحْرَ سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ مِنَ ٱلْهِجْرَةِ بِإِذْنِ أَمِيرِهِ مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ فِي نَحْوِ ثَلٰثِمِائَةٍ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَٱحْتَشَدَ مَعَهُمْ مِنَ ٱلْبَرْبَرِ زُهَاءَ عَشَرَةِ آلَافٍ فَصَيَّرَهَا عَسْكَرَيْنِ أَحَدُهُمَا عَلَى نَفْسِهِ وَنَزَلَ بِهِ جَبَلَ ٱلْفَتْحِ فَسُمِّيَ جَبَلَ طَارِقٍ بِهِ وَٱلْآخَرُ عَلَى طَرِيفِ بْنِ مَالِكٍ ٱلنَّخَعِيِّ وَنَزَلَ بِمَكَانِ مَدِينَةِ طَرِيفٍ فَسُمِّيَ بِهِ وَأَدَارُوا ٱلْأَسْوَارَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لِلتَّحَصُّنِ . وَبَلَغَ ٱلْخَبَرُ إِلَى لُذْرِيقَ وَنَهَضَ إِلَيْهِمْ يَجُرُّ أُمَمَ ٱلْأَعَاجِمِ وَأَهْلَ مِلَّةِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ فِي زُهَاءِ أَرْبَعِينَ أَلْفًا وَزَحَفُوا إِلَيْهِ فَٱلْتَقَوْا بِفَحْصِ شَرِيشَ فَهَزَمَهُ ٱللهُ وَنَفَّلَهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَرِقَابَهُمْ

وَكَتَبَ طَارِقٌ إِلَى مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ بِٱلْفَتْحِ وَبِٱلْغَنَائِمِ فَحَرَّكَتْهُ ٱلْغَيْرَةُ وَكَتَبَ إِلَى طَارِقٍ يَتَوَعَّدُهُ إِنْ تَوَغَّلَ بِغَيْرِ إِذْنِهِ وَيَأْمُرُهُ أَنْ لَا يَتَجَاوَزَ مَكَانَهُ حَتَّى يَلْحَقَ بِهِ وَٱسْتَخْلَفَ عَلَى ٱلْقَيْرَوَانِ وَلَدَهُ عَبْدَ ٱللهِ وَخَرَجَ وَمَعَهُ حَبِيبُ بْنُ مَنْدَهَ ٱلْفِهْرِيُّ وَنَهَضَ مِنَ ٱلْقَيْرَوَانِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ مِنَ ٱلْهِجْرَةِ فِي عَسْكَرٍ ضَخْمٍ مِنْ وُجُوهِ ٱلْعَرَبِ ٱلْمَوَالِي وَعُرَفَاءِ ٱلْبَرْبَرِ وَوَافَى خَلِيجَ ٱلزُّقَاقِ مَا بَيْنَ طَنْجَةَ وَٱلْجَزِيرَةِ ٱلْخَضْرَاءِ . فَأَجَازَ إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ وَتَلَقَّاهُ طَارِقٌ فَٱنْقَادَ وَٱتَّبَعَ وَأَتَمَّ مُوسَى ٱلْفَتْحَ وَتَوَغَّلَ فِي ٱلْأَنْدَلُسِ إِلَى بَرْشَلُونَةَ فِي جِهَةِ ٱلشَّرْقِ وَأَرْبُونَةَ فِي ٱلْجَوْفِ وَصَنَمِ قَادِسَ فِي ٱلْغَرْبِ وَدَوَّخَ أَقْطَارَهَا وَجَمَعَ غَنَائِمَهَا . وَأَجْمَعَ أَنْ يَأْتِيَ ٱلْمَشْرِقَ مِنْ نَاحِيَةِ قُسْطَنْطِينِيَّةَ وَيَتَجَاوَزَ إِلَى

ٱلشَّامِ دُرُوبُهُ وَدُرُوبَ ٱلْأَنْدَلُسِ وَيَخُوضَ إِلَيْهِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ أُمَمِ ٱلْأَعَاجِمِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ مُجَاهِدًا فِيهِمْ مُسْتَلْحِمًا لَهُمْ إِلَى أَنْ يَلْحَقَ بِدَارِ ٱلْخِلَافَةِ

وَنَمَا ٱلْخَبَرُ إِلَى ٱلْوَلِيدِ فَٱشْتَدَّ قَلَقُهُ بِمَكَانِ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ دَارِ ٱلْحَرْبِ وَرَأَى أَنَّ مَا هَمَّ بِهِ مُوسَى غَرَرٌ بِٱلْمُسْلِمِينَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِٱلتَّوْبِيخِ وَٱلِٱنْصِرَافِ وَأَسَرَّ إِلَى سَفِيرِهِ أَنْ يَرْجِعَ بِٱلْمُسْلِمِينَ إِنْ لَمْ يَرْجِعْ وَكَتَبَ لَهُ بِذٰلِكَ عَهْدَهُ فَفَتَّ ذٰلِكَ فِي عَزْمِ مُوسَى وَقَفَلَ عَنِ ٱلْأَنْدَلُسِ بَعْدَ أَنْ أَنْزَلَ ٱلرَّابِطَةَ وَٱلْحَامِيَةَ بِثُغُورِهَا وَأَنْزَلَ ٱبْنَهُ عَبْدَ ٱلْعَزِيزِ لِسَدِّهَا وَجِهَادِ عَدُوِّهَا وَأَنْزَلَهُ بِقُرْطُبَةَ فَٱتَّخَذَهَا دَارَ إِمَارَةٍ وَٱحْتَلَّ مُوسَى بِٱلْقَيْرَوَانِ سَنَةَ خَمْسٍ وَتِسْعِينَ وَٱرْتَحَلَ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ سَنَةَ سِتٍّ بَعْدَهَا بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ ٱلْغَنَائِمِ وَٱلذَّخَائِرِ وَٱلْأَمْوَالِ عَلَى ٱلْعَجَلِ وَٱلظَّهْرِ يُقَالُ إِنَّ مِنْ جُمْلَتِهَا ثَلَاثِينَ أَلْفَ رَأْسٍ مِنَ ٱلسَّبْيِ

وَوَلَّى مُوسَى عَلَى أَفْرِيقِيَّةَ ٱبْنَهُ عَبْدَ ٱللهِ وَقَدِمَ عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ فَسَخِطَهُ وَنَكَبَهُ وَثَارَتْ عَسَاكِرُ ٱلْأَنْدَلُسِ بِٱبْنِهِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ بِإِغْرَاءِ سُلَيْمَانَ فَقَتَلُوهُ لِسَنَتَيْنِ مِنْ وِلَايَتِهِ. وَكَانَ خَيِّرًا فَاضِلًا وَٱفْتَتَحَ فِي وِلَايَتِهِ مَدَائِنَ كَثِيرَةً وَوَلِيَ مِنْ بَعْدِهِ أَيُّوبُ بْنُ حَبِيبٍ ٱللَّخْمِيُّ وَهُوَ ٱبْنُ أُخْتِ

---

(١) موسى بن نصير قائد جيوش الخليفة الوليد الاول اقامه مولاه ملكا على افريقية في ٧٠٥ فاستنجده الكونت جوليانوس في ٧١٠ فارسل مولاه طارقا فاخذ من الويزقوط اكثر ولاياتهم. ثم دخل البلاد فافتتحها وقطع جبال بيرانى وتقدم الى فرنسا حتى ابواب كاركاسونا فطلبه الوليد الى دمشق في ٧١٥ بصفة كونه قد اذنب بتعديه على مولاه طارق لحسده له فحكم عليه بدفع ٢٠٠٠٠٠ دوكا ذهب اي نحو مليوني فرنك وضُرب بالعصي ثم نفي الى مكة فتوفي في ٧١٨ (بوللير)

مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ فَوَلِيَ عَلَيْهَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ

ثُمَّ تَتَابَعَتْ وُلَاةُ ٱلْعَرَبِ عَلَى ٱلْأَنْدَلُسِ تَارَةً مِنْ قِبَلِ ٱلْخَلِيفَةِ وَتَارَةً مِنْ قِبَلِ عَامِلِهِ بِٱلْقَيْرَوَانِ وَأَثْخَنُوا فِي أُمَمِ ٱلنَّصَارَى وَٱفْتَتَحَ بَرْشَلُونَةَ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَشْرِقِ وَحُصُونَ قَشْتَالَةَ وَبَسَائِطَهَا مِنْ جِهَةِ ٱلْجَوْفِ وَٱنْقَرَضَتْ أُمَمُ ٱلْقُوطِ وَأَوَى ٱلْجَلَالِقَةُ وَمَنْ بَقِيَ مِنْ أُمَمِ ٱلْعَجَمِ إِلَى جِبَالِ قَشْتَالَةَ وَأَرْبُونَةَ وَأَفْوَاهِ ٱلدُّرُوبِ فَتَحَصَّنُوا بِهَا وَأَجَازَتْ عَسَاكِرُ ٱلْمُسْلِمِينَ مَا وَرَاءَ بَرْشَلُونَةَ مِنْ دُرُوبِ ٱلْجَزِيرَةِ حَتَّى ٱحْتَلُّوا ٱلْبَسَائِطَ وَرَاءَهَا وَتَوَغَّلُوا فِي بِلَادِ ٱلْفَرَنْجَةِ وَعَصَفَتْ رِيحُ ٱلْإِسْلَامِ بِأُمَمِ ٱلنَّصَارَى مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَرُبَّمَا كَانَ بَيْنَ جُنُودِ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنَ ٱلْعَرَبِ ٱخْتِلَافٌ وَتَنَازُعٌ أَوْجَدَ لِلْعَدُوِّ بَعْضَ ٱلْكَرَّةِ فَرَجَعَ ٱلْإِفْرَنْجُ مَا كَانُوا غَلَبُوهُمْ عَلَيْهِ مِنْ بِلَادِ بَرْشَلُونَةَ لِعَهْدِ ثَمَانِينَ سَنَةً مِنْ لَدُنْ فَتْحِهَا وَٱسْتَمَرَّ ٱلْأَمْرُ عَلَى ذٰلِكَ

انتهى المنقول
من كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب
للعلّامة المقري

مِنْ كِتَابِ ٱلْإِفَادَةِ وَٱلِاعْتِبَارِ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْمُشَاهَدَةِ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلْمُعَايَنَةِ بِأَرْضِ مِصْرَ

لِأَبِي ٱللَّطِيفِ

ٱلْمَقَالَةُ ٱلْأُولَى وَهِيَ سِتَّةُ فُصُولٍ

ٱلْفَصْلُ ٱلْأَوَّلُ

فِي خَوَاصِّ مِصْرَ ٱلْعَامَّةِ لَهَا

إِنَّ أَرْضَ مِصْرَ مِنَ ٱلْبِلَادِ ٱلْعَجِيبَةِ ٱلْآثَارِ ٱلْغَرِيبَةِ ٱلْأَخْبَارِ وَهِيَ وَادٍ يَكْتَنِفُهُ جَبَلَانِ شَرْقِيٌّ وَغَرْبِيٌّ وَٱلشَّرْقِيُّ أَعْظَمُهُمَا يَبْتَدِئَانِ مِنْ أَسْوَانَ وَيَتَقَارَبَانِ بِأَسْنَا حَتَّى يَكَادَانِ يَتَمَاسَّانِ. ثُمَّ يَنْفَرِجَانِ قَلِيلًا قَلِيلًا وَكُلَّمَا ٱمْتَدَّا طُولًا ٱنْفَرَجَا عَرْضًا حَتَّى إِذَا أَزْيَا ٱلْفُسْطَاطَ كَانَ بَيْنَهُمَا مَسَافَةُ يَوْمٍ فَمَا دُونَهُ. ثُمَّ يَتَبَاعَدَانِ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ وَٱلنِّيلُ يَنْسَابُ بَيْنَهُمَا وَيَتَشَعَّبُ بِأَسَافِلِ ٱلْأَرْضِ وَجَمِيعُ شُعَبِهِ تَصُبُّ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلْمِلْحِ

وَهٰذَا ٱلنِّيلُ لَهُ خَاصَّتَانِ ٱلْأُولَى بُعْدُ مَرْمَاهُ فَإِنَّا لَا نَعْلَمُ فِي ٱلْمَعْمُورَةِ نَهْرًا أَبْعَدَ مَسَافَةً مِنْهُ لِأَنَّ مَبَادِئَهُ عُيُونٌ تَأْتِي مِنْ جَبَلِ ٱلْقَمَرِ وَزَعَمُوا أَنَّ هٰذَا ٱلْجَبَلَ وَرَاءَ خَطِّ ٱلِاسْتِوَاءِ بِإِحْدَى عَشْرَةَ دَرَجَةً. وَعَرْضُ أُسْوَانَ وَهِيَ مَبْدَأُ أَرْضِ مِصْرَ ٱثْنَتَانِ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً وَنِصْفُ دَرَجَةٍ وَعَرْضُ دِمْيَاطَ وَهِيَ أَقْصَى أَرْضِ مِصْرَ إِحْدَى وَثَلٰثُونَ دَرَجَةً وَثُلْثُ دَرَجَةٍ. فَتَكُونُ مَسَافَةُ ٱلنِّيلِ عَلَى خَطٍّ مُسْتَقِيمٍ ثَلٰثًا وَأَرْبَعِينَ دَرَجَةً تَنْقُصُ سُدُسًا وَمِسَاحَةُ ذٰلِكَ تَقْرِيبًا تِسْعُ مِائَةِ فَرْسَخٍ هٰذَا سِوَى مَا يَأْخُذُ مِنَ ٱلتَّعْرِيجِ وَٱلتَّوْرِيبِ فَإِنِ ٱعْتُبِرَ ذٰلِكَ تَضَاعَفَتِ ٱلْمِسَاحَةُ جِدًّا

وَٱلْخَاصَّةُ ٱلثَّانِيَةُ أَنَّهُ يَزِيدُ عِنْدَ نُضُوبِ سَائِرِ ٱلْأَنْهَارِ وَنَشِيشِ ٱلْمِيَاهِ لِأَنَّهُ يَبْتَدِئُ بِٱلزِّيَادَةِ عِنْدَ ٱنْتِهَاءِ طُولِ ٱلنَّهَارِ وَتَتَنَاهَى زِيَادَتُهُ عِنْدَ ٱلِاعْتِدَالِ ٱلْخَرِيفِيِّ وَحِينَئِذٍ تُفَتَّحُ ٱلتُّرَعُ وَيَفِيضُ عَلَى ٱلْأَرَاضِي وَعِلَّةُ ذٰلِكَ أَنَّ مَوَادَّ زِيَادَتِهِ أَمْطَارٌ غَزِيرَةٌ دَائِمَةٌ وَسُيُولٌ مُتَوَاصِلَةٌ تَمُدُّهُ فِي هٰذَا ٱلْأَوَانِ. فَإِنَّ أَمْطَارَ ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ وَٱلثَّانِي إِنَّمَا تَغْزُرُ فِي ٱلصَّيْفِ وَٱلْقَيْظِ

وَأَمَّا أَرْضُ مِصْرَ فَلَهَا أَيْضًا خَوَاصُّ مِنْهَا أَنَّهُ لَا يَقَعُ بِهَا مَطَرٌ إِلَّا مَا لَا ٱحْتِفَالَ بِهِ وَخُصُوصًا صَعِيدُهَا. فَأَمَّا أَسَافِلُهَا فَقَدْ يَقَعُ بِهَا مَطَرٌ جَوْدٌ لٰكِنَّهُ لَا يَفِي بِحَاجَةِ ٱلزِّرَاعَةِ. وَأَمَّا دِمْيَاطُ وَٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةُ وَمَا دَانَاهُمَا فَهِيَ غَزِيرَةُ ٱلْمَطَرِ وَمِنْهُ يَشْرَبُونَ وَلَيْسَ بِأَرْضِ مِصْرَ عَيْنٌ وَلَا نَهْرٌ سِوَى نِيلِهَا

وَمِنْهَا أَنَّ أَرْضَهَا رَمْلِيَّةٌ لَا تَصْلُحُ لِلزِّرَاعَةِ لٰكِنَّهُ يَأْتِيهَا طِينٌ أَسْوَدُ عَلِكٌ فِيهِ دُسُومَةٌ كَثِيرَةٌ يُسَمَّى ٱلْإِبْلِيزَ يَأْتِيهَا مِنْ بِلَادِ ٱلسُّودَانِ مُخْتَلِطًا بِمَاءِ ٱلنِّيلِ عِنْدَ مَدِّهِ فَيَسْتَقِرُّ ٱلطِّينُ وَيَنْضُبُ ٱلْمَاءُ فَيُحْرَثُ وَيُزْرَعُ وَكُلَّ سَنَةٍ يَأْتِيهَا طِينٌ جَدِيدٌ وَلِهٰذَا يُزْرَعُ جَمِيعُ أَرَاضِيهَا وَلَا يُرَاحُ شَيْءٌ مِنْهَا كَمَا يُفْعَلُ فِي ٱلْعِرَاقِ وَٱلشَّامِ لٰكِنَّهَا تُخَالِفُ عَلَيْهَا ٱلْأَصْنَافُ. وَقَدْ لَحَظَتِ ٱلْعَرَبُ ذٰلِكَ فَإِنَّهَا تَقُولُ إِذَا كَثُرَتِ ٱلرِّيَاحُ جَادَتِ ٱلْحِرَاثَةُ لِأَنَّهَا تَجِيءُ بِتُرَابٍ غَرِيبٍ وَتَقُولُ أَيْضًا إِذَا كَثُرَتِ ٱلْمُؤْتَفِكَاتُ زَكَا ٱلزَّرْعُ. وَلِهٰذِهِ ٱلْعِلَّةِ تَكُونُ أَرْضُ ٱلصَّعِيدِ زَكِيَّةً كَثِيرَةَ ٱلْإِتَاءِ وَٱلرَّيْعِ إِذْ كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى ٱلْمَبْدَإِ فَيَحْصُلُ فِيهَا مِنْ هٰذَا ٱلطِّينِ مِقْدَارٌ كَثِيرٌ بِخِلَافِ أَسْفَلِ ٱلْأَرْضِ فَإِنَّهَا أُسَافَةٌ مَضْوِيَّةٌ إِذْ كَانَتْ رَقِيقَةً ضَعِيفَةَ ٱلطِّينِ لِأَنَّهُ يَأْتِيهَا ٱلْمَاءُ وَقَدْ رَاقَ وَصَفَا وَلَا أَعْرِفُ شَبِيهًا بِذٰلِكَ إِلَّا مَا حُكِيَ لِي عَنْ بَعْضِ جِبَالِ

ٱلْإِقْلِيمِ ٱلْأَوَّلِ أَنَّ ٱلرِّيَاحَ تَأْتِيهِ وَقْتَ ٱلزِّرَاعَةِ بِتُرَابٍ كَثِيرٍ. ثُمَّ يَقَعُ عَلَيْهِ ٱلْمَطَرُ فَيَتَلَبَّدُ فَيُحْرَثُ وَيُزْرَعُ فَإِذَا حُصِدَ جَاءَتْهُ رِيَاحٌ أُخْرَى فَنَسَفَتْهُ حَتَّى يَعُودَ أَجْرَدَ كَمَا كَانَ أَوَّلًا

وَمِنْهَا أَنَّ ٱلْفُصُولَ بِهَا مُتَغَيِّرَةٌ عَنْ طَبِيعَتِهَا ٱلَّتِي لَهَا. فَإِنَّ أَخَصَّ ٱلْأَوْقَاتِ بِٱلْيُبْسِ فِي سَائِرِ ٱلْبِلَادِ أَعْنِي ٱلصَّيْفَ وَٱلْخَرِيفَ تَكْثُرُ فِيهِ ٱلرُّطُوبَةُ بِمِصْرَ بِمَدِّ نِيلِهَا وَفَيْضِهِ لِأَنَّهُ يَمُدُّ فِي ٱلصَّيْفِ وَيُطْبِقُ ٱلْأَرْضَ فِي ٱلْخَرِيفِ. فَأَمَّا سَائِرُ ٱلْبِلَادِ فَإِنَّ مِيَاهَهَا تَنِشُّ فِي هٰذَا ٱلْأَوَانِ وَتَغْزُرُ فِي أَخَصِّ ٱلْأَوْقَاتِ بِٱلرُّطُوبَةِ أَعْنِي ٱلشِّتَاءَ وَٱلرَّبِيعَ وَمِصْرُ إِذْ ذَاكَ تَكُونُ فِي غَايَةِ ٱلْقُحُولَةِ وَٱلْيُبْسِ وَلِهٰذِهِ ٱلْعِلَّةِ تَكْثُرُ عُفُونَاتُهَا وَٱخْتِلَافُ هَوَائِهَا وَتَغْلِبُ عَلَى أَهْلِهَا ٱلْأَمْرَاضُ ٱلْعَفِنِيَّةُ ٱلْحَادِثَةُ عَنْ أَخْلَاطٍ صَفْرَاوِيَّةٍ وَبَلْغَمِيَّةٍ وَقَلَّمَا تَجِدُ فِيهِمْ أَمْرَاضًا صَفْرَاوِيَّةً خَالِصَةً بَلِ ٱلْغَالِبُ عَلَيْهَا ٱلْبَلْغَمُ حَتَّى فِي ٱلشَّبَابِ وَٱلْمَحْرُورِينَ وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ مَعَ ٱلصَّفْرَاءِ خَامٌ وَأَكْثَرُ أَمْرَاضِهِمْ فِي آخِرِ ٱلْخَرِيفِ وَأَوَّلِ ٱلشِّتَاءِ لٰكِنَّهَا يَغْلِبُ عَلَيْهَا حَمِيدُ ٱلْعَاقِبَةِ وَتَقِلُّ فِيهِمِ ٱلْأَمْرَاضُ ٱلْحَادَّةُ وَٱلدَّمَوِيَّةُ ٱلْوَحِيَّةُ. وَأَمَّا أَصِحَّاؤُهُمْ فَيَغْلِبُ عَلَيْهِمِ ٱلتَّرَهُّلُ وَٱلْكَسَلُ وَشُحُوبُ ٱللَّوْنِ وَكُمُودَتُهُ وَقَلَّمَا تَرَى فِيهِمْ مُشْبُوبَ ٱللَّوْنِ ظَاهِرَ ٱلدَّمِ. وَأَمَّا صِبْيَانُهُمْ فَضَاوِيُّونَ يَغْلِبُ عَلَيْهِمِ ٱلدَّمَامَةُ وَقِلَّةُ ٱلنَّضَارَةِ وَإِنَّمَا تَحْدُثُ لَهُمُ ٱلْبَدَانَةُ وَٱلْقَسَامَةُ غَالِبًا بَعْدَ ٱلْعِشْرِينَ. وَأَمَّا ذَكَاؤُهُمْ وَتَوَقُّدُ أَذْهَانِهِمْ وَخِفَّةُ حَرَكَاتِهِمْ فَلِحَرَارَةِ بَلَدِهِمِ ٱلذَّاتِيَّةِ لِأَنَّ رُطُوبَتَهُ عَرَضِيَّةٌ. وَلِهٰذَا كَانَ أَهْلُ ٱلصَّعِيدِ أَنْحَلَ جُسُومًا وَأَجَفَّ أَمْزِجَةً وَٱلْغَالِبُ عَلَيْهِمِ ٱلسُّمْرَةُ. وَكَانَ سَاكِنُوا ٱلْفُسْطَاطِ إِلَى دِمْيَاطَ أَرْطَبَ أَبْدَانًا

وَٱلْغَالِبُ عَلَيْهِمِ ٱلْبَيَاضُ

وَلَمَّا رَأَى قُدَمَاءُ ٱلْمِصْرِيِّينَ أَنَّ عِمَارَةَ أَرْضِهِمْ إِنَّمَا هِيَ بِنِيلِهَا جَعَلُوا أَوَّلَ سَنَتِهِمْ أَوَّلَ ٱلْخَرِيفِ وَذٰلِكَ عِنْدَ بُلُوغِ ٱلنِّيلِ ٱلْغَايَةَ ٱلْقُصْوَى مِنَ ٱلزِّيَادَةِ

وَمِنْهَا أَنَّ ٱلصَّبَا مَحْجُوبَةٌ عَنْهُمْ بِجَبَلِهَا ٱلشَّرْقِيِّ ٱلْمُسَمَّى ٱلْمُقَطَّمَ فَإِنَّهُ يَسْتُرُ عَنْهَا هٰذِهِ ٱلرِّيحَ ٱلْفَاضِلَةَ وَقَلَّمَا تَهُبُّ عَلَيْهِمْ خَالِصَةً أَللّٰهُمَّ إِلَّا نَكْبَاءَ . وَلِهٰذَا ٱخْتَارَ قُدَمَاءُ ٱلْمِصْرِيِّينَ أَنْ يَجْعَلُوا مُسْتَقَرَّ ٱلْمُلْكِ مَنْفَ وَنَحْوَهَا مِمَّا يَبْعُدُ عَنْ هٰذَا ٱلْجَبَلِ ٱلشَّرْقِيِّ إِلَى ٱلْغَرْبِيِّ وَٱخْتَارَ ٱلرُّومُ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةَ وَتَجَنَّبُوا مَوْضِعَ ٱلْفُسْطَاطِ لِقُرْبِهِ مِنَ ٱلْمُقَطَّمِ فَإِنَّ ٱلْجَبَلَ يَسْتُرُ عَمَّا فِي لِحْفِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتُرُ عَمَّا بَعُدَ مِنْهُ . ثُمَّ إِنَّ ٱلشَّمْسَ يَتَأَخَّرُ طُلُوعُهَا عَلَيْهِمْ فَيَقِلُّ فِي هَوَائِهِمِ ٱلنُّضْجُ وَيَبْقَى زَمَانًا عَلَى نُهُوَّةِ ٱللَّيْلِ وَلِذٰلِكَ تَجِدُ ٱلْمَوَاضِعَ ٱلْمُنْكَشِفَةَ لِلصَّبَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ أَحْسَنَ حَالًا مِنْ غَيْرِهَا وَلِكَثْرَةِ رُطُوبَتِهِ يَتَسَارَعُ ٱلْعَفَنُ إِلَيْهَا وَيَكْثُرُ فِيهَا ٱلْفَارُ وَيَتَوَلَّدُ مِنَ ٱلطِّينِ وَٱلْعَقَارِبُ تَكْثُرُ بِقُوصَ وَكَثِيرًا مَا تَقْتُلُ بِلَسْبِهَا وَٱلْبَقُّ ٱلْمُنْتِنُ وَٱلذُّبَابُ وَٱلْبَرَاغِيثُ تَدُومُ زَمَانًا طَوِيلًا

وَمِنْهَا أَنَّ ٱلْجَنُوبَ إِذَا هَبَّتْ عِنْدَهُمْ فِي ٱلشِّتَاءِ وَٱلرَّبِيعِ وَفِيمَا بَعْدَ ذٰلِكَ كَانَتْ بَارِدَةً جِدًّا وَيُسَمُّونَهَا ٱلْمَرِيسِيَّ لِمُرُورِهَا عَلَى أَرْضِ ٱلْمَرِيسِ وَهِيَ مِنْ بِلَادِ ٱلسُّودَانِ. وَسَبَبُ بَرْدِهَا مُرُورُهَا عَلَى بِرَكٍ وَنَقَائِعَ. وَٱلدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ ذٰلِكَ إِنَّهَا إِذَا دَامَتْ أَيَّامًا مُتَوَالِيَةً عَادَتْ إِلَى حَرَارَتِهَا ٱلطَّبِيعِيَّةِ وَأَسْخَنَتِ ٱلْهَوَاءَ وَأَحْدَثَتْ فِيهِ يُبْسًا

ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي

فِيمَا تَخْتَصُّ بِهِ مِنَ ٱلنَّبَاتِ

مِنْ ذٰلِكَ ٱلْجُمَّيْزُ وَهُوَ بِمِصْرَ كَثِيرٌ جِدًّا وَرَأَيْتُ مِنْهُ شَيْئًا بِعَسْقَلَانَ وَٱلسَّاحِلِ وَكَأَنَّهُ تِينٌ بَرِّيٌّ وَتَخْرُجُ ثَمَرَتُهُ فِي ٱلْخَشَبِ لَا تَحْتَ ٱلْوَرَقِ وَيُخْلِفُ فِي ٱلسَّنَةِ سَبْعَةَ بُطُونٍ وَيُؤْكَلُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَيَحْمِلُ وِقْرًا عَظِيمًا وَقَبْلَ أَنْ يُجْنَى بِأَيَّامٍ يَصْعَدُ رَجُلٌ إِلَى ٱلشَّجَرَةِ وَمَعَهُ حَدِيدَةٌ يَسِمُ بِهَا حَبَّةً حَبَّةً مِنَ ٱلثَّمَرَةِ فَيَجْرِي مِنْهَا لَبَنٌ أَبْيَضُ . ثُمَّ يَسْوَدُّ ٱلْمَوْضِعُ وَتَحْلُو ٱلثَّمَرَةُ بِذٰلِكَ ٱلْفِعْلِ . وَقَدْ يُوجَدُ مِنْهُ شَيْءٌ شَدِيدُ ٱلْحَلَاوَةِ أَحْلَى مِنَ ٱلتِّينِ لٰكِنَّهُ لَا يَنْفَكُّ فِي أَوَاخِرِ مَضْغِهِ مِنْ طَعْمٍ خَشَبِيَّةٍ مَا . وَشَجَرَتُهُ كَبِيرَةٌ كَشَجَرَةِ ٱلْجَوْزِ ٱلْعَاتِيَةِ وَيَخْرُجُ مِنْ ثَمَرِهِ وَغُصْنِهِ إِذَا فُصِدَتْ لَبَنٌ أَبْيَضُ إِذَا طُلِيَ عَلَى ثَوْبٍ أَوْ غَيْرِهِ صَبَغَهُ وَأَحْمَرَ . وَخَشَبُهُ تُعْمَرُ بِهِ ٱلْمَسَاكِنُ وَتُتَّخَذُ مِنْهُ ٱلْأَبْوَابُ وَغَيْرُهَا مِنَ ٱلْآلَاتِ ٱلْجَافِيَةِ وَلَهُ بَقَاءٌ عَلَى ٱلدَّهْرِ وَصَبْرٌ عَلَى ٱلْمَاءِ وَٱلشَّمْسِ وَقَلَّمَا يَتَأَكَّلُ هٰذَا مَعَ أَنَّـهُ خَشَبٌ خَفِيفٌ قَلِيلُ ٱللُّدُونَةِ . وَيُتَّخَذُ مِنْ ثَمَرَتِهِ خَلٌّ حَاذِقٌ وَنَبِيذٌ حَادٌّ . قَالَ جَالِينُوسُ ٱلْجُمَّيْزُ بَارِدٌ رَطْبٌ فِيمَا بَيْنَ ٱلتُّوتِ وَٱلتِّينِ وَهُوَ رَدِيءٌ لِلْمَعِدَةِ وَلَبَنُ شَجَرَتِهِ لَهُ قُوَّةٌ مُلَيِّنَةٌ تُلْصِقُ ٱلْجِرَاحَ وَتَفُشُّ ٱلْأَوْرَامَ وَيُلْطَخُ عَلَى لَسْعِ ٱلْهَوَامِّ وَيُحَلِّلُ جُسَاْءَةَ ٱلطِّحَالِ وَأَوْجَاعَ ٱلْمِعْدَةِ ضِمَادًا وَيُتَّخَذُ مِنْهُ شَرَابٌ لِلسُّعَالِ ٱلْمُتَقَادِمِ وَنَوَازِلِ ٱلصَّدْرِ وَٱلرِّئَةِ وَعَمَلُهُ بِأَنْ يُطْبَخَ فِي ٱلْمَاءِ حَتَّى تَخْرُجَ فِيهِ قُوَّتُهُ وَيُطْبَخُ ذٰلِكَ ٱلْمَاءُ مَعَ ٱلسُّكَّرِ حَتَّى يَنْعَقِدَ وَيُرْفَعُ . وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمِنْ أَجْنَاسِ ٱلتِّينِ تِينُ ٱلْجُمَّيْزِ وَهُوَ تِينٌ حُلْوٌ رَطْبٌ لَـهُ

مَعَالِيقُ طِوَالٌ وَيُزَبِّبُ وَضَرْبٌ آخَرُ مِنَ ٱلْجُمَّيْزِ حَمْلُهُ كَٱلتِّينِ فِي ٱلْخِلْقَةِ وَوَرَقُهُ أَصْغَرُ مِنْ وَرَقِ ٱلتِّينِ. وَتِينُهُ أَصْفَرُ صِغَارٌ وَأَسْوَدُ وَيَكُونُ بِٱلْغَوْرِ وَيُسَمَّى ٱلتِّينَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأَصْفَرُ مِنْهُ حُلْوٌ وَٱلْأَسْوَدُ يُدَمِّي ٱلْفَمَ وَلَيْسَ لِتِينِهِ عِلَاقَةٌ بَلْ لَاصِقٌ بِٱلْعُودِ

وَمِنْ ذٰلِكَ ٱلْبَلَسَانُ فَإِنَّهُ لَا يُوجَدُ ٱلْيَوْمَ إِلَّا بِمِصْرَ بِعَيْنِ شَمْسٍ فِي مَوْضِعٍ مُحَاطٍ عَلَيْهِ مُحْتَفَظٍ بِهِ مَسَاحَتُهُ نَحْوُ سَبْعَةِ أَفْدِنَةٍ. وَٱرْتِفَاعُ شَجَرَتِهِ نَحْوُ ذِرَاعٍ وَأَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ وَعَلَيْهَا قِشْرَانِ ٱلْأَعْلَى أَحْمَرُ خَفِيفٌ وَٱلْأَسْفَلُ أَخْضَرُ ثَخِينٌ. وَإِذَا مُضِغَ ظَهَرَ فِي ٱلْفَمِ مِنْهُ دُهْنِيَّةٌ وَرَائِحَةٌ عَطِرَةٌ. وَوَرَقُهُ شَبِيهٌ بِوَرَقِ ٱلسَّذَابِ وَيُجْتَنَى دُهْنُهُ عِنْدَ طُلُوعِ ٱلشِّعْرَى بِأَنْ تُشْدَخَ ٱلسُّوقُ بَعْدَمَا يُحَتُّ عَنْهَا جَمِيعُ وَرَقِهَا وَشَدْخُهَا يَكُونُ بِحَجَرَةٍ تُتَّخَذُ مُحَدَّدَةً وَيَفْتَقِرُ شَدْخُهَا إِلَى صِنَاعَةٍ بِحَيْثُ يُقْطَعُ ٱلْقِشْرُ ٱلْأَعْلَى وَيُشَقُّ ٱلْأَسْفَلُ شَقًّا لَا يَنْفُذُهُ إِلَى ٱلْخَشَبِ فَإِنْ نَفَذَ إِلَى ٱلْخَشَبِ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ شَيْءٌ فَإِذَا شَدَخَهُ كَمَا وَصَفْنَا أَمْهَلَهُ رَيْثَمَا يَسِيلُ لَثَاهُ عَلَى ٱلْعُودِ فَيَجْمَعُهُ بِأُصْبُعِهِ مَسْحًا إِلَى قَرْنٍ فَإِذَا ٱمْتَلَأَ صَبَّهُ فِي قَنَانِي زُجَاجٍ وَلَا يَزَالُ كَذٰلِكَ حَتَّى يَنْتَهِيَ جَنَاهُ وَيَنْقَطِعَ لَثَاهُ وَكُلَّمَا كَثُرَ ٱلنَّدَى فِي ٱلْجَوِّ كَانَ لَثَاهُ أَكْثَرَ وَأَغْزَرَ وَفِي ٱلْجَدْبِ وَقِلَّةِ ٱلنَّدَا يَكُونُ ٱللَّثَا أَنْزَرَ وَمِقْدَارُ مَا خَرَجَ مِنْهُ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ وَهِيَ عَامُ جَدْبٍ نَيِّفٌ وَعِشْرُونَ رِطْلًا. ثُمَّ تُؤْخَذُ ٱلْقَنَانِي فَتُدْفَنُ إِلَى ٱلْقَيْظِ وَحَمَارَةِ ٱلْحَرِّ وَتُخْرَجُ مِنَ ٱلدَّفْنِ وَتُجْعَلُ فِي ٱلشَّمْسِ. ثُمَّ تُتَفَقَّدُ كُلَّ يَوْمٍ فَيُوجَدُ ٱلدُّهْنُ وَقَدْ طَفَا فَوْقَ رُطُوبَةٍ مَائِيَّةٍ وَأَثْقَالٍ أَرْضِيَّةٍ فَيُقْطَفُ ٱلدُّهْنُ ثُمَّ تُعَادُ إِلَى ٱلشَّمْسِ وَلَا يَزَالُ كَذٰلِكَ يُشَمِّسُهَا وَيَقْطِفُ دُهْنَهَا

حَتَّى لَا يَبْقَى فِيهَا دُهْنٌ فَيُؤْخَذُ ذَٰلِكَ ٱلدُّهْنُ وَيَطْبُخُهُ فِيهِ فِي ٱلْخُفْيَةِ لَا يُطْلِعُ عَلَى طَبْخِهِ أَحَدًا. ثُمَّ يَرْفَعُهُ إِلَى خِزَانَةِ ٱلْمَلِكِ وَمِقْدَارُ ٱلدُّهْنِ ٱلْخَالِصِ مِنَ ٱللِّثَا بِٱلتَّرْوِيقِ نَحْوُ عِشْرِ ٱلْجُمْلَةِ وَقَالَ لِي بَعْضُ أَرْبَابِ ٱلْخِبْرَةِ إِنَّ ٱلَّذِي يَحْصُلُ مِنْ دُهْنِهِ نَحْوُ مِنْ عِشْرِينَ رِطْلًا

وَرَأَيْتُ جَالِينُوسَ يَقُولُ إِنَّ أَجْوَدَ دُهْنِ ٱلْبَلَسَانِ مَا كَانَ بِأَرْضِ فَلَسْطِينَ وَأَضْعَفَهُ مَا كَانَ بِمِصْرَ وَنَحْنُ فَلَا نَجِدُ ٱلْيَوْمَ مِنْهُ بِفَلَسْطِينَ شَيْئًا أَلْبَتَّةَ. وَقَالَ نِيقُولَاوُسُ فِي كِتَابِ ٱلنَّبَاتِ. وَمِنَ ٱلنَّبَاتِ مَا لَهُ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ فِي بَعْضِ أَجْزَائِهِ وَمِنْهُ مَا رَائِحَتُهُ ٱلطَّيِّبَةُ فِي جَمِيعِ أَجْزَائِهِ كَٱلْبَلَسَانِ ٱلَّذِي يَكُونُ فِي ٱلشَّامِ بِقُرْبِ بَحْرِ ٱلزِّفْتِ وَٱلْبِئْرُ ٱلَّتِي يُسْقَى مِنْهَا تُسَمَّى بِئْرَ ٱلْبَلَسَمِ وَمَاؤُهَا عَذْبٌ. وَقَالَ ٱبْنُ سَمْجُونَ: إِنَّمَا يُوجَدُ فِي زَمَانِنَا هَـٰذَا بِمِصْرَ فَقَطْ وَيُسْتَخْرَجُ دُهْنُهُ عِنْدَ طُلُوعِ كَلْبِ ٱلْجَبَّارِ وَهُوَ ٱلشِّعْرَىٰ وَذَٰلِكَ فِي ٱلشُّبَاطِ. وَمِقْدَارُ مَا يُخْرَجُ مَا بَيْنَ خَمْسِينَ رَطْلًا إِلَى سِتِّينَ وَيُبَاعُ فِي مَكَانِهِ بِضِعْفِهِ فِضَّةً. وَكَأَنَّ هٰذِهِ ٱلْحَالَ قَدْ كَانَتْ فِي زَمَنِ ٱبْنِ سَمْجُونَ وَحُكِيَ عَنِ ٱلرَّازِيِّ أَنَّ بَدَلَهُ دُهْنُ ٱلْفُجْلِ وَهٰذَا بَعِيدٌ. وَٱلْبَلَسَانُ ٱلدُّهْنِيُّ لَا يُثْمِرُ وَإِنَّمَا تُؤْخَذُ مِنْهُ فُسُوخٌ فَتُغْرَسُ فِي شُبَاطَ فَتَعْلَقُ وَتَنْبِي. وَإِنَّمَا ٱلثَّمَرُ لِلذَّكَرِ ٱلْبَرِّيِّ وَلَا دُهْنَ لَهُ وَيَكُونُ بِنَجْدٍ وَتِهَامَةَ وَبَرَارِي ٱلْعَرَبِ وَسَوَاحِلِ ٱلْيَمَنِ وَبِأَرْضِ فَارِسَ وَيُسَمَّى ٱلْبَشَامَ وَيُرَبَّى قِشْرُهُ قَبْلَ ٱسْتِخْرَاجِ دُهْنِهِ فَيَكُونُ نَافِعًا مِنْ جَمِيعِ ٱلسُّمُومِ. وَأَمَّا خَوَاصُّهُ وَمَنَافِعُهُ فَٱلْأَلْيَقُ بِهَا غَيْرُ هٰذَا ٱلْكِتَابِ

ٱلْفَصْلُ ٱلثَّالِثُ

فِيمَا تَخْتَصُّ بِهِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ

مِنْ ذٰلِكَ ٱلْحَمِيرُ وَٱلْحَمِيرُ بِمِصْرَ فَارِهَةٌ جِدًّا وَتُرْكَبُ بِٱلسُّرُوجِ وَتَجْرِي مَعَ ٱلْخَيْلِ وَٱلْبِغَالِ ٱلنَّفِيسَةِ وَلَعَلَّهَا تَسْبِقُهَا وَهِيَ مَعَ ذٰلِكَ كَثِيرَةُ ٱلْعَدَدِ وَمِنْهَا مَا هُوَ عَالٍ بِحَيْثُ إِذَا رُكِبَ بِسَرْجٍ ٱخْتَلَطَ مَعَ ٱلْبَغَلَاتِ. يَرْكَبُهُ رُؤَسَاءُ ٱلْيَهُودِ وَٱلنَّصَارَى. يَبْلُغُ ثَمَنُ ٱلْوَاحِدِ مِنْهَا عِشْرِينَ دِينَارًا إِلَى أَرْبَعِينَ

وَأَمَّا بَقَرُهُمْ فَعَظِيمَةُ ٱلْخَلْقِ حَسَنَةُ ٱلصُّوَرِ. وَمِنْهَا صِنْفٌ هُوَ أَحْسَنُهَا وَأَغْلَاهَا قِيمَةً يُسَمَّى ٱلْبَقَرَ ٱلْخَيْسِيَّةَ وَهِيَ ذَوَاتُ قُرُونٍ كَأَنَّهَا ٱلْقِسِيُّ غَزِيرَاتُ ٱللَّبَنِ

وَأَمَّا خَيْلُهَا فَعِتَاقٌ سَابِقَةٌ. وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ ثَمَنُهُ أَلْفَ دِينَارٍ إِلَى أَرْبَعَةِ آلَافٍ

وَمِنْ ذٰلِكَ ٱلتِّمْسَاحُ وَٱلتِّمْسَاحُ كَثِيرَةٌ فِي ٱلنِّيلِ وَخَاصَّةً فِي ٱلصَّعِيدِ ٱلْأَعْلَى وَفِي ٱلْجَنَادِلِ فَإِنَّهَا تَكُونُ عَلَى ٱلْمَاءِ وَبَيْنَ صُخُورِ ٱلْجَنَادِلِ كَٱلدُّودِ كَثْرَةً وَتَكُونُ كِبَارًا وَصِغَارًا وَيَنْتَهِي فِي ٱلْكِبَرِ إِلَى نَيِّفٍ وَعِشْرِينَ ذِرَاعًا طُولًا. وَتُوجَدُ فِي سَطْحِ جَسَدِهِ مِمَّا يَلِي بَطْنَهُ سِلْعَةٌ كَٱلْبَيْضَةِ تَحْتَوِي عَلَى رُطُوبَةٍ دَمَوِيَّةٍ وَهِيَ كَنَافِجَةِ ٱلْمِسْكِ فِي ٱلصُّورَةِ وَٱلطِّيبِ وَخَبَّرَنِي ٱلثِّقَةُ أَنَّهُ يَنْدُرُ فِيهَا مَا يَكُونُ فِي عُلُوِّ ٱلْمِسْكِ لَا يَنْقُصُ عَنْهُ شَيْئًا. وَٱلتِّمْسَاحُ يَبِيضُ بَيْضًا شَبِيهًا بِبَيْضِ ٱلدَّجَاجِ وَرَأَيْتُ فِي كِتَابٍ مَنْسُوبٍ إِلَى أَرِسْطُو مَا هٰذِهِ صُورَتُهُ. قَالَ ٱلتِّمْسَاحُ وَلَا يَعْمَلُ فِي جِلْدِهِ ٱلْحَدِيدُ. وَمِنْ فَقَارِ رَقَبَتِهِ إِلَى ذَنَبِهِ عَظْمٌ وَاحِدٌ وَلِهٰذَا إِذَا ٱنْقَلَبَ عَلَى ظَهْرِهِ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ

يرجع . قال ويبيض بيضا طويلا كالإوز ويدفنه في الرمل فإذا أخرج كان كالحراذين في جسمها وخلقتها . ثم يعظم حتى يكون عشر أذرع وأزيد ويبيض ستين بيضة لأن خلقته تجري على ستين سنا وستين عرقا

ومن ذلك فرس البحر وهذه توجد بأسفل الأرض وخاصة بحر دمياط وهو حيوان عظيم الصورة هائل المنظر شديد البأس يتتبع المراكب فيغرقها ويهلك من ظفر به منها وهو بالجاموس أشبه منه بالفرس لكنه ليس له قرن وفي صوته صحلة يشبه صهيل الفرس بل البغل وهو عظيم الهامة هريت الأشداق حديد الأنياب عريض الكلكل منتفخ الجوف قصير الأرجل شديد الوثب قوي الدفع مهيب الصورة مخوف الغائلة وخبرني من اصطادها مرات وشقها وكشف عن أعضائها الباطنة والظاهرة أنها خنزير كبير وأن أعضاءها الباطنة والظاهرة لا تغادر من صورة الخنزير شيئا إلا في عظم الخلقة . ورأيت في كتاب نيطواليس في الحيوان ما يعضد ذلك وهذه صورته . قال خنزيرة الماء تكون في بحر مصر وهي تكون في عظم الفيل ورأسها يشبه رأس البغل ولها شبه الجمل . قال وشحم متنها إذا أذيب ولت بسويق وشربته امرأة أسمنها حتى تجوز المقدار

وكانت واحدة ببحر دمياط قد ضريت على المراكب تغرقها وصار المسافر في تلك الجهة مغررا وضريت أخرى بجهة أخرى على الجواميس والبقر وبني آدم تقتلهم وتفسد الحرث والنسل . وأعمل الناس في قتلهما كل حيلة من نصب الحبائل الوثيقة وحشد الرجال بأصناف

ٱلسِّلَاحِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا فَٱسْتَدْعِيَ بِنَفَرٍ مِنَ ٱلْمَرِيسِ صِنْفٍ مِنَ ٱلسُّودَانِ زَعَمُوا أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صَيْدَهَا وَأَنَّهَا كَثِيرَةٌ عِنْدَهُمْ وَمَعَهُمْ مَزَارِيقُ . فَتَوَجَّهُوا نَحْوَهَا فَقَتَلُوهَا فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ وَبِأَهْوَنِ سَعْيٍ وَأَتَوْا بِهَا إِلَى ٱلْقَاهِرَةِ فَشَاهَدْتُهَا فَوَجَدتُ جِلْدَ إِحْدَاهُمَا أَسْوَدَ أَجْرَدَ ثَخِينًا جِدًّا وَطُولُهَا مِنْ رَأْسِهَا إِلَى ذَنَبِهَا عَشْرَ خُطُوَاتٍ مُعْتَدِلَاتٍ وَهِيَ فِي غِلَظِ ٱلْجَامُوسِ نَحْوَ ثَلٰثِ مَرَّاتٍ وَكَذٰلِكَ رَقَبَتُهَا وَرَأْسُهَا . وَفِي مُقَدَّمِ فِيهَا ٱثْنَا عَشَرَ نَابًا سِتَّةٌ مِنْ فَوْقُ وَسِتَّةٌ مِنْ أَسْفَلُ ٱلْمُتَطَرِّفَةُ مِنْهَا نِصْفُ ذِرَاعٍ زَائِدٌ وَٱلْمُتَوَسِّطَةُ أَنْقَصُ بِقَلِيلٍ . وَبَعْدَ ٱلْأَنْيَابِ أَرْبَعَةُ صُفُوفٍ مِنَ ٱلْأَسْنَانِ عَلَى خُطُوطٍ مُسْتَقِيمَةٍ فِي طُولِ ٱلْفَمِ فِي كُلِّ صَفٍّ عَشَرَةٌ كَأَمْثَالِ بَيْضِ ٱلدُّجَاجِ ٱلْمُصْطَفِّ صَفَّانِ فِي ٱلْأَعْلَى وَصَفَّانِ فِي ٱلْأَسْفَلِ عَلَى مُقَابَلَتِهَا . وَإِذَا فَغَرَ فُوهَا وَسِعَ شَاةً كَبِيرَةً وَذَنَبُهَا فِي طُولِ نِصْفِ ذِرَاعٍ زَائِدٍ غَلِيظٌ وَطَرَفُهُ كَٱلْأَصْبَعِ أَجْرَدُ كَأَنَّهُ عَظْمٌ شَبِيهٌ بِذَنَبِ ٱلْوَرَلِ وَأَرْجُلُهَا قِصَارٌ طُولُهَا نَحْوَ ذِرَاعٍ وَثُلْثٍ وَلَهَا شَبِيهٌ بِخُفِّ ٱلْبَعِيرِ إِلَّا أَنَّهُ مَشْقُوقُ ٱلْأَطْرَافِ بِأَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ وَأَرْجُلُهَا فِي غَايَةِ ٱلْغِلَظِ . وَجُمْلَةُ جُثَّتِهَا كَأَنَّهَا مَرْكَبٌ مَكْبُوبٌ لِعِظَمِ مَنْظَرِهَا . وَبِٱلْجُمْلَةِ هِيَ أَطْوَلُ وَأَغْلَظُ مِنَ ٱلْفِيلِ إِلَّا أَنَّ أَرْجُلَهَا أَقْصَرُ مِنْ أَرْجُلِ ٱلْفِيلِ بِكَثِيرٍ وَلٰكِنْ فِي غِلَظِهَا أَوْ أَغْلَظُ مِنْهَا

وَأَمَّا أَصْنَافُ ٱلسَّمَكِ عِنْدَهُمْ فَكَثِيرَةٌ لِأَنَّهُ يَجْتَمِعُ إِلَيْهِمْ سَمَكُ ٱلنِّيلِ وَسَمَكُ ٱلْبَحْرِ ٱلْمِلْحِ وَلَا يَفِي ٱلْقَوْلُ بِنَعْتِهَا لِكَثْرَةِ أَصْنَافِهَا وَٱخْتِلَافِ أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا

ٱلْفَصْلُ ٱلرَّابِعُ
فِي ٱقْتِصَاصِ مَا شُوهِدَ مِنْ آثَارِهَا ٱلْقَدِيمَةِ

أَمَّا مَا يُوجَدُ بِمِصْرَ مِنَ ٱلْآثَارِ ٱلْقَدِيمَةِ فَشَيْءٌ لَمْ أَرَ وَلَمْ أَسْمَعْ بِمِثْلِهِ فِي غَيْرِهَا فَأَقْتَصِرُ عَلَى أَعْجَبِ مَا شَاهَدْتُهُ

فَمِنْ ذٰلِكَ ٱلْأَهْرَامُ وَقَدْ أَكْثَرَ ٱلنَّاسُ مِنْ ذِكْرِهَا وَوَصْفِهَا وَمِسَاحَتِهَا وَهِيَ كَثِيرَةُ ٱلْعَدَدِ جِدًّا وَكُلُّهَا بِبَرِّ ٱلْجِيزَةِ وَعَلَى سَمْتِ مِصْرَ ٱلْقَدِيمَةِ وَتَمْتَدُّ فِي نَحْوِ مَسَافَةِ يَوْمَيْنِ وَفِي بُوصِيرَ مِنْهَا شَيْءٌ كَثِيرٌ وَبَعْضُهَا كِبَارٌ وَبَعْضُهَا صِغَارٌ وَبَعْضُهَا طِينٌ وَلَبِنٌ وَأَكْثَرُهَا حَجَرٌ وَبَعْضُهَا مُدَرَّجٌ وَأَكْثَرُهَا مَخْرُوطٌ أَمْلَسُ . وَقَدْ كَانَ مِنْهَا بِٱلْجِيزَةِ عَدَدٌ كَثِيرٌ لٰكِنَّهَا صِغَارٌ فَهُدِمَتْ فِي زَمَنِ صَلَاحِ ٱلدِّينِ يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ عَلَى يَدَيْ قَرَاقُوشَ بَعْضِ ٱلْأُمَرَاءِ . وَكَانَ خَصِيًّا رُومِيًّا سَامِيَ ٱلْهِمَّةِ وَكَانَ يَتَوَلَّى عَمَائِرَ مِصْرَ وَهُوَ ٱلَّذِي بَنَى ٱلسُّورَ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ مُحِيطًا بِٱلْفُسْطَاطِ وَٱلْقَاهِرَةِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَبِٱلْقَلْعَةِ ٱلَّتِي عَلَى ٱلْمُقَطَّمِ وَهُوَ أَيْضًا ٱلَّذِي بَنَى ٱلْقَلْعَةَ وَأَنْبَطَ فِيهَا ٱلْبِئْرَيْنِ ٱلْمَوْجُودَتَيْنِ ٱلْيَوْمَ وَهُمَا مِنَ ٱلْعَجَائِبِ وَيُنْزَلُ إِلَيْهِمَا بِدَرَجٍ نَحْوِ ثَلَثِمِائَةِ دَرَجَةٍ . وَأَخَذَ حِجَارَةَ هٰذِهِ ٱلْأَهْرَامِ ٱلصِّغَارِ وَبَنَى ٱلْقَنَاطِرَ ٱلْمَوْجُودَةَ ٱلْيَوْمَ بِٱلْجِيزَةِ . وَهٰذِهِ ٱلْقَنَاطِرُ مِنَ ٱلْأَبْنِيَةِ ٱلْعَجِيبَةِ أَيْضًا وَمِنْ أَعْمَالِ ٱلْجَبَّارِينَ وَتَكُونُ نَيِّفًا وَأَرْبَعِينَ قَنْطَرَةً . وَفِي هٰذِهِ ٱلسَّنَةِ وَهِيَ سَنَةُ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ تَوَلَّى أَمْرَهَا مَنْ لَا بَصِيرَةَ عِنْدَهُ فَسَدَّهَا رَجَاءَ أَنْ يَحْتَبِسَ ٱلْمَاءُ فَيُرْوِيَ ٱلْجِيزَةَ فَقَوِيَتْ عَلَيْهَا جِرْيَةُ ٱلْمَاءِ فَزَلْزَلَتْ مِنْهَا ثَلٰثَ قَنَاطِرَ وَٱنْشَقَّتْ . وَمَعَ

ذٰلِكَ فَلَمْ يَرْوِ مَا رَجَا أَنْ يَرْوِيَ. وَقَدْ بَقِيَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَهْرَامِ ٱلْمَهْدُومَةِ قَلْبُهَا وَحِشْوَتُهَا وَهِيَ رَدْمٌ وَحِجَارَةٌ صِغَارٌ لَا تَصْلُحُ لِلْقَنَاطِرِ فَلِأَجْلِ ذٰلِكَ تُرِكَتْ

وَأَمَّا ٱلْأَهْرَامُ ٱلْمُتَحَدَّثُ عَنْهَا ٱلْمُشَارُ إِلَيْهَا ٱلْمَوْصُوفَةُ بِٱلْعِظَمِ. فَثَلَاثَةُ أَهْرَامٍ مَوْضُوعَةٍ عَلَى خَطٍّ مُسْتَقِيمٍ بِٱلْجِيزَةِ قُبَالَةَ ٱلْفُسْطَاطِ وَبَيْنَهَا مَسَافَاتٌ يَسِيرَةٌ وَزَوَايَاهَا مُتَقَابِلَةٌ نَحْوَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱثْنَانِ مِنْهَا عَظِيمَانِ جِدًّا وَفِي قَدْرٍ وَاحِدٍ وَبِهِمَا أُولِعَ ٱلشُّعَرَاءُ وَشَبَّهُوهُمَا بِنَهْدَيْنِ قَدْ نَهَدَا فِي صَدْرِ ٱلدِّيَارِ ٱلْمِصْرِيَّةِ وَهُمَا مُتَقَارِبَانِ جِدًّا وَمَبْنِيَّانِ بِٱلْحِجَارَةِ ٱلْبِيضِ. وَأَمَّا ٱلثَّالِثُ فَيَنْقُصُ عَنْهُمَا بِنَحْوِ ٱلرُّبْعِ لٰكِنَّهُ مَبْنِيٌّ بِحِجَارَةِ ٱلصَّوَّانِ ٱلْأَحْمَرِ ٱلْمُنَقَّطِ ٱلشَّدِيدِ ٱلصَّلَابَةِ وَلَا يُؤَثِّرُ فِيهِ ٱلْحَدِيدُ إِلَّا فِي ٱلزَّمَنِ ٱلطَّوِيلِ وَتَجِدُهُ صَغِيرًا بِٱلْقِيَاسِ إِلَى ذَيْنِكَ فَإِذَا قَرُبْتَ مِنْهُ وَأَفْرَدْتَهُ بِٱلنَّظَرِ هَالَكَ مَرْآهُ وَحَسَرَ ٱلطَّرْفُ عِنْدَ تَأَمُّلِهِ

وَقَدْ سُلِكَ فِي بِنَايَةِ ٱلْأَهْرَامِ طَرِيقٌ مِنَ ٱلشَّكْلِ وَٱلْإِتْقَانِ وَلِذٰلِكَ صَبَرَتْ عَلَى مَمَرِّ ٱلزَّمَانِ بَلْ عَلَى مَمَرِّهَا صَبَرَ ٱلزَّمَانُ فَإِنَّكَ إِذَا تَبَحَّرْتَهَا وَجَدْتَ ٱلْأَذْهَانَ ٱلشَّرِيفَةَ قَدِ ٱسْتَهْلَكَتْ فِيهَا وَٱلْعُقُولَ ٱلصَّافِيَةَ قَدْ أَفْرَغَتْ عَلَيْهَا مَجْهُودَهَا وَٱلْأَنْفُسَ ٱلنَّيِّرَةَ قَدْ أَفَاضَتْ عَلَيْهَا أَشْرَفَ مَا عِنْدَهَا لَهَا وَٱلْمَلَكَاتِ ٱلْهَنْدَسِيَّةَ قَدْ أَخْرَجَتْهَا إِلَى ٱلْفِعْلِ مُثُلًا هِيَ غَايَةُ إِمْكَانِهَا حَتَّى أَنَّهَا تَكَادُ تُحَدِّثُ عَنْ قَوْمِهَا وَتُخْبِرُ بِحَالِهِمْ وَتَنْطِقُ عَنْ عُلُومِهِمْ وَأَذْهَانِهِمْ وَتُتَرْجِمُ عَنْ سِيَرِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ وَذٰلِكَ أَنَّ وَضْعَهَا عَلَى شَكْلٍ مَخْرُوطٍ يَبْتَدِئُ مِنْ قَاعِدَةٍ مُرَبَّعَةٍ وَيَنْتَهِي إِلَى نُقْطَةٍ. وَمِنْ خَوَاصِّ ٱلشَّكْلِ ٱلْمَخْرُوطِ أَنَّ مَرْكَزَ

ثِقْلِهِ فِي وَسَطِهِ وَهُوَ يَتَسَانَدُ عَلَى نَفْسِهِ وَيَتَوَاقَعُ عَلَى ذَاتِهِ وَيَتَحَامَلُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَلَيْسَ لَهُ جِهَةٌ أُخْرَى خَارِجَةٌ عَنْهُ يَتَسَاقَطُ عَلَيْهَا. وَمِنْ عَجِيبِ وَضْعِهِ أَنَّهُ شَكْلٌ مُرَبَّعٌ قَدْ قُوبِلَ بِزَوَايَاهُ مَهَبُّ ٱلرِّيَاحِ ٱلْأَرْبَعِ فَإِنَّ ٱلرِّيحَ تَنْكَسِرُ سَوْرَتُهَا عِنْدَ مُصَادَمَتِهَا ٱلزَّاوِيَةَ وَلَيْسَتْ كَذٰلِكَ عِنْدَ مَا تَلْقَى ٱلسَّطْحَ

وَلْنَرْجِعْ إِلَى ذِكْرِ ٱلْهَرَمَيْنِ ٱلْعَظِيمَيْنِ فَإِنَّ ٱلْمُسَّاحَ ذَكَرُوا أَنَّ قَاعِدَةَ كُلٍّ مِنْهُمَا أَرْبَعُ مِائَةِ ذِرَاعٍ طُولًا فِي مِثْلِهَا عَرْضًا وَٱرْتِفَاعَ عَمُودِهَا أَرْبَعُ مِائَةِ ذِرَاعٍ وَذٰلِكَ كُلُّهُ بِٱلذِّرَاعِ ٱلسَّوْدَاءِ. وَيَنْقَطِعُ ٱلْمَخْرُوطُ فِي أَعْلَاهُ عِنْدَ سَطْحٍ مِسَاحَتُهُ عَشْرُ أَذْرُعٍ فِي مِثْلِهَا. وَأَمَّا ٱلَّذِي شَاهَدْتُهُ مِنْ حَالِهِمَا فَإِنَّ رَامِيًا كَانَ مَعَنَا رَمَى سَهْمًا فِي قُطْرِ أَحَدِهِمَا وَفِي سَمْكِهِ فَسَقَطَ ٱلسَّهْمُ دُونَ نِصْفِ ٱلْمَسَافَةِ وَخُبِّرْنَا أَنَّ فِي ٱلْقَرْيَةِ ٱلْمُجَاوِرَةِ لَهُمَا قَوْمًا قَدِ ٱعْتَادُوا ٱرْتِقَاءَ ٱلْهَرَمِ بِلَا كُلْفَةٍ فَٱسْتَدْعَيْنَا رَجُلًا مِنْهُمْ وَرَضَخْنَا لَهُ بِشَيْءٍ. فَجَعَلَ يَصْعَدُ فِيهَا كَمَا يَرْقَى أَحَدُنَا فِي ٱلدَّرَجِ بَلْ أَسْرَعَ وَرَقَى بِنَعْلَيْهِ وَأَثْوَابِهِ وَكَانَتْ سَابِغَةً وَكُنْتُ أَمَرْتُهُ أَنَّهُ إِذَا ٱسْتَوَى عَلَى سَطْحِهِ قَاسَهُ بِعِمَامَتِهِ. فَلَمَّا نَزَلَ ذَرَعْنَا مِنْ عِمَامَتِهِ مِقْدَارَ مَا كَانَ قَاسَ فَكَانَ إِحْدَى عَشْرَةَ ذِرَاعًا بِذِرَاعِ ٱلْيَدِ. وَرَأَيْتُ بَعْضَ أَرْبَابِ ٱلْقِيَاسِ قَالَ ٱرْتِفَاعُ عَمُودِهَا ثَلْثُمِائَةِ ذِرَاعٍ وَنَحْوُ سَبْعَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا يُحِيطُ بِهِ أَرْبَعَةُ سُطُوحٍ مُثَلَّثَاتِ ٱلْأَضْلَاعِ طُولُ كُلِّ ضِلْعٍ مِنْهَا أَرْبَعُ مِائَةِ ذِرَاعٍ وَسِتُّونَ ذِرَاعًا وَأَرَى هٰذَا ٱلْقِيَاسَ خَطَأً وَلَوْ جُعِلَ ٱلْعَمُودُ أَرْبَعَ مِائَةِ ذِرَاعٍ لَصَحَّ قِيَاسُهُ وَإِنْ سَاعَدَتِ ٱلْمَقَادِيرُ تَوَلَّيْتُ قِيَاسَهُ بِنَفْسِي

وَفِي أَحَدِ هٰذَيْنِ ٱلْهَرَمَيْنِ مَدْخَلٌ يَلِجُهُ ٱلنَّاسُ يُفْضِي بِهِمْ إِلَى مَسَالِكَ ضَيِّقَةٍ وَأَسْرَابٍ مُتَنَافِذَةٍ وَآبَارٍ وَمَهَالِكَ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَحْكِيهِ مَنْ يَلِجُهُ وَيَتَوَغَّلُهُ. فَإِنَّ نَاسًا كَثِيرِينَ لَهُمْ غَرَامٌ بِهِ وَتَخَيُّلٌ فِيهِ فَيُوغِلُونَ فِي أَعْمَاقِهِ وَلَا بُدَّ أَنْ يَنْتَهُوا إِلَى مَا يَعْجِزُونَ عَنْ سُلُوكِهِ. وَأَمَّا ٱلْمَسْلُوكُ فِيهِ ٱلْمَطْرُوقُ كَثِيرًا فَزَلَّاقَةٌ تُفْضِي إِلَى أَعْلَاهُ. فَيُوجَدُ فِيهِ بَيْتٌ مُرَبَّعٌ فِيهِ نَاوُوسٌ مِنْ حَجَرٍ وَهٰذَا ٱلْمَدْخَلُ لَيْسَ هُوَ ٱلْبَابَ ٱلْمُتَّخَذَ لَهُ فِي أَصْلِ ٱلْبِنَاءِ وَإِنَّمَا هُوَ مَنْقُوبٌ نَقْبًا صُودِفَ ٱتِّفَاقًا. وَذُكِرَ أَنَّ ٱلْمَأْمُونَ هُوَ ٱلَّذِي فَتَحَهُ وَجُلُّ مَنْ كَانَ مَعَنَا وَلَجُوا فِيهِ وَصَعِدُوا إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي فِي أَعْلَاهُ. فَلَمَّا نَزَلُوا حَدَّثُوا بِعَظِيمِ مَا شَاهَدُوا وَأَنَّهُ مَمْلُوءٌ بِٱلْخَفَافِيشِ وَأَبْوَالِهَا حَتَّى يَكَادُ يَمْنَعُ ٱلسَّالِكَ وَيَعْظُمُ فِيهَا ٱلْخُفَّاشُ حَتَّى يَكُونَ فِي قَدْرِ ٱلْحَمَامِ. وَفِيهِ طَاقَاتٌ وَرَوَازِنُ نَحْوَ أَعْلَاهُ وَكَأَنَّهَا جُعِلَتْ مَسَالِكَ لِلرِّيحِ وَمَنَافِذَ لِلضَّوْءِ وَوَلَجْتُهُ مَرَّةً أُخْرَى مَعَ جَمَاعَةٍ وَبَلَغْتُ نَحْوَ ثُلُثَيِ ٱلْمَسَافَةِ فَأُغْمِيَ عَلَيَّ مِنْ هَوْلِ ٱلْمَطْلَعِ فَرَجَعْتُ بِرَمَقٍ

وَهٰذِهِ ٱلْأَهْرَامُ مَبْنِيَّةٌ بِحِجَارَةٍ جَافِيَةٍ يَكُونُ طُولُ ٱلْحَجَرِ مِنْهَا مَا بَيْنَ عَشْرِ أَذْرُعٍ إِلَى عِشْرِينَ ذِرَاعًا وَسَمْكُهُ مَا بَيْنَ ذِرَاعَيْنِ إِلَى ثُلُثٍ وَعَرْضُهُ نَحْوُ ذٰلِكَ وَعَجَبُ كُلِّ ٱلْعَجَبِ فِي وَضْعِ ٱلْحَجَرِ عَلَى ٱلْحَجَرِ بِهِنْدَامٍ لَيْسَ فِي ٱلْإِمْكَانِ أَصَحُّ مِنْهُ بِحَيْثُ لَا تَجِدُ بَيْنَهُمَا مَدْخَلَ إِبْرَةٍ وَلَا خَلَلَ شَعْرَةٍ وَبَيْنَهُمَا طِينٌ كَأَنَّهُ ٱلْوَرَقَةُ لَا أَدْرِي مَا صِنْفُهُ وَلَا مَا هُوَ. وَعَلَى تِلْكَ ٱلْحِجَارَةِ كِتَابَاتٌ بِٱلْقَلَمِ ٱلْقَدِيمِ ٱلْمَجْهُولِ ٱلَّذِي لَمْ أَجِدْ بِدِيَارِ مِصْرَ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَ بِمَنْ يَعْرِفُهُ. وَهٰذِهِ ٱلْكِتَابَاتُ كَثِيرَةٌ جِدًّا حَتَّى لَوْ نُقِلَ مَا عَلَى ٱلْهَرَمَيْنِ فَقَطْ إِلَى

صُحُفٍ لَكَانَتْ زُهَاءَ عَشَرَةِ آلَافِ صَحِيفَةٍ. وَقَرَأْتُ فِي بَعْضِ كُتُبِ الصَّابِئَةِ الْقَدِيمَةِ أَنَّ أَحَدَ هٰذَيْنِ الْهَرَمَيْنِ هُوَ قَبْرُ أَغَاذِيمُونَ وَالْآخَرَ قَبْرُ هَرْمِيسَ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمَا نَبِيَّانِ عَظِيمَانِ وَأَنَّ أَغَاذِيمُونَ أَقْدَمُ وَأَعْظَمُ وَأَنَّهُ كَانَ يُحَجُّ إِلَيْهِمَا وَيُهْوَى نَحْوَهُمَا مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ. وَقَدْ وَسَّعْنَا الْقَوْلَ فِي الْمَنْقُولِ فِي الْكِتَابِ الْكَبِيرِ فَمَنْ أَرَادَ التَّوَسُّعَ فَعَلَيْهِ بِهِ فَإِنَّ هٰذَا الْكِتَابَ مَقْصُورٌ عَلَى الْمَشَاهِدِ

وَكَانَ الْمَلِكُ الْعَزِيزُ عُثْمٰنُ بْنُ يُوسُفَ لَمَّا اسْتَقَلَّ بَعْدَ أَبِيهِ سَوَّلَ لَهُ جَهَلَةُ أَصْحَابِهِ أَنْ يَهْدِمَ هٰذِهِ الْأَهْرَامَ. فَبَدَأَ بِالصَّغِيرِ الْأَحْمَرِ وَهُوَ ثَالِثُ الْأَثَافِي. فَأَخْرَجَ إِلَيْهِ الْحَلِيَّةَ وَالنَّقَّابِينَ وَالْحَجَّارِينَ وَجَمَاعَةً مِنْ عُظَمَاءِ دَوْلَتِهِ وَأُمَرَاءِ مَمْلَكَتِهِ وَأَمَرَهُمْ بِهَدْمِهِ وَوَكَّلَهُمْ بِخَرَابِهِ. فَخَيَّمُوا عِنْدَهَا وَحَشَرُوا عَلَيْهَا الرِّجَالَ وَالصُّنَّاعَ وَوَفَّرُوا عَلَيْهِمِ النَّفَقَاتِ وَأَقَامُوا نَحْوَ ثَمَانِيَةِ أَشْهُرٍ بِخَيْلِهِمْ وَرَجِلِهِمْ يَهْدِمُونَ كُلَّ يَوْمٍ بَعْدَ بَذْلِ الْجُهْدِ وَاسْتِفْرَاغِ الْوُسْعِ الْحَجَرَ وَالْحَجَرَيْنِ. فَقَوْمٌ مِنْ فَوْقُ يَدْفَعُونَهُ بِالْأَسَافِينِ وَالْأَمْخَالِ وَقَوْمٌ مِنْ أَسْفَلَ يَجْذِبُونَهُ بِالْقُلُوسِ وَالْأَشْطَانِ فَإِذَا سَقَطَ سُمِعَ لَهُ وَجْبَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ حَتَّى تَرْجُفَ لَهُ الْجِبَالُ وَتَزَلْزَلَ الْأَرْضُ وَيَغُوصُ فِي الرَّمْلِ فَيَتْعَبُونَ تَعَبًا آخَرَ حَتَّى يُخْرِجُوهُ ثُمَّ يَضْرِبُونَ فِيهِ الْأَسَافِينَ بَعْدَ مَا يُنَقِّبُونَ لَهَا مَوْضِعًا وَيُبَيِّتُونَهَا فِيهِ فَيَتَقَطَّعُ قِطَعًا فَتُسْحَبُ كُلُّ قِطْعَةٍ عَلَى الْعَجَلِ حَتَّى تُلْقَى فِي ذَيْلِ الْجَبَلِ وَهِيَ مَسَافَةٌ قَرِيبَةٌ. فَلَمَّا طَالَ ثَوَاؤُهُمْ وَنَفِدَتْ نَفَقَاتُهُمْ وَتَضَاعَفَ نَصَبُهُمْ وَوَهَتْ عَزَائِمُهُمْ وَخَارَتْ قُوَاهُمْ كَفُّوا مَحْسُورِينَ مَذْمُومِينَ لَمْ يَنَالُوا بُغْيَةً وَلَا

بَلَغُوا غَايَةً بَلْ كَانَتْ غَايَتُهُمْ أَنْ شَوَّهُوا ٱلْهَرَمَ وَأَبَانُوا عَنْ عَجْزٍ وَفَشَلٍ. وَكَانَ ذٰلِكَ فِي سَنَةِ ثَلٰثٍ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ وَمَعَ ذٰلِكَ فَإِنَّ ٱلرَّائِيَ لِحِجَارَةِ ٱلْهَدْمِ يَظُنُّ أَنَّ ٱلْهَرَمَ قَدِ ٱسْتُؤْصِلَ فَإِذَا عَايَنَ ٱلْهَرَمَ ظَنَّ أَنَّهُ لَمْ يُهْدَمْ مِنْهُ شَيْءٌ وَإِنَّمَا جَانِبٌ مِنْهُ كُشِطَ بَعْضُهُ. وَحِينَ مَا شَاهَدْتُ ٱلْمَشَقَّةَ ٱلَّتِي يَجِدُونَهَا فِي هَدْمِ كُلِّ حَجَرٍ سَأَلْتُ مُقَدَّمَ ٱلْحَجَّارِينَ فَقُلْتُ لَهُ لَوْ بُذِلَ لَكُمْ أَلْفُ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تَرُدُّوا حَجَرًا وَاحِدًا إِلَى مَكَانِهِ وَهِنْدَامِهِ هَلْ كَانَ يُمْكِنُكُمْ ذٰلِكَ فَأَقْسَمَ بِٱللهِ تَعَالَى إِنَّهُمْ لَيَعْجِزُونَ عَنْ ذٰلِكَ وَلَوْ بُذِلَ لَهُمْ أَضْعَافُهُ

وَبِإِزَاءِ ٱلْأَهْرَامِ مِنَ ٱلضَّفَّةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ مَغَايِرُ كَثِيرَةُ ٱلْعَدَدِ كَبِيرَةُ ٱلْمِقْدَارِ عَمِيقَةُ ٱلْأَغْوَارِ مُتَدَاخِلَةٌ. وَفِيهَا مَا هُوَ ذُو طَبَقَاتٍ ثَلٰثٍ وَتُسَمَّى ٱلْمَدِينَةَ حَتَّى لَعَلَّ ٱلْفَارِسَ يَدْخُلُهَا بِرُمْحِهِ وَيَتَخَيَّلُهَا يَوْمًا أَجْمَعَ وَلَا يُنْهِيهَا لِكَثْرَتِهَا وَسَعَتِهَا وَبُعْدِهَا وَيَظْهَرُ مِنْ حَالِهَا أَنَّهَا مَقَاطِعُ حِجَارَةِ ٱلْأَهْرَامِ. وَأَمَّا مَقَاطِعُ حِجَارَةِ ٱلصَّوَّانِ ٱلْأَحْمَرِ فَيُقَالُ إِنَّهَا بِٱلْقُلْزُمِ وَبِأَسْوَانَ

وَعِنْدَ هٰذِهِ ٱلْأَهْرَامِ آثَارُ أَبْنِيَةٍ جَبَّارَةٍ وَمَغَايِرُ كَثِيرَةٌ مُتْقَنَةٌ وَقَلَّمَا تَرَى مِنْ ذٰلِكَ شَيْئًا إِلَّا وَتَرَى عَلَيْهِ كِتَابَاتٍ بِهٰذَا ٱلْقَلَمِ ٱلْمَجْهُولِ

وَعِنْدَ هٰذِهِ ٱلْأَهْرَامِ بِأَكْثَرَ مِنْ غَلْوَةٍ صُورَةُ رَأْسٍ وَعُنُقٍ بَارِزَةٌ مِنَ ٱلْأَرْضِ فِي غَايَةِ ٱلْعِظَمِ يُسَمِّيهِ ٱلنَّاسُ أَبَا ٱلْهَوْلِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ جُثَّتَهُ مَدْفُونَةٌ تَحْتَ ٱلْأَرْضِ وَيَقْتَضِي ٱلْقِيَاسُ أَنْ تَكُونَ جُثَّتُهُ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى رَأْسِهِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا فَصَاعِدًا. وَفِي وَجْهِهِ حُمْرَةٌ وَدِهَانٌ أَحْمَرُ يَلْمَعُ عَلَيْهِ رَوْنَقُ ٱلطَّرَاءَةِ وَهُوَ حَسَنُ ٱلصُّورَةِ مَقْبُولُهَا عَلَيْهِ مَسْحَةُ بَهَاءٍ وَجَمَالٍ كَأَنَّهُ يَضْحَكُ

تَبَسُّمًا . وَسَأَلَنِي بَعْضُ ٱلْفُضَلَاءِ مَا أَعْجَبُ مَا رَأَيْتَ فَقُلْتُ تَنَاسُبُ وَجْهِ أَبِي ٱلْهَوْلِ فَإِنَّ أَعْضَاءَ وَجْهِهِ كَالْأَنْفِ وَٱلْعَيْنِ وَٱلْأُذُنِ مُتَنَاسِبَةٌ كَمَا تَصْنَعُ ٱلطَّبِيعَةُ ٱلصُّوَرَ مُتَنَاسِبَةً . فَإِنَّ أَنْفَ ٱلطِّفْلِ مَثَلًا مُنَاسِبٌ لَهُ وَهُوَ حَسَنٌ بِهِ حَتَّى لَوْ كَانَ ذٰلِكَ ٱلْأَنْفُ لِرَجُلٍ لَكَانَ مُشَوَّهًا بِهِ وَكَذٰلِكَ لَوْ كَانَ أَنْفُ ٱلرَّجُلِ لِلصَّبِيِّ لَتَشَوَّهَتْ صُورَتُهُ وَعَلَى هٰذَا سَائِرُ ٱلْأَعْضَاءِ فَكُلُّ عُضْوٍ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَى مِقْدَارٍ وَهَيْئَةٍ بِٱلْقِيَاسِ إِلَى تِلْكَ ٱلصُّورَةِ وَعَلَى نِسَبِهَا فَإِنْ لَمْ تُوجَدِ ٱلْمُنَاسَبَةُ تَشَوَّهَتِ ٱلصُّورَةُ وَٱلْعَجَبُ مِنْ مُصَوِّرِهِ كَيْفَ قَدَرَ أَنْ يَحْفَظَ نِظَامَ ٱلتَّنَاسُبِ فِي ٱلْأَعْضَاءِ مَعَ عِظَمِهَا وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي أَعْمَالِ ٱلطَّبِيعَةِ مَا يُحَاكِيهِ وَيَتَقَيَّلُهُ

وَمِنْ ذٰلِكَ ٱلْآثَارُ ٱلَّتِي بِعَيْنِ شَمْسَ وَهِيَ مَدِينَةٌ صَغِيرَةٌ يُشَاهَدُ سُورُهَا مُحْدِقًا بِهَا مَهْدُومًا وَيَظْهَرُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهَا قَدْ كَانَتْ بَيْتَ عِبَادَةٍ . وَفِيهَا مِنَ ٱلْأَصْنَامِ ٱلْهَائِلَةِ ٱلْعَظِيمَةِ ٱلشَّكْلِ مِنْ نَحِيتِ ٱلْحِجَارَةِ يَكُونُ طُولُ ٱلصَّنَمِ زُهَاءَ ثَلٰثِينَ ذِرَاعًا وَأَعْضَاؤُهُ عَلَى تِلْكَ ٱلنِّسْبَةِ مِنَ ٱلْعِظَمِ . وَقَدْ كَانَ بَعْضُ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَامِ قَائِمًا عَلَى قَوَاعِدَ وَبَعْضُهَا قَاعِدًا بِنُصْبَاتٍ عَجِيبَةٍ وَإِتْقَانَاتٍ مُحْكَمَةٍ وَبَابُ ٱلْمَدِينَةِ مَوْجُودٌ إِلَى ٱلْيَوْمَ . وَعَلَى مُعْظَمِ تِلْكَ ٱلْحِجَارَةِ تَصَاوِيرُ ٱلْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ وَكِتَابَاتٌ كَثِيرَةٌ بِٱلْقَلَمِ ٱلْمَجْهُولِ وَقَلَّمَا تَرَى حَجَرًا غُفْلًا مِنْ كِتَابَةٍ أَوْ نَقْشٍ أَوْ صُورَةٍ . وَفِي هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلْمِسَلَّتَانِ ٱلْمَشْهُورَتَانِ وَتُسَمَّيَانِ مِسَلَّتَيْ فِرْعَوْنَ وَصِفَةُ ٱلْمِسَلَّةِ أَنَّ قَاعِدَةً مُرَبَّعَةً طُولُهَا عَشْرُ أَذْرُعٍ فِي مِثْلِهَا عَرْضًا فِي نَحْوِهَا سَمْكًا قَدْ وُضِعَتْ عَلَى أَسَاسٍ ثَابِتٍ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ أُقِيمَ عَلَيْهَا عَمُودٌ مُرَبَّعٌ مَخْرُوطٌ يُنِيفُ طُولُهُ عَلَى مِائَةِ ذِرَاعٍ

يَبْتَدِئُ مِنْ قَاعِدَةٍ لَعَلَّ قُطْرَهَا خَمْسُ أَذْرُعٍ وَيَنْتَهِي إِلَى نُقْطَةٍ وَقَدْ لُبِسَ رَأْسُهَا بِقَلَنْسُوَةٍ نُحَاسٍ إِلَى نَحْوِ ثُلُثِ أَذْرُعٍ مِنْهَا كَالْقِمَعِ. وَقَدْ تَزَنْجَرَ بِالْمَطَرِ وَطُولِ الْمُدَّةِ وَاخْضَرَّ وَسَالَ مِنْ خُضْرَتِهِ عَلَى بَسِيطِ الْمِسَلَّةِ. وَالْمِسَلَّةُ كُلُّهَا عَلَيْهَا كِتَابَاتٌ بِذَلِكَ الْقَلَمِ وَرَأَيْتُ إِحْدَى الْمِسَلَّتَيْنِ وَقَدْ خَرَّتْ وَانْصَدَعَتْ مِنْ نِصْفِهَا لِعِظَمِ الثِّقْلِ وَأُخِذَ النُّحَاسُ مِنْ رَأْسِهَا. ثُمَّ إِنَّ حَوْلَهَا مِنَ الْمَسَالِّ شَيْئًا كَثِيرًا لَا يُحْصَى عَدَدُهَا وَمَقَادِيرُهَا عَلَى نِصْفِ تِلْكَ الْعُظْمَى أَوْ ثُلُثِهَا وَقَلَّمَا نَجِدُ فِي هَذِهِ الْمَسَالِّ الصِّغَارِ مَا هُوَ قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ بَلْ فُصُوصٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَقَدْ تَهَدَّمَ أَكْثَرُهَا وَإِنَّمَا بَقِيَتْ قَوَاعِدُهَا. وَرَأَيْتُ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ مِسَلَّتَيْنِ عَلَى سِيفِ الْبَحْرِ فِي وَسَطِ الْعِمَارَةِ أَكْبَرَ مِنْ هَذِهِ الصِّغَارِ وَأَصْغَرَ مِنَ الْعَظِيمَتَيْنِ

وَأَمَّا الْبَرَابِي بِالصَّعِيدِ فَالْحِكَايَاتُ عَنْ عِظَمِهَا وَإِتْقَانِ صَنْعَتِهَا وَإِحْكَامِ صُوَرِهَا وَعَجَائِبِ مَا فِيهَا مِنَ الْأَشْكَالِ وَالنُّقُوشِ وَالتَّصَاوِيرِ وَالْخُطُوطِ مَعَ إِحْكَامِ الْبِنَاءِ وَجَفَاءِ الْآلَاتِ وَالْأَحْجَارِ مِمَّا يَفُوتُ الْحَصْرَ وَهِيَ مِنَ الشُّهْرَةِ بِحَيْثُ تُغْنِي عَنِ الْإِطَالَةِ فِي الصِّفَةِ

وَمِنْ ذَلِكَ الْآثَارُ الَّتِي بِمِصْرَ الْقَدِيمَةِ وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ بِالْجِيزَةِ فُوَيْقَ الْفُسْطَاطِ وَهِيَ مَنْفُ الَّتِي كَانَ يَسْكُنُهَا الْفَرَاعِنَةُ وَكَانَتْ مُسْتَقَرَّ مَمْلَكَةِ مُلُوكِ مِصْرَ

فَهَذِهِ الْمَدِينَةُ مَعَ سَعَتِهَا وَتَقَادُمِ عَهْدِهَا وَتَدَاوُلِ الْمِلَلِ عَلَيْهَا وَاسْتِئْصَالِ الْأُمَمِ إِيَّاهَا مِنْ تَعْفِيَةِ آثَارِهَا وَمَحْوِ رُسُومِهَا وَنَقْلِ حِجَارَتِهَا وَآلَاتِهَا وَإِفْسَادِ أَبْنِيَتِهَا وَتَشْوِيهِ صُوَرِهَا مُضَافًا إِلَى مَا فَعَلَتْهُ فِيهَا أَرْبَعَةُ آلَافِ

سَنَةٍ فَصَاعِدًا تَجِدُ فِيهَا مِنَ ٱلْعَجَائِبِ مَا يَفُوتُ فَهْمَ ٱلْفَطِنِ ٱلْمُتَأَمِّلِ وَيَحْصَرُ دُونَ وَصْفِهِ ٱلْبَلِيغُ ٱللَّسِنُ وَكُلَّمَا زِدْتَهُ تَأَمُّلًا زَادَكَ عَجَبًا وَكُلَّمَا زِدْتَهُ نَظَرًا زَادَكَ طَرَبًا وَمَهْمَا ٱسْتَنْبَطْتَ مِنْهُ مَعْنًى أَنْبَأَكَ بِمَا هُوَ أَغْرَبُ وَمَهْمَا ٱسْتَنَزْتَ مِنْهُ عِلْمًا دَلَّكَ عَلَى أَنَّ وَرَاءَهُ مَا هُوَ أَعْظَمُ

فَمِنْ ذٰلِكَ ٱلْبَيْتُ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْبَيْتِ ٱلْأَخْضَرِ وَهُوَ حَجَرٌ وَاحِدٌ تِسْعُ أَذْرُعٍ ٱرْتِفَاعًا فِي ثَمَانٍ طُولًا فِي سَبْعٍ عَرْضًا قَدْ حُفِرَ فِي وَسَطِهِ بَيْتٌ قَدْ جُعِلَ سُمْكُ حِيطَانِهِ وَسَقْفِهِ وَأَرْضِهِ ذِرَاعَيْنِ ذِرَاعَيْنِ وَٱلْبَاقِي فَضَاءُ ٱلْبَيْتِ وَجَمِيعُهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا مَنْقُوشٌ وَمُصَوَّرٌ وَمَكْتُوبٌ بِٱلْقَلَمِ ٱلْقَدِيمِ وَعَلَى ظَاهِرِهِ صُورَةُ ٱلشَّمْسِ مِمَّا يَلِي مَطْلِعَهَا وَصُوَرٌ كَثِيرَةٌ مِنَ ٱلْكَوَاكِبِ وَٱلْأَفْلَاكِ وَصُوَرُ ٱلنَّاسِ وَٱلْحَيَوَانِ عَلَى ٱخْتِلَافٍ مِنَ ٱلنُّصُبَاتِ وَٱلْهَيْئَاتِ فَمِنْ بَيْنِ قَائِمٍ وَمَاشٍ وَمَادٍّ رِجْلَيْهِ وَصَافِّهِمَا وَمُسْتَمِرٍّ (مُشَمِّرٍ) لِلْخِدْمَةِ وَحَامِلِ آلَاتٍ وَٱلْمُشِيرِ بِهَا. يُنْبِئُ ظَاهِرُ ٱلْأَمْرِ أَنَّهُ قُصِدَ بِذٰلِكَ مُحَاكَاةُ أُمُورٍ جَلِيلَةٍ وَأَعْمَالٍ شَرِيفَةٍ وَهَيْئَاتٍ فَاضِلَةٍ وَإِشَارَاتٍ إِلَى أَسْرَارٍ غَامِضَةٍ وَأَنَّهَا لَمْ تُتَّخَذْ عَبَثًا وَلَمْ يُسْتَفْرَغْ فِي صَنْعَتِهَا ٱلْوُسْعُ لِمُجَرَّدِ ٱلزِّينَةِ وَٱلْحُسْنِ. وَقَدْ كَانَ هٰذَا ٱلْبَيْتُ مُمَكَّنًا عَلَى قَوَاعِدَ مِنْ حِجَارَةِ ٱلصَّوَّانِ ٱلْعَظِيمَةِ ٱلْوَثِيقَةِ فَحَفَرَ تَحْتَهَا ٱلْجَهَلَةُ وَٱلْحَمْقَى طَمَعًا فِي ٱلْمَطَالِبِ فَتَغَيَّرَ وَضْعُهُ وَفَسَدَ هِنْدَامُهُ وَٱخْتَلَفَ مَرْكَزُ ثِقْلِهِ وَثَقَّلَ بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ فَتَصَدَّعَ صُدُوعًا لَطِيفَةً يَسِيرَةً. وَهٰذَا ٱلْبَيْتُ قَدْ كَانَ فِي هَيْكَلٍ عَظِيمٍ مَبْنِيٍّ بِحِجَارَةٍ عَاتِيَةٍ جَافِيَةٍ عَلَى أَتْقَنِ هِنْدَامٍ وَأَحْكَمِ صَنْعَةٍ وَفِيهَا قَوَاعِدُ عَلَى عُمُدٍ عَظِيمَةٍ وَحِجَارَةُ ٱلْهَدْمِ مُتَوَاصِلَةٌ فِي جَمِيعِ أَقْطَارِ هٰذَا ٱلْخَرَابِ. وَقَدْ بَقِيَ فِي بَعْضِهَا حِيطَانٌ

مَاثِلَةً بِتِلْكَ ٱلْحِجَارَةِ ٱلْجَافِيَةِ . وَفِي بَعْضِهَا أَسَاسٌ وَفِي بَعْضِهَا أَطْلَالٌ وَرَأَيْتُ عَقْدَ بَابٍ شَاهِقًا رُكْنَاهُ حَجَرَانِ فَقَطْ وَأَزْجُهُ حَجَرٌ وَاحِدٌ قَدْ سَقَطَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَجِدُ هٰذِهِ ٱلْحِجَارَةَ مَعَ ٱلْهِنْدَامِ ٱلْمُحْكَمِ وَٱلْوَضْعِ ٱلْمُتْقَنِ قَدْ حُفِرَ بَيْنَ ٱلْحَجَرَيْنِ مِنْهَا نَحْوَ شِبْرٍ فِي ٱرْتِفَاعِ أُصْبُعَيْنِ وَفِيهِ صَدَأُ ٱلنُّحَاسِ وَزِنْجَارُهُ فَعَلِمْتُ أَنَّ ذٰلِكَ قُيُودٌ لِحِجَارَةِ ٱلْبِنَاءِ وَتَوْثِيقٌ لَهَا وَرِبَاطَاتٌ بَيْنَهَا بِأَنْ يُجْعَلَ بَيْنَ ٱلْحَجَرَيْنِ ثُمَّ يُصَبَّ عَلَيْهِ ٱلرَّصَاصُ وَقَدْ تَتَبَّعَهَا ٱلْأَنْذَالُ وَٱلْمَحْدُودُونَ فَقَلَعُوا مِنْهَا مَا شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى وَكَسَرُوا لِأَجْلِهَا كَثِيرًا مِنَ ٱلْحِجَارَةِ حَتَّى يَصِلُوا إِلَيْهَا وَلَعَمْرُ ٱللهِ لَقَدْ بَذَلُوا ٱلْجُهْدَ فِي ٱسْتِخْلَاصِهَا وَأَبَانُوا عَنْ تَمَكُّنٍ مِنَ ٱللُّؤْمِ وَتَوَغُّلٍ فِي ٱلْخَسَاسَةِ

وَأَمَّا ٱلْأَصْنَامُ وَكَثْرَةُ عَدَدِهَا وَعِظَمُ صُوَرِهَا فَأَمْرٌ يَفُوتُ ٱلْوَصْفَ وَيَتَجَاوَزُ ٱلتَّقْدِيرَ . وَأَمَّا إِتْقَانُ أَشْكَالِهَا وَإِحْكَامُ هَيْآتِهَا وَٱلْمُحَاكَاةُ بِهَا ٱلْأُمُورَ ٱلطَّبِيعِيَّةَ فَمَوْضِعُ ٱلتَّعَجُّبِ بِٱلْحَقِيقَةِ . فَمِنْ ذٰلِكَ صَنَمٌ ذَرَعْنَاهُ سِوَى قَاعِدَتِهِ فَكَانَ نَيِّفًا وَثَلَاثِينَ ذِرَاعًا وَكَانَ مَدَاهُ مِنْ جِهَةِ ٱلْيَمِينِ إِلَى ٱلْيَسَارِ نَحْوَ عَشْرِ أَذْرُعٍ . وَمِنْ جِهَةِ ٱلْخَلْفِ إِلَى ٱلْأَمَامِ عَلَى تِلْكَ ٱلنِّسْبَةِ وَهُوَ حَجَرٌ وَاحِدٌ مِنَ ٱلصَّوَّانِ ٱلْأَحْمَرِ وَعَلَيْهِ مِنَ ٱلدِّهَانِ ٱلْأَحْمَرِ كَأَنَّهُ لَمْ يَزِدْهُ تَقَادُمُ ٱلْأَيَّامِ إِلَّا جِدَّةً . وَٱلْعَجَبُ كُلُّ ٱلْعَجَبِ كَيْفَ حُفِظَ فِيهِ مَعَ عِظَمِهِ ٱلنِّظَامُ ٱلطَّبِيعِيُّ وَٱلتَّنَاسُبُ ٱلْحَقِيقِيُّ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَعْضَاءِ ٱلْآلِيَّةِ ٱلْمُتَشَابِهَةِ لَهُ فِي نَفْسِهِ مِقْدَارٌ مَا وَلَهُ إِلَى سَائِرِ ٱلْأَعْضَاءِ نِسْبَةٌ مَا بِذٰلِكَ ٱلْمِقْدَارِ وَبِتِلْكَ ٱلنِّسْبَةِ يَحْصُلُ حُسْنُ ٱلْهَيْئَةِ وَمَلَاحَةُ ٱلصُّورَةِ فَإِنِ ٱخْتَلَّ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ حَدَثَ مِنَ ٱلْقُبْحِ بِمِقْدَارِ ٱلْخَلَلِ .

وَقَدْ أُحْكِمَ فِي هٰذِهِ ٱلْأَصْنَامِ هٰذَا ٱلنِّظَامُ إِحْكَامًا أَشْبَهَ إِحْكَامٍ فَمِنْ ذٰلِكَ مَقَادِيرُ ٱلْأَعْضَاءِ فِي نَفْسِهَا ثُمَّ نِسَبُ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ

وَرَأَيْتُ أَسَدَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ بَيْنَهُمَا أَمَدٌ قَرِيبٌ وَصُورَتُهُمَا هَائِلَةٌ جِدًّا وَقَدْ حُفِظَ فِيهِمَا ٱلنِّظَامُ ٱلطَّبِيعِيُّ وَٱلتَّنَاسُبُ ٱلْحَيَوَانِيُّ مَعَ كَوْنِهِمَا أَعْظَمَ جُثَّةً مِنَ ٱلْحَيَوَانِ ٱلْحَقِيقِيِّ جِدًّا جِدًّا وَقَدْ تَكَسَّرَا وَرُدِمَا بِٱلتُّرَابِ. وَوَجَدْنَا مِنْ سُورِ ٱلْمَدِينَةِ قِطْعَةً صَالِحَةً مَبْنِيَّةً بِٱلْحِجَارَةِ ٱلصِّغَارِ وَٱلطُّوبِ وَهٰذَا ٱلطُّوبُ كَبِيرٌ جَافٌّ مُطَاوِلُ ٱلشَّكْلِ وَمِقْدَارُهُ نِصْفُ ٱلْآجُرِّ ٱلْكِسْرَوِيِّ بِٱلْعِرَاقِ كَمَا أَنَّ طُوبَ مِصْرَ ٱلْيَوْمَ نِصْفُ آجُرِّ ٱلْعِرَاقِ ٱلْيَوْمَ أَيْضًا

(ثُمَّ إِنَّ ٱلنَّاسَ) يَجِدُونَ نَوَاوِيسَ تَحْتَ ٱلْأَرْضِ فَسِيحَةَ ٱلْأَرْجَاءِ مُحْكَمَةَ ٱلْبِنَاءِ وَفِيهَا مِنْ مَوْتَى ٱلْقُدَمَاءِ ٱلْجَمُّ ٱلْغَفِيرُ وَٱلْعَدَدُ ٱلْكَثِيرُ قَدْ لُفُّوا بِأَكْفَانٍ مِنْ ثِيَابِ ٱلْقِنَّبِ لَعَلَّهُ يَكُونُ عَلَى ٱلْمَيِّتِ مِنْهَا زُهَاءَ أَلْفِ ذِرَاعٍ وَقَدْ كُفِّنَ كُلُّ عُضْوٍ عَلَى ٱنْفِرَادِهِ كَٱلْيَدِ وَٱلرِّجْلِ وَٱلْأَصَابِعِ فِي قُمُطٍ دِقَاقٍ. ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ تُلَفُّ جُثَّةُ ٱلْمَيِّتِ جُمْلَةً حَتَّى يَرْجِعَ كَٱلْحِمْلِ ٱلْعَظِيمِ وَمَنْ كَانَ يَتَتَبَّعُ هٰذِهِ ٱلنَّوَاوِيسَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ وَأَهْلِ ٱلرِّيفِ وَغَيْرِهِمْ يَأْخُذُ هٰذِهِ ٱلْأَكْفَانَ فَمَا وَجَدَ فِيهِ تَمَاسُكًا ٱتَّخَذَهُ ثِيَابًا أَوْ بَاعَهُ لِلْوَرَّاقِينَ يَعْمَلُونَ مِنْهُ وَرَقَ ٱلْعَطَّارِينَ. وَيُوجَدُ بَعْضُ مَوْتَاهُمْ فِي تَوَابِيتَ مِنْ خَشَبِ جُمَّيْزٍ ثَخِينٍ وَيُوجَدُ بَعْضُهُمْ فِي نَوَاوِيسَ مِنْ حِجَارَةٍ إِمَّا رُخَامٍ وَإِمَّا صَوَّانٍ وَبَعْضُهُمْ فِي أَزْيَارٍ مَمْلُوَّةٍ عَسَلًا. وَخَبَّرَنِي ٱلثِّقَةُ أَنَّهُمْ بَيْنَمَا كَانُوا يَتَقَفَّوْنَ ٱلْمَطَالِبَ عِنْدَ ٱلْأَهْرَامِ صَادَفُوا دَنًّا مَخْتُومًا فَفَضُّوهُ فَإِذَا فِيهِ عَسَلٌ فَأَكَلُوا مِنْهُ فَعَلِقَ فِي أُصْبُعِ أَحَدِهِمْ شَعَرٌ فَجَذَبَهُ فَظَهَرَ لَهُمْ صَبِيٌّ صَغِيرٌ مُتَمَاسِكُ ٱلْأَعْضَاءِ

رَطْبُ ٱلْبَدَنِ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ ٱلْحُلِيِّ وَٱلْجَوْهَرِ. وَهٰؤُلَاءِ ٱلْمَوْتَى قَدْ يُوجَدُ عَلَى جِبَاهِهِمْ وَعُيُونِهِمْ وَأُنُوفِهِمْ وَرَقٌ مِنَ ٱلذَّهَبِ كَٱلْقِشْرِ. وَرُبَّمَا وُجِدَ قِشْرٌ مِنَ ٱلذَّهَبِ عَلَى جَمِيعِ ٱلْمَيِّتِ كَٱلْغِشَاءِ وَرُبَّمَا وُجِدَ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْحُلِيِّ وَٱلْجَوْهَرِ وَرُبَّمَا وُجِدَ عِنْدَهُ آلَتُهُ ٱلَّتِي كَانَ يُزَاوِلُ بِهَا فِي حَيَاتِهِ. وَأَخْبَرَنِي ٱلثِّقَةُ أَنَّهُ وَجَدَ عِنْدَ مَيِّتٍ مِنْهُمْ آلَةَ ٱلْمُزَيِّنِ مِسَنًّا وَمُوسَى وَعِنْدَ آخَرَ آلَةَ ٱلْحَجَّامِ وَعِنْدَ آخَرَ آلَةَ ٱلْحَائِكِ وَيَظْهَرُ مِنْ حَالِهِمْ أَنَّهُ قَدْ كَانَ مِنْ سُنَّتِهِمْ أَنْ يَدْفِنُوا مَعَ ٱلرَّجُلِ آلَتَهُ وَمَا لَهُ. وَسَمِعْتُ أَنَّ طَوَائِفَ مِنَ ٱلْحَبَشَةِ هٰذِهِ سُنَّتُهُمْ وَيَتَطَيَّرُونَ بِمَتَاعِ ٱلْمَيِّتِ إِنْ يَمَسُّوهُ أَوْ يَتَصَرَّفُوا فِيهِ وَقَدْ كَانَ مِنْ سُنَّتِهِمْ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ أَنْ يُجْعَلَ مَعَ ٱلْمَيِّتِ شَيْءٌ مِنَ ٱلذَّهَبِ. فَخَبَّرَنِي بَعْضُ قُضَاةِ بُوصِيرَ وَهِيَ مُجَاوِرَةٌ مَدَافِنَهُمْ أَنَّهُمْ نَبَشُوا ثَلٰثَةَ أَقْبُرٍ فَوَجَدُوا عَلَى كُلِّ مَيِّتٍ قِشْرًا رَقِيقًا مِنَ ٱلذَّهَبِ لَا يَكَادُ يُجْتَمِعُ وَفِي فِيهِ سَبِيكَةٌ مِنَ ٱلذَّهَبِ فَجَمَعَ ٱلسَّبَائِكَ ٱلثَّلٰثَةَ فَكَانَ وَزْنُهَا تِسْعَةَ مَثَاقِيلَ وَٱلْحِكَايَاتُ فِي ذٰلِكَ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يَحْصُرَهَا هٰذَا ٱلْكِتَابُ

وَأَمَّا مَا يُوجَدُ فِي أَجْوَافِهِمْ وَأَدْمِغَتِهِمْ مِنَ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يُسَمُّونَهُ مُومِيَا فَكَثِيرٌ جِدًّا يَجْلِبُهُ أَهْلُ ٱلرِّيفِ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ وَيُبَاعُ بِٱلشَّيْءِ ٱلنَّزْرِ وَلَقَدِ ٱشْتَرَيْتُ ثَلٰثَةَ أَرْؤُسٍ مَمْلُوَّةٍ مِنْهُ بِنِصْفِ دِرْهَمٍ مِصْرِيٍّ وَأَرَانِي بَائِعُهُ جُوَالِقًا مَمْلُوًّا مِنْ ذٰلِكَ. وَكَانَ فِيهِ ٱلصَّدْرُ وَٱلْبَطْنُ وَحَشْوُهُ مِنْ هٰذَا ٱلْمُومِيَا وَرَأَيْتُهُ قَدْ دَاخَلَ ٱلْعِظَامَ وَتَشَرَّبَتْهُ وَسَرَى فِيهَا حَتَّى صَارَتْ كَأَنَّهَا جُزْءٌ مِنْهُ وَرَأَيْتُ أَيْضًا عَلَى قِحْفِ ٱلرَّأْسِ أَثَرَ ثَوْبِ ٱلْكَفَنِ وَأَثَرَ ٱلنِّسَاجَةِ قَدِ ٱنْتَقَشَ فِيهِ كَمَا يَرْتَسِمُ عَلَى ٱلشَّمْعِ إِذَا خَتَمْتَ بِهِ عَلَى ثَوْبٍ

وَهٰذَا ٱلْمُومِيَا هُوَ أَسْوَدُ كَٱلْقَفْرِ وَرَأَيْتُهُ إِذَا ٱشْتَدَّ عَلَيْهِ حَرُّ ٱلصَّيْفِ يَجْرِي وَيَلْصَقُ بِمَا يَدْنُو مِنْهُ وَإِذَا طُرِحَ عَلَى ٱلْجَمْرِ غَلَى وَدَخَنَ وَشَمَمْتُ مِنْهُ رَائِحَةَ ٱلْقَفْرِ أَوِ ٱلزِّفْتِ وَٱلْغَالِبُ أَنَّهُ زِفْتٌ وَمُرٌّ. وَأَمَّا ٱلْمُومِيَا بِٱلْحَقِيقَةِ فَشَيْءٌ يَنْحَدِرُ مِنْ رُؤُسِ ٱلْجِبَالِ مَعَ ٱلْمِيَاهِ ثُمَّ يَجْمُدُ كَٱلْقَارِ وَيَفُوحُ مِنْهُ رَائِحَةُ زِفْتٍ مَخْلُوطٍ بِقَفْرٍ. وَقَالَ جَالِينُوسُ ٱلْمُومِيَا يَخْرُجُ مِنَ ٱلْعُيُونِ كَٱلْقَارِ وَٱلنِّفْطِ. وَقَالَ غَيْرُهُ هُوَ صِنْفٌ مِنَ ٱلْقَارِ وَيُسَمَّى حَيْضَ ٱلْجِبَالِ وَهٰذَا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي تَجَاوِيفِ ٱلْمَوْتَى بِمِصْرَ لَا يَبْعُدُ عَنْ طِبَاعِ ٱلْمُومِيَا وَإِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ بَدَلَهُ إِذَا تَعَذَّرَ

وَمِنْ أَعْجَبِ مَا يُوجَدُ فِي مَدَافِنِهِمْ أَصْنَافُ ٱلْحَيَوَانِ مِنَ ٱلطَّيْرِ وَٱلْوَحْشِ وَٱلْحَشَرَاتِ وَقَدْ كُفِنَ ٱلْوَاحِدُ مِنْهَا فِي كَذَا كَذَا ثَوْبًا وَهُوَ مُخْتَاطٌ عَلَيْهِ مُحْتَفَظٌ بِهِ. وَخَبَّرَنِي ٱلثِّقَةُ أَنَّهُمْ وَجَدُوا بَيْتًا تَحْتَ ٱلْأَرْضِ مُحْكَمًا فَفَتَحُوهُ فَوَجَدُوا فِيهِ لَفَائِفَ ثِيَابِ ٱلْقِنَّبِ وَقَدْ تَمَعَّطَتْ فَأَزَالُوهَا مَعَ كَثْرَتِهَا فَوَجَدُوا تَحْتَهَا عِجْلًا صَحِيحًا قَدْ أُحْكِمَ تَقْمِيطُهُ. وَحَدَّثَنِي آخَرُ أَنَّهُمْ وَجَدُوا صَقْرًا فَنَشَرُوا عَنْهُ مِنْ لَفَائِفِ ٱلثِّيَابِ حَتَّى عَيُوا فَوَجَدُوهُ لَمْ تَسْقُطْ مِنْهُ رِيشَةٌ. وَحُكِيَ لِي مِثْلُ ذٰلِكَ عَنْ هِرٍّ وَعَنْ عُصْفُورٍ وَعَنْ خُنْفُسَاءَ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَطُولُ شَرْحُهُ وَيَهْجُنُ ذِكْرُهُ

وَحَكَى لِي أَيْضًا ٱلْأَمِيرُ ٱلصَّادِقُ أَنَّهُ كَانَ بِقُوصَ فَجَاءَ إِلَيْهِ مَنْ يَبْحَثُ عَنِ ٱلْمَطَالِبِ فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّهُمْ ٱنْخَسَفَتْ بِهِمْ هُوَّةٌ مُوهِمَةٌ أَنَّ فِيهَا دَفِينًا فَخَرَجَ مَعَهُمْ بِجَمَاعَةٍ مُتَسَلِّحِينَ وَحَفَرُوا فَوَجَدُوا زِيرًا كَبِيرًا مُوثَقَ ٱلرَّأْسِ بِٱلْجِصِّ فَفَتَحُوهُ بَعْدَ ٱلْجُهْدِ فَوَجَدُوا فِيهِ كَٱلْأَصَابِعِ مُكَفَّنَةً بِخِرَقٍ فَحَلُّوهَا

فَوَجَدُوا تَحْتَهَا صِيرًا وَهُوَ سَمَكٌ صِغَارٌ وَصَارَ كَالْهَبَاءِ إِذَا نُفِخَ طَارَ فَنَقَلُوا
الزِّيرَ إِلَى مَدِينَةِ قُوص بَيْنَ يَدَيِ ٱلْوَالِي وَٱجْتَمَعَ عَلَيْهِ نَحْوُ مِائَةِ رَجُلٍ
فَحَلُّوا ٱلْجَمِيعَ حَتَّى أَتَوْا عَلَى آخِرِهِ وَهُوَ كُلُّهُ صِيرٌ مُكَفَّنٌ لَيْسَ فِيهِ سِوَى ذٰلِكَ
وَرَأَيْتُ أَنَا بَعْدَ ذٰلِكَ فِي مَدَافِنِهِمْ بِبُوصِيرَ مِنَ ٱلْعَجَائِبِ مَا لَا يَفِي بِهِ
هٰذَا ٱلْكِتَابُ. فَمِنْ ذٰلِكَ أَنِّي وَجَدْتُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَدَافِنِ مَغَايِرَ تَحْتَ ٱلْأَرْضِ
مَبْنِيَّةً بِإِتْقَانٍ وَفِيهَا رِمَمٌ مُكَفَّنَةٌ فِي كُلِّ مَغَارَةٍ عَدَدٌ لَا يُحْصَى. وَمِنَ ٱلْمَغَايِرِ
مَا هُوَ مَمْلُوءٌ بِرِمَمِ ٱلْكِلَابِ وَمِنْهَا مَا هُوَ مَمْلُوءٌ بِرِمَمِ ٱلْبَقَرِ وَمِنْهَا مَا فِيهِ رِمَمُ
ٱلسَّنَانِيرِ وَٱلْجَمِيعُ مُكَفَّنٌ بِخِرَقِ ٱلْقِنَّبِ. وَرَأَيْتُ شَيْئًا مِنْ عِظَامِ بَنِي آدَمَ
وَقَدْ تَمَشَّقَ حَتَّى صَارَ كَاللِّيفِ ٱلْأَبْيَضِ لِقِدَمِهِ وَمَعَ ذٰلِكَ فَأَكْثَرُ ٱلرِّمَمِ
ٱلَّتِي رَأَيْتُهَا صَلِبَةٌ مُتَمَاسِكَةٌ جِدًّا يَظْهَرُ مِنْ عَلَيْهَا ٱلطَّرَاوَةُ أَكْثَرُ مِنْ رِمَمِ
ٱلْهَالِكِينَ سَنَةَ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ ٱلْآتِي ذِكْرُهَا آخِرَ كِتَابِنَا هٰذَا
وَلَاسِيَّمَا مَا كَانَ مِنَ ٱلرِّمَمِ ٱلْقَدِيمَةِ قَدِ ٱنْصَبَغَ بِٱلزِّفْتِ أَوِ ٱلْقَطِرَانِ فَإِنَّكَ
تَجِدُهَا فِي لَوْنِ ٱلْحَدِيدِ وَصَلَابَتِهِ وَرَزَانَتِهِ. وَرَأَيْتُ مِنْ جَمَاجِمِ ٱلْبَقَرِ مَا شَاءَ
ٱللهُ وَكَذٰلِكَ جَمَاجِمِ ٱلْغَنَمِ وَفَرَقْتُ بَيْنَ رُؤُسِ ٱلْمَعْزِ وَٱلضَّأْنِ وَبَيْنَ
رُؤُسِ ٱلْبَقَرِ وَٱلثِّيرَانِ وَوَجَدْتُ لَحْمَ ٱلْبَقَرِ قَدِ ٱلْتَصَقَ بِٱلْأَكْفَانِ حَتَّى
صَارَ قِطْعَةً وَاحِدَةً حَمْرَاءَ تَضْرِبُ إِلَى ٱلسَّوَادِ وَيَخْرُجُ ٱلْعَظْمُ مِنْ تَحْتِهَا
أَبْيَضَ يَقَقًا وَبَعْضُ ٱلْعِظَامِ أَحْمَرُ وَبَعْضُهَا أَسْوَدُ وَكَذٰلِكَ فِي عِظَامِ
ٱلْآدَمِيِّ. وَلَا شَكَّ أَنَّ ٱلْأَكْفَانَ كَانَتْ تُبَلُّ بِٱلصَّبِرِ وَٱلْقَطِرَانِ وَتُشْرَبُ
بِهِ ثُمَّ يُكَفَّنُ بِهَا فَلِذٰلِكَ يَصْبَغُ ٱللَّحْمَ وَيُبْقِيهِ وَمَا نَالَ مِنْهَا ٱلْعَظْمَ صَبَغَهُ
فَأَحْمَرَ وَأَسْوَدَ. وَوَجَدْتُ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ تِلَالًا مِنْ رِمَمِ ٱلْكِلَابِ لَعَلَّهُ

يكُونُ فِي جُمْلَتِهَا مِائَةُ أَلْفِ رَأْسِ كَلْبٍ أَوْ يَزِيدُ وَذَٰلِكَ مِمَّا يُثِيرُ ٱلْبَاحِثُونَ عَنِ ٱلْمَطَالِبِ فَإِنَّ جَمَاعَةً يَجْعَلُونَ مَكَاسِبَهُمْ مِنْ هٰذِهِ ٱلْقُبُورِ وَأَخْذِ مَا سَخَّ لَهُمْ مِنَ ٱلْخَشَبِ وَٱلْخِرَقِ وَغَيْرِهِ . وَٱسْتَقْرَيْتُ جَمِيعَ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلْمُمْكِنَةِ فَلَمْ أَجِدْ فِيهَا رَأْسَ فَرَسٍ وَلَا جَمَلٍ وَلَا حِمَارٍ فَبَقِيَ ذٰلِكَ فِي نَفْسِي فَسَأَلْتُ مَشَايِخَ بُوصِيرَ فَبَادَرُوا إِلَى إِخْبَارِي بِأَنَّهُمْ قَدْ تَقَدَّمَتْ فِكْرَتُهُمْ فِي ذٰلِكَ وَٱسْتِقْرَاؤُهُمْ إِيَّاهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ . وَأَكْثَرُ تَوَابِيتِهِمْ مِنْ خَشَبِ ٱلْجُمَّيْزِ وَفِيهِ ٱلْقَوِيُّ ٱلصَّلِبُ وَمِنْهُ مَا صَارَ فِي دَرَجَةِ ٱلرَّمَادِ . وَخَبَّرَنِي قُضَاةُ بُوصِيرَ بِعَجَائِبَ مِنْهَا أَنَّهُمْ وَجَدُوا نَاوُوسًا مِنْ حَجَرٍ فَفَضُّوهُ فَأَلْفَوْا فِيهِ نَاوُوسًا فَفَضُّوهُ فَوَجَدُوا فِيهِ تَابُوتًا فَفَتَحُوهُ فَوَجَدُوا فِيهِ سَحْلِيَّةً وَهِيَ سَامٌّ أَبْرَصَ مُكَفَّنَةً مُحْتَاطًا عَلَيْهَا مَعْنِيًّا بِهَا . وَوَجَدْنَا عِنْدَ بُوصِيرَ أَهْرَامًا كَثِيرَةً مِنْهَا هَرَمٌ قَدِ ٱنْهَدَمَ وَبَقِيَ قَلْبُهُ فَقِسْنَاهُ مِنْ مَبْدَإِ أَسَاسِهِ فَوَجَدْنَاهُ لَا يَتَقَاصَرُ عَنْ هَرَمَيِ ٱلْجِيزَةِ وَجَمِيعُ مَا حَكَيْنَاهُ مِنْ أَحْوَالِ مَدَافِنِهِمْ بِبُوصِيرَ يُوجَدُ نَحْوُهُ وَأَمْثَالُهُ بِعَيْنِ شَمْسٍ وَبِٱلْبَرَابِي وَبِغَيْرِهَا

• •• •

ٱلْفَصْلُ ٱلْخَامِسُ
فِيمَا شُوهِدَ بِهَا مِنْ غَرَائِبِ ٱلْأَبْنِيَةِ وَٱلسُّفُنِ

وَأَمَّا أَبْنِيَتُهُمْ فَفِيهَا هَنْدَسَةٌ بَارِعَةٌ وَتَرْتِيبٌ فِي ٱلْغَايَةِ حَتَّى أَنَّهُمْ قَلَّمَا يَتْرُكُونَ مَكَانًا غُفْلًا خَالِيًا عَنْ مَصْلَحَةٍ وَدُورُهُمْ أَفْيَحُ وَغَالِبُ سُكْنَاهُمْ فِي ٱلْأَعَالِي وَيَجْعَلُونَ مَنَافِذَ مَنَازِلِهِمْ تِلْقَاءَ ٱلشَّمَالِ وَٱلرِّيَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَقَلَّمَا تَجِدُ مَنْزِلًا إِلَّا وَفِيهِ بَاذَاهَنْجٌ وَبَاذَاهَنْجَاتُهُمْ كِبَارٌ وَاسِعَةٌ لِلرِّيحِ عَلَيْهَا تَسَلُّطٌ وَيُحْكِمُونَهَا غَايَةَ ٱلْإِحْكَامِ حَتَّى أَنَّهُ يُغْرَمُ عَلَى عِمَارَةِ ٱلْوَاحِدِ مِنْهَا مِائَةُ دِينَارٍ إِلَى خَمْسِ مِائَةٍ وَإِنْ كَانَتْ بَاذَاهَنْجَاتُ ٱلْمَنَازِلِ ٱلصِّغَارِ يُغْرَمُ عَلَى ٱلْوَاحِدِ مِنْهَا دِينَارٌ . وَأَسْوَاقُهُمْ وَشَوَارِعُهُمْ وَاسِعَةٌ وَأَبْنِيَتُهُمْ شَاهِقَةٌ وَيَبْنُونَ بِٱلْحَجَرِ ٱلنَّحِيتِ وَٱلطُّوبِ ٱلْأَحْمَرِ وَهُوَ ٱلْآجُرُّ وَشَكْلُ طُوبِهِمْ عَلَى نِصْفِ طُوبِ ٱلْعِرَاقِ

وَيُحْكِمُونَ قَنَوَاتِ ٱلْمَرَاحِيضِ حَتَّى أَنَّهُ تَخْرَبُ ٱلدَّارُ وَٱلْقَنَاةُ قَائِمَةٌ وَيَحْفِرُونَ ٱلْكُنُفَ إِلَى ٱلْمَعِينِ فَيَغْبُرُ عَلَيْهَا بُرْهَةٌ مِنَ ٱلدَّهْرِ طَوِيلَةٌ وَلَا يَفْتَقِرُ إِلَى كَسْحٍ

وَأَمَّا سُفُنُهُمْ فَكَثِيرَةُ ٱلْأَصْنَافِ وَٱلْأَشْكَالِ وَأَغْرَبُ مَا رَأَيْتُ فِيهَا مَرْكَبٌ يُسَمُّونَهُ ٱلْعُشَيْرِي شَكْلُهُ شَكْلُ شِبَارَةِ دِجْلَةَ إِلَّا أَنَّهُ أَوْسَعُ مِنْهَا بِكَثِيرٍ وَأَطْوَلُ وَأَحْسَنُ هِنْدَامًا وَشَكْلًا قَدْ سُطِحَ بِأَلْوَاحِ خَشَبٍ ثَخِينَةٍ مُحْكَمَةٍ وَأُخْرِجَ مِنْهَا أَفَارِيزُ كَٱلرَّوَاشِنِ نَحْوَ ذِرَاعَيْنِ وَبُنِيَ فَوْقَ هٰذَا ٱلسَّطْحِ بَيْتٌ مِنْ خَشَبٍ وَعُقِدَ عَلَيْهِ قُبَّةٌ وَفُتِحَ لَهُ طَاقَاتٌ وَرَوَازِنُ بِأَبْوَابٍ إِلَى ٱلْبَحْرِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا ثُمَّ تُعْمَلُ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ خِزَانَةٌ مُفْرَدَةٌ وَمِرْحَاضٌ

ثم يزوق بأصناف الأصباغ ويذهب ويدهن بأحسن دهان . وهذا يتخذ للملوك والرؤساء بحيث يكون الرئيس جالساً في وسادته وخواصه حوله والغلمان والمماليك قيام بالمناطق والسيوف على تلك الرواشن وأطعمتهم وحوائجهم في قعر المركب والملاحون تحت السطح أيضاً وفي باقي المركب يقذفون به لا يعلمون شيئاً من أحوال الركاب ولا الركاب يشتغل خواطرهم بهم بل كل فريق بمعزل عن الآخر ومشغول بما هو بصدده وإذا أراد الرئيس الاختلاء بنفسه عن أصحابه دخل المخدع وإذا أراد قضاء حاجته دخل المرحاض

والملاحون بمصر يقذفون إلى ورائهم فهم في قذفهم يشبهون الحبالين في مشيهم القهقرى ويشبهون في تحريكهم السفن من يجذب ثقلا بين يديه ويمشي به إلى خلفه . وأما ملاحو العراق فهم بمنزلة من يدفع الثقل نحو أمامه ويدسر به فسفنهم تتوجه حيث الملاح متجه . وأما سفن مصر فهي تتحرك إلى ضد الجهة التي إليها الملاح متوجه . وأما أي الحالتين أسهل والبرهان عليها فموضعه العلم الطبيعي وعلم تحريك الأثقال

ٱلْمَقَالَةُ ٱلثَّانِيَةُ

فِي ٱلنِّيلِ وَكَيْفِيَّةِ زِيَادَتِهِ وَإِعْطَاءِ عِلَلِ ذٰلِكَ وَقَوَانِينِهِ

إِعْلَمْ أَنَّ نِيلَ مِصْرَ يَمُدُّ وَقْتَ نُضُوبِ مِيَاهِ ٱلْأَرْضِ وَذٰلِكَ فِي شَمْسِ ٱلسَّرَطَانِ وَٱلْأَسَدِ وَٱلسُّنْبُلَةِ فَيَعْلُو عَلَى ٱلْأَرْضِ وَيُقِيمُ أَيَّامًا فَإِذَا نَزَلَ عَنْهَا حُرِثَتْ وَزُرِعَتْ ثُمَّ يَكْثُرُ ٱلنَّدَا فِي ٱللَّيْلِ جِدًّا وَبِهِ يَتَغَذَّى ٱلزَّرْعُ إِلَى أَنْ يَسْتَحْصِدَ وَنِهَايَةُ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ ٱلْحَاجَةُ مِنَ ٱلزِّيَادَةِ ثَمَانِي عَشْرَةَ ذِرَاعًا فَإِنْ زَادَ عَلَى ذٰلِكَ فَإِنَّهُ يُرْوِي أَمْكِنَةً مُسْتَعْلِيَةً وَكَأَنَّهُ نَافِلَةٌ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّبَرُّعِ وَنِهَايَةُ مَا يَزِيدُ عَلَى جِهَةِ ٱلنُّدْرَةِ أَصَابِعُ مِنْ عِشْرِينَ ذِرَاعًا وَعِنْدَ ذٰلِكَ تَسْتَبْحِرُ أَمْكِنَةٌ يَدُومُ مُكْثُ ٱلْمَاءِ عَلَيْهَا فَتَفُوتُ زِرَاعَتُهَا وَيَبُورُ مِنَ ٱلْبِلَادِ مِمَّا عَادَتُهُ أَنْ يُزْرَعَ نَحْوٌ مِمَّا (نَحْوَ مَا) رَوِيَ مِمَّا عَادَتُهُ أَنْ يَشْرَقَ وَلِنَسَمِ ٱلثَّمَانِيَةِ عَشْرَةَ نِهَايَةُ ٱلضَّرُورِيِّ وَلِنَسَمِ ٱلْعِشْرِينَ نِهَايَةُ ٱلْإِفْرَاطِ وَكُلُّ نِهَايَةٍ بَيْنَ هَاتَيْنِ فَلَهَا ٱبْتِدَاءٌ يُقَابِلُهَا فَٱبْتِدَى ٱلضَّرُورِيِّ سِتَّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَيُسَمَّى مَاءَ ٱلسُّلْطَانِ إِذْ عِنْدَهُ يُسْتَحَقُّ ٱلْخَرَاجُ وَيُرْوَى بِهِ نَحْوُ نِصْفِ ٱلْبِلَادِ وَيُغَلُّ مِنَ ٱلْقُوتِ بِمِقْدَارِ مَا يَمُونُ أَهْلَ ٱلْبِلَادِ سَنَتَهُمْ جَمْعًا مَعَ تَوَسُّعٍ وَيُرْوَى سَائِرُ ٱلْبِلَادِ ٱلْمُعْتَادَةِ بِٱلرِّيِّ بِمَا زَادَ عَلَى سِتَّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا إِلَى ثَمَانِي عَشْرَةَ وَهٰذَا يُغِلُّ مِقْدَارَ مَا يَمِيرُ أَهْلَ ٱلْبِلَادِ سَنَتَيْنِ فَصَاعِدًا. وَأَمَّا مَا نَقَصَ عَنْ سِتَّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا فَيُرْوَى بِهِ مَا هُوَ دُونَ ٱلْكِفَايَةِ وَلَا تَحْصُلُ مِنْهُ مِيرَةُ سَنَتِهِمْ وَيَكُونُ تَعَذُّرُ ٱلْقُوتِ بِمِقْدَارِ نُقْصَانِهِ عَنْ سِتَّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَحِينَئِذٍ يُقَالُ إِنَّ ٱلْبِلَادَ قَدْ شَرِقَتْ

وَٱتَّفَقَ أَنَّ زِيَادَةَ ٱلنِّيلِ بَلَغَتْ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَإِحْدَى وَعِشْرِينَ أَصْبعًا . وَهٰذَا ٱلْمِقْدَارُ نَادِرٌ جِدًّا فَإِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْنَا مُذِ ٱلْهِجْرَةِ إِلَى ٱلْآنَ أَنَّ ٱلنِّيلَ وَقَفَ عَلَى هٰذَا ٱلْحَدِّ قَطُّ إِلَّا فِي سَنَةِ سِتٍّ وَخَمْسِينَ وَثَلَثِمِائَةٍ فَإِنَّهُ وَقَفَ عَلَى دُونِ هٰذَا ٱلْمِقْدَارِ بِأَرْبَعِ أَصَابِعَ . وَأَمَّا وُقُوفُهُ عَلَى ثَلْثَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَأَصَابِعَ فَإِنَّهُ وَقَعَ نَحْوَ سِتِّ مَرَّاتٍ فِي هٰذِهِ ٱلْمُدَّةِ ٱلطَّوِيلَةِ . وَأَمَّا أَرْبَعَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَأَصَابِعَ فَإِنَّهُ وَقَعَ نَحْوَ عِشْرِينَ مَرَّةً . وَأَمَّا خَمْسَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا فَأَكْثَرُ مِنْ ذٰلِكَ كَثِيرًا

وَنَحْنُ نَسُوقُ أَحْوَالَ زِيَادَتِهِ فِي هٰذِهِ ٱلسَّنَةِ أَعْنِي سَنَةَ سِتٍّ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِ مِائَةٍ ثُمَّ نُتْبِعُ ذٰلِكَ بِمَا حَصَلَ عِنْدَنَا مِنْ عِلَلِ ذٰلِكَ وَقَوَانِينِهِ فَنَقُولُ إِنَّ ٱلْعَادَةَ جَارِيَةٌ أَنْ تَبْتَدِئَ ٱلزِّيَادَةُ مِنْ أَبِيبَ وَتَعْظُمَ فِي مِسْرَى وَتَتَنَاهَى فِي تُوتٍ أَوْ بَابَةَ ثُمَّ يَنْحَطُّ . فَدَخَلَ أَبِيبُ فِي هٰذِهِ ٱلسَّنَةِ وَٱبْتَدَأَ ٱلنِّيلُ يَتَحَرَّكُ بِٱلزِّيَادَةِ وَكَانَ قَبْلَ ذٰلِكَ بِنَحْوِ شَهْرَيْنِ قَدْ بَدَتْ فِي مَائِهِ خُضْرَةٌ سِلْقِيَّةٌ ثُمَّ كَثُرَتْ وَظَهَرَتْ فِي رَائِحَتِهِ دَفِرَةٌ كَرِيهَةٌ وَعُفُونَةٌ طُحْلُبِيَّةٌ كَأَنَّهُ عُصَارَةُ ٱلسِّلْقِ إِذَا بَقِيَ أَيَّامًا حَتَّى يَعْفَنَ وَجَعَلْتُ مِنْهُ فِي وِعَاءٍ ضَيِّقِ ٱلرَّأْسِ فَعَلَاهُ سَحَابَةٌ خَضْرَاءُ فَرَفَعْتُهَا بِرِفْقٍ وَتَرَكْتُهَا تَجِفُّ وَإِذَا بِهَا طُحْلُبٌ لَا شَكَّ فِيهِ وَيَبْقَى ٱلْمَاءُ بَعْدَ رَفْعِ هٰذِهِ ٱلسَّحَابَةِ عَنْهُ صَافِيًا لَا خُضْرَةَ فِيهِ إِلَّا أَنَّ طَعْمَهُ وَرِيحَهُ بَاقِيَانِ وَتَجِدُ فِيهِ أَيْضًا أَجْسَامًا صِغَارًا نَبَاتِيَّةً مَبْثُوثَةً كَالْهَبَاءِ لَا تَرْسُبُ . وَصَارَ أَرْبَابُ ٱلْحِمْيَةِ يَتَجَنَّبُونَ شُرْبَهُ وَإِنَّمَا يَشْرَبُونَ مَاءَ ٱلْآبَارِ وَأَغْلَيْتُهُ بِٱلنَّارِ ظَنًّا مِنِّي أَنَّهُ يَصْلُحُ بِذٰلِكَ كَمَا وَصَّى ٱلْأَطِبَّاءُ يَفْعَلُ بِٱلْمِيَاهِ ٱلْمُتَغَيِّرَةِ فَزَادَ طَعْمُهُ وَرِيحُهُ كَرَاهَةً وَسَهَكًا

فَوَجَدْتُ عِلَّةَ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأَجْزَاءَ ٱلنَّبَاتِيَّةَ ٱلَّتِي هِيَ مَبْثُوثَةٌ فِيهِ بِلُطْفِ ٱلطَّبْخِ جَوْهَرَهَا فَيَخْتَلِطُ بِٱلْمَاءِ ٱخْتِلَاطًا أَشَدَّ مِنَ ٱلْأَوَّلِ فَيَظْهَرُ ٱلتَّغَيُّرُ (ٱلتَّغْيِيرُ) فِي رِيحِهِ وَطَعْمِهِ أَكْثَرَ وَيَصِيرُ ذٰلِكَ بِمَنْزِلَةِ ٱلْمَاءِ إِذَا طُبِخَ فِيهِ سِلْقٌ أَوْ فُجْلٌ أَوْ نَحْوُهُ فَإِنَّ ٱلنَّارَ تَمْزِجُ بَيْنَ ٱلْمَاءِ وَلَطِيفِ ٱلنَّبَاتِ. وَأَمَّا ٱلْمَاءُ ٱلَّذِي يَصْلُحُ بِٱلطَّبْخِ وَإِيَّاهُ قَصَدَ ٱلْأَطِبَّاءُ فَهُوَ ٱلَّذِي تَغَيُّرُهُ بِمُخَالَطَةِ أَجْزَاءٍ أَرْضِيَّةٍ فَإِنَّهَا تَنْفَصِلُ عَنْهُ بِٱلطَّبْخِ لِأَنَّ ٱلْمَاءَ حِينَئِذٍ يَلْطُفُ فَتَرْسُبُ فِيهِ

ثُمَّ إِنَّهُ دَامَتْ خُضْرَتُهُ أَيَّامًا مِنْ رَجَبٍ وَشَعْبَانَ وَرَمَضَانَ وَٱضْمَحَلَّتْ فِي شَوَّالٍ وَكَانَ يَصْحَبُ ٱلْخُضْرَةَ دُودٌ وَحَيَوَانَاتٌ أَجَمِيَّةٌ وَهٰذَا ٱلتَّغَيُّرُ فِي ٱلْمَاءِ يَكُونُ بِٱلصَّعِيدِ أَكْثَرَ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى ٱلْمَبْدَإِ وَٱلْمَعْدِنِ وَٱنْتَهَتْ زِيَادَتُهُ فِي ٱلْحَادِي عَشَرَ مِنْ تُوتٍ إِلَى ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَإِحْدَى وَعِشْرِينَ أُصْبُعًا ثُمَّ ٱنْحَطَّ

فَرَأَيْتُ ٱلْغَالِبَ مِنْ حَالِ ٱلْقَاعِ أَنَّهُ إِذَا كَانَ أَقَلَّ مِنَ ٱلْمُعْتَادِ أَنَّ ٱلزِّيَادَةَ فِي تِلْكَ ٱلسَّنَةِ تَكُونُ أَقَلَّ مِنَ ٱلْمُعْتَادِ هٰذَا حُكْمُهُ ٱلْأَكْثَرِيُّ فَإِنْ أَتَتِ ٱلْخُضْرَةُ فِي أَوَّلِ زِيَادَتِهِ وَقُبَيْلَهَا قَوِيَ ٱلظَّنُّ بِضَعْفِ جِرْيَتِهِ فَإِنْ طَالَتْ أَيَّامُ ٱلْخُضْرَةِ وَضَعُفَ مِقْدَارُ ٱلزِّيَادَةِ قَوِيَ ٱلظَّنُّ جِدًّا بِقِلَّتِهِ فَإِنْ دَامَتِ ٱلْخُضْرَةُ فِي أَبِيبَ فَآذِنْ بِقِلَّةِ ٱلْمَدِّ

وَعِلَلُ هٰذَا ظَاهِرَةٌ أَمَّا كَوْنُ قِلَّةِ ٱلْقَاعِ دَلِيلًا عَلَى قِلَّةِ ٱلزِّيَادَةِ فَلِأَنَّ ٱلْمَطَرَ ٱلَّذِي هُوَ عِلَّةُ ٱلزِّيَادَةِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ مِنَ ٱلْكَثْرَةِ مَا يَرُدُّ ٱلْقَاعَ إِلَى ٱلْحَالَةِ ٱلْمُعْتَادَةِ ثُمَّ يَزِيدُ عَلَيْهَا ٱلزِّيَادَةَ ٱلْمُعْتَادَةَ وَهٰذِهِ كَثْرَةٌ لَا تَفِي

بِهَا أَمْطَارٌ كُلَّ سَنَةٍ وَلَا تُوجَدُ كُلَّ وَقْتٍ. مِثَالُهُ أَنَّ ٱلْقَاعَ إِذَا كَانَ ذِرَاعًا مَثَلًا فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ ٱلزِّيَادَةُ خَمْسَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا حَتَّى يَبْلُغَ مَاءَ ٱلسُّلْطَانِ فَإِنْ كَانَ ٱلْقَاعُ سِتَّ أَذْرُعٍ ٱحْتَاجَ مِنَ ٱلزِّيَادَةِ إِلَى عَشْرِ أَذْرُعٍ وَكَوْنُ هٰذَا أَيْسَرُ مِنَ ٱلْأَوَّلِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ جِرْيَةَ ٱلنِّيلِ ٱلْأَصْلِيَّةَ مَادَّتُهَا عُيُونٌ. وَأَمَّا زِيَادَتُهُ فَمَادَّتُهَا أَمْطَارٌ وَنُقْصَانُ ٱلْعُيُونِ دَلِيلٌ عَلَى ٱحْتِرَاقِ ٱلسَّنَةِ وَيُبْسِ ٱلْهَوَاءِ وَقِلَّةِ ٱلْبُخَارِ فَيَقِلُّ ٱلْمَطَرُ لِذٰلِكَ وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلْمَدَّ ٱلزَّائِدَ عَلَى ٱلْقَاعِ أَكْثَرُهُ فِي ٱلْغَالِبِ ثَلٰثَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا فَإِذَا كَانَ ٱلْقَاعُ ذِرَاعًا أَوْ ذِرَاعَيْنِ. ثُمَّ زَادَ عَلَيْهِ أَكْثَرُ ٱلْمَدِّ وَهُوَ ثَلٰثَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا لَمْ يَلْحَقْ مَاءَ ٱلسُّلْطَانِ

وَأَمَّا كَوْنُ ٱلْخُضْرَةِ دَلِيلًا عَلَى قِلَّةِ ٱلزِّيَادَةِ فَلِأَنَّ ٱلنِّيلَ ٱلْمَاضِيَ يُغَادِرُ نَقَائِعَ وَغُدْرَانًا بَعْضُهَا يَنْضُبُ وَبَعْضُهَا يُطَحْلِبُ وَيَعْطَنُ وَيَأْسِنُ فَإِذَا مَرَّتْ بِهَا أَمْطَارٌ ضَعِيفَةٌ ٱخْتَلَطَتْ بِهَا وَصَبَّتْهَا إِلَى ٱلنِّيلِ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنَ ٱلْكَثْرَةِ مَا يَغْلِبُ عَلَى ٱلنَّقَائِعِ فَيُصْلِحُهَا بَلِ ٱلنَّقَائِعُ تَغْلِبُ عَلَى ٱلْأَمْطَارِ ٱلْمُتَّصِلَةِ بِهَا فَتُحِيلُهَا إِلَى ٱلْفَسَادِ وَيَنْحَطُّ مِنْهَا مِقْدَارٌ بَعْدَ مِقْدَارٍ وَيَتَوَاصَلُ إِلَيْنَا وَكُلَّمَا كَانَتِ ٱلْأَمْطَارُ أَضْعَفَ وَأَقَلَّ كَانَتْ أَيَّامُ جِرْيَةِ ٱلْخُضْرَةِ أَطْوَلَ فَإِذَا كَانَتْ أَمْطَارٌ قَوِيَّةٌ غَسَلَتْ تِلْكَ ٱلْمُسْتَنْقَعَاتِ وَغَلَبَتْ عَلَيْهَا وَحَدَرَتْهَا بِسُرْعَةٍ مَغْمُورَةً بِطِينٍ تَجْرِفُهُ بِقُوَّتِهَا فَيَخْفَى مَنْظَرُهَا وَيَتَعَفَّى إِثْرُهَا . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلْأَنْهَارَ ٱلْخَارِجَةَ مِنْ جَبَلِ ٱلْقَمَرِ تَجْتَمِعُ بِأَخَرَةٍ إِلَى بِرْكَةٍ عَظِيمَةٍ ذَاتِ مِسَاحَةٍ فَسِيحَةٍ وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْبِرْكَةِ يَخْرُجُ هٰذَا ٱلنِّيلُ وَلَا شَكَّ أَنَّ هٰذِهِ ٱلْبِرْكَةَ مَاؤُهَا دَائِمٌ فَيُطَحْلِبُ وَلَاسِيَّمَا شُطُوطُهَا وَضَحَاضِحُهَا

فَإِذَا وَقَعَ ٱلْوَسْمِيُّ وَجَرَى إِلَيْهَا سُيُولُهُ أَثَارَتْ مَا فِي قَعْرِهَا وَحَرَّكَتْ مَا كَانَ سَاكِنًا فِيهَا وَٱنْكَسَحَ أَيْضًا مَا فِي ٱلشُّطُوطِ إِلَى ٱلْأَوْسَاطِ وَٱنْسَحَبَ إِلَى ٱلْجِرْيَةِ فَٱسْتَصْحَبَتْهُ

وَأَمَّا كَوْنُ ٱلْخُضْرَةِ فِي أَبِيبَ دَلِيلٌ عَلَى ٱلنُّقْصَانِ فَلِأَنَّ أَبِيبَ مَظِنَّةُ ٱلزِّيَادَةِ وَغَلَبَةِ ٱلْمَاءِ عَلَى هٰذِهِ ٱلْأَوْشَابِ فَإِذَا بَقِيَ عَلَى خُضْرَتِهِ إِبَّانَ زِيَادَتِهِ أَذَنَ بِقِلَّتِهِ. وَهٰذِهِ ٱلْأَجْزَاءُ ٱلنَّبَاتِيَّةُ ٱلَّتِي تَصْحَبُ ٱلْمَاءَ إِنَّمَا هِيَ حُطَامُ ٱلنَّبَاتِ ٱلْمُتَكَوِّنِ فِي ٱلْمَاءِ وَحَوْلَهُ كَٱلْبَرْدِيِّ وَٱلدِّيْسِ وَٱلسُّمَّارِ وَٱلطُّحْلُبِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ فَتَتَعَفَّنُ فِيهِ وَتَتَصَغَّرُ أَجْزَاؤُهَا وَتَنْبَعِثُ مَعَهُ. وَمِمَّا يُوجِبُ ٱنْبِعَاثَهَا أَيْضًا نُقْصَانُ ٱلْمَاءِ مِنْ تِلْكَ ٱلْبِرْكَةِ فَإِنَّ مَاءَهَا إِذَا ٱتَّصَلَتِ ٱلْجِرْيَةُ بِقَعْرِهَا فَٱنْسَحَبَ كَدَرُهَا وَرَاسِبُهَا وَإِذَا كَانَتْ غَمْرًا كَانَتِ ٱلْجِرْيَةُ مِنْ أَعْلَاهَا وَصَفْوِهَا فَٱعْرِفْ ذٰلِكَ وَلِهٰذَا لَا تَأْتِي هٰذِهِ ٱلْخُضْرَةُ إِلَّا فِي ٱلسَّنَةِ ٱلَّتِي يَحْتَرِقُ فِيهَا ٱلنِّيلُ وَكُلَّمَا كَانَ ٱحْتِرَاقُهُ أَشَدَّ كَانَ ظُهُورُ ٱلْخُضْرَةِ أَكْثَرَ. وَفِي ٱلسَّنَةِ ٱلَّتِي يَكُونُ نِيلُهَا غَمْرًا لَا يَحْتَرِقُ وَلَا تُرَى ٱلْخُضْرَةُ لِأَنَّ كَثْرَتَهُ لِكَثْرَةِ مَبْدَأَيْهِ وَٱرْتِفَاعِ جِرْيَتِهِ عَنْ مَقَرِّ كُدُورَتِهِ

انتهى المنقول

من كتاب الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة بارض مصر

لابي اللطيف

مِنْ تُحْفَةِ ٱلنُّظَّارِ
فِي غَرَائِبِ ٱلْأَمْصَارِ وَعَجَائِبِ ٱلْأَسْفَارِ
لِأَبِي عَبْدِ ٱللّٰهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرٰهِيمَ ٱللَّوَاتِي ٱلْمَعْرُوفِ بِٱبْنِ بَطُوطَةَ

وَصَلْنَا فِي أَوَّلِ جُمَادَى ٱلْأُولَى إِلَى مَدِينَةِ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ حَرَسَهَا ٱللّٰهُ وَهِيَ ٱلثَّغْرُ ٱلْمَحْرُوسُ. وَٱلْقُطْرُ ٱلْمَأْنُوسُ. ٱلْعَجِيبَةُ ٱلشَّأْنِ. ٱلْأَصِيلَةُ ٱلْبُنْيَانِ. بِهَا مَا شِئْتَ مِنْ تَحْسِينٍ وَتَحْصِينٍ. وَمَآثِرِ دُنْيَا وَدِينٍ. كَرُمَتْ مَغَانِيهَا. وَلَطُفَتْ مَعَانِيهَا. وَجَمَعَتْ بَيْنَ ٱلضَّخَامَةِ وَٱلْإِحْكَامِ مَبَانِيهَا. فَهِيَ ٱلْفَرِيدَةُ تَجَلَّى سَنَاهَا. وَٱلْخَرِيدَةُ تُجْلَى فِي حُلَاهَا. ٱلزَّاهِيَةُ بِجَمَالِهَا ٱلْمُغْرِبِ. ٱلْجَامِعَةُ لِمُفْتَرِقِ ٱلْمَحَاسِنِ لِتَوَسُّطِهَا بَيْنَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ. فَكُلُّ بَدِيعَةٍ بِهَا ٱجْتِلَاؤُهَا. وَكُلُّ طُرْفَةٍ فَإِلَيْهَا ٱنْتِهَاؤُهَا. وَقَدْ وَصَفَهَا ٱلنَّاسُ فَأَطْنَبُوا. وَصَنَّفُوا فِي عَجَائِبِهَا فَأَغْرَبُوا. وَحَسْبُ ٱلْمُشْرِفِ إِلَى ذٰلِكَ مَا سَطَّرَهُ أَبُو عُبَيْدٍ فِي كِتَابِ ٱلْمَسَالِكِ

ذِكْرُ أَبْوَابِهَا وَمَرْسَاهَا. وَلِمَدِينَةِ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ. بَابُ ٱلسِّدْرَةِ وَإِلَيْهِ يُشْرَعُ طَرِيقُ ٱلْمَغْرِبِ. وَبَابُ رَشِيدٍ وَبَابُ ٱلْبَحْرِ وَٱلْبَابُ ٱلْأَخْضَرُ وَلَيْسَ يُفْتَحُ إِلَّا يَوْمَ ٱلْجُمُعَةِ فَيَخْرُجُ ٱلنَّاسُ مِنْهُ إِلَى زِيَارَةِ ٱلْقُبُورِ. وَلَهَا ٱلْمَرْسَى ٱلْعَظِيمُ ٱلشَّأْنِ وَلَمْ أَرَ فِي مَرَاسِي ٱلدُّنْيَا مِثْلَهُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ مَرْسَى كُولَمَ وَقَالِيقُوطَ بِبِلَادِ ٱلْهِنْدِ. وَمَرْسَى سُودَاقَ بِبِلَادِ ٱلْأَتْرَاكِ وَمَرْسَى ٱلزَّيْتُونِ بِبِلَادِ ٱلصِّينِ وَسَيَقَعُ ذِكْرُهَا

ذِكْرُ ٱلْمَنَارِ. قَصَدْتُ ٱلْمَنَارَ فِي هٰذِهِ ٱلْوِجْهَةِ فَرَأَيْتُ أَحَدَ جَوَانِبِهِ

مُتَهَدِّمًا وَصِفَتُهُ أَنَّهُ بِنَاءٌ مُرَبَّعٌ ذَاهِبٌ فِي ٱلْهَوَاءِ وَبَابُهُ مُرْتَفِعٌ عَلَى ٱلْأَرْضِ. وَإِزَاءَ بَابِهِ بِنَاءٌ بِقَدَرِ ٱرْتِفَاعِهِ وُضِعَتْ بَيْنَهُمَا أَلْوَاحُ خَشَبٍ يُعْبَرُ عَلَيْهَا إِلَى بَابِهِ. فَإِذَا أُزِيلَتْ لَمْ يَكُنْ لَهُ سَبِيلٌ. وَدَاخِلَ ٱلْبَابِ مَوْضِعٌ لِجُلُوسِ حَارِسِ ٱلْمَنَارِ. وَدَاخِلَ ٱلْمَنَارِ بُيُوتٌ كَثِيرَةٌ. وَعَرْضُ ٱلْمَمَرِّ بِدَاخِلِهِ تِسْعَةُ أَشْبَارٍ. وَعَرْضُ ٱلْحَائِطِ عَشَرَةُ أَشْبَارٍ. وَعَرْضُ ٱلْمَنَارِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ مِنْ جِهَاتِهِ ٱلْأَرْبَعِ مِائَةٌ وَأَرْبَعُونَ شِبْرًا. وَهُوَ عَلَى تَلٍّ مُرْتَفِعٍ. وَمَسَافَةُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمَدِينَةِ فَرْسَخٌ وَاحِدٌ فِي بَرٍّ مُسْتَطِيلٍ يُحِيطُ بِهِ ٱلْبَحْرُ مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتٍ إِلَى أَنْ يَتَّصِلَ ٱلْبَحْرُ بِسُورِ ٱلْبَلَدِ فَلَا يُمْكِنُ ٱلتَّوَصُّلُ إِلَى ٱلْمَنَارَةِ فِي ٱلْبَرِّ إِلَّا مِنَ ٱلْمَدِينَةِ. وَفِي هٰذَا ٱلْبَرِّ ٱلْمُتَّصِلِ بِٱلْمَنَارِ مَقْبَرَةُ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ. وَقَصَدْتُ ٱلْمَنَارَ عِنْدَ عَوْدِي إِلَى بِلَادِ ٱلْمَغْرِبِ عَامَ خَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ فَوَجَدْتُهُ قَدِ ٱسْتَوْلَى عَلَيْهِ ٱلْخَرَابُ بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ دُخُولُهُ وَلَا ٱلصُّعُودُ إِلَى بَابِهِ. وَكَانَ ٱلْمَلِكُ ٱلنَّاصِرُ رَحِمَهُ ٱللهُ قَدْ شَرَعَ فِي بِنَاءِ مَنَارٍ مِثْلِهِ بِإِزَائِهِ عَاقَهُ ٱلْمَوْتُ عَنْ إِتْمَامِهِ

ذِكْرُ عَمُودِ ٱلسَّوَارِي. وَمِنْ غَرَائِبِ هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ عَمُودُ ٱلرُّخَامِ ٱلْهَائِلُ ٱلَّذِي بِخَارِجِهَا ٱلْمُسَمَّى عِنْدَهُمْ بِعَمُودِ ٱلسَّوَارِي وَهُوَ مُتَوَسِّطٌ فِي غَابَةِ نَخْلٍ. وَقَدِ ٱمْتَازَ عَنْ شَجَرَاتِهَا سُمُوًّا وَٱرْتِفَاعًا. وَهُوَ قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ مُحْكَمَةُ ٱلنَّحْتِ قَدْ أُقِيمَ عَلَى قَوَاعِدِ حِجَارَةٍ مُرَبَّعَةٍ أَمْثَالِ ٱلدَّكَاكِينِ ٱلْعَظِيمَةِ وَلَا تُعْرَفُ كَيْفِيَّةُ وَضْعِهِ هُنَالِكَ وَلَا يُتَحَقَّقُ مَنْ وَضَعَهُ. قَالَ ٱبْنُ جُزَيٍّ: أَخْبَرَنِي بَعْضُ أَشْيَاخِي ٱلرَّحَّالِينَ أَنَّ أَحَدَ ٱلرُّمَاةِ بِٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ صَعِدَ إِلَى أَعْلَى ذٰلِكَ ٱلْعَمُودِ وَمَعَهُ قَوْسُهُ وَكِنَانَتُهُ وَٱسْتَقَرَّ هُنَالِكَ وَشَاعَ خَبَرُهُ.

فَٱجْتَمَعَ ٱلْجَمْعُ ٱلْغَفِيرُ لِمُشَاهَدَتِهِ وَطَالَ ٱلْعَجَبُ مِنْهُ وَخَفِيَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَجْهُ ٱحْتِيَالِهِ وَأَظُنُّهُ كَانَ خَائِفًا أَوْ طَالِبَ حَاجَةٍ. فَأَنْتَجَ لَهُ فِعْلُهُ ٱلْوُصُولَ إِلَى قَصْدِهِ لِغَرَابَةِ مَا أَتَى بِهِ. وَكَيْفِيَّةُ ٱحْتِيَالِهِ فِي صُعُودِهِ أَنَّهُ رَمَى بِنُشَّابَةٍ قَدْ عَقَدَ بِفُوقِهَا خَيْطًا طَوِيلًا. وَعَقَدَ بِطَرَفِ ٱلْخَيْطِ حَبْلًا وَثِيقًا فَتَجَاوَزَتِ ٱلنُّشَّابَةُ أَعْلَا ٱلْعَمُودِ مُعْتَرِضَةً عَلَيْهِ. وَوَقَعَتْ مِنَ ٱلْجِهَةِ ٱلْمُوَازِيَةِ لِلرَّامِي فَصَارَ ٱلْخَيْطُ مُعْتَرِضًا عَلَى أَعْلَى ٱلْعَمُودِ فَجَذَبَهُ حَتَّى تَوَسَّطَ ٱلْحَبْلُ عَلَى ٱلْعَمُودِ مَكَانَ ٱلْخَيْطِ فَأَوْثَقَهُ مِنْ إِحْدَى ٱلْجِهَتَيْنِ فِي ٱلْأَرْضِ وَتَعَلَّقَ بِهِ صَاعِدًا مِنَ ٱلْجِهَةِ ٱلْأُخْرَى وَٱسْتَقَرَّ بِأَعْلَاهُ وَجَذَبَ وَٱسْتَصْحَبَ مَنِ ٱحْتَمَلَهُ. فَلَمْ يَهْتَدِ ٱلنَّاسُ لِحِيلَتِهِ وَعَجِبُوا مِنْ شَأْنِهِ

ثُمَّ سَافَرْتُ فِي أَرْضِ رَمْلَةٍ إِلَى مَدِينَةِ دِمْيَاطَ. وَهِيَ مَدِينَةٌ فَسِيحَةُ ٱلْأَقْطَارِ. مُتَنَوِّعَةُ ٱلثِّمَارِ. عَجِيبَةُ ٱلتَّرْتِيبِ. أَخَذَتْ مِنْ كُلِّ حُسْنٍ بِنَصِيبٍ. وَٱلنَّاسُ يَضْبِطُونَ ٱسْمَهَا بِإِعْجَامِ ٱلذَّالِ. وَكَذٰلِكَ ضَبَطَهُ ٱلْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ عَلِيٍّ ٱلرَّشَاطِيُّ. وَكَانَ شَرَفُ ٱلدِّينِ ٱلْإِمَامُ ٱلْعَلَّامَةُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ ٱلْمُؤْمِنِ ٱبْنُ خَلَفٍ ٱلدِّمْيَاطِيُّ إِمَامُ ٱلْمُحَدِّثِينَ يَضْبِطُهَا بِإِهْمَالِ ٱلدَّالِ وَيَتْبَعُ ذٰلِكَ بِأَنْ يَقُولَ خِلَافَ ٱلرَّشَاطِيِّ وَغَيْرِهِ وَهُوَ أَعْرَفُ بِضَبْطِ ٱسْمِ بَلَدِهِ. وَمَدِينَةُ دِمْيَاطَ عَلَى شَاطِئِ ٱلنِّيلِ وَأَهْلُ ٱلدُّورِ ٱلْمُوَالِيَةِ لَهُ يَسْتَقُونَ مِنْهُ ٱلْمَاءَ بِٱلدِّلَاءِ. وَكَثِيرٌ مِنْ دُورِهَا بِهَا دَرَكَاتٌ يُنْزَلُ فِيهَا إِلَى ٱلنِّيلِ. وَشَجَرُ ٱلْمَوْزِ بِهَا كَثِيرٌ يُحْمَلُ ثَمَرُهُ إِلَى مِصْرَ فِي ٱلْمَرَاكِبِ وَغَنَمُهَا سَائِمَةٌ هَمَلًا بِٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ. وَلِهٰذَا يُقَالُ فِي دِمْيَاطَ سُورُهَا حَلْوَا وَكِلَابُهَا غَنَمٌ. وَإِذَا دَخَلَهَا أَحَدٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ سَبِيلٌ إِلَى ٱلْخُرُوجِ

عَنْهَا إِلَّا بِطَابَعِ ٱلْوَالِي. فَمَنْ كَانَ مِنَ ٱلنَّاسِ مُعْتَبَرًا طُبِعَ لَهُ فِي قِطْعَةِ كَاغِدٍ يَسْتَظْهِرُ بِهِ لِحُرَّاسِ بَابِهَا وَغَيْرُهُمْ يُطْبَعُ عَلَى ذِرَاعِهِ فَيَسْتَظْهِرُ بِهِ. وَٱلطَّيْرُ ٱلْبَحْرِيُّ بِهٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ كَثِيرٌ مُتَنَاهِي ٱلسِّمَنِ وَبِهَا ٱلْأَلْبَانُ ٱلْجَامُوسِيَّةُ ٱلَّتِي لَا مَثِيلَ لَهَا فِي عُذُوبَةِ ٱلطَّعْمِ وَطِيبِ ٱلْمَذَاقِ وَبِهَا ٱلْحُوتُ ٱلْبُورِيُّ يُحْمَلُ مِنْهَا إِلَى ٱلشَّامِ وَبِلَادِ ٱلرُّومِ وَمِصْرَ. وَبِخَارِجِهَا جَزِيرَةٌ بَيْنَ ٱلْبَحْرِ وَٱلنِّيلِ تُسَمَّى ٱلْبَرْزَخَ بِهَا مَسْجِدٌ وَزَاوِيَةٌ لَقِيتُ بِهَا شَيْخَهَا ٱلْمَعْرُوفَ بِٱبْنِ قُفْلٍ. وَحَضَرْتُ عِنْدَهُ لَيْلَةَ جُمُعَةٍ وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلْفُقَرَاءِ ٱلْفُضَلَاءِ ٱلْمُتَعَبِّدِينَ ٱلْأَخْيَارِ قَطَعُوا لَيْلَتَهُمْ صَلَوٰةً وَقِرَاءَةً وَذِكْرًا. وَدِمْيَاطُ هٰذِهِ حَدِيثَةُ ٱلْبِنَاءِ وَٱلْمَدِينَةُ ٱلْقَدِيمَةُ هِيَ ٱلَّتِي خَرَّبَهَا ٱلْأَفْرَنْجُ عَلَى عَهْدِ ٱلْمَلِكِ صَالِحٍ وَبِهَا زَاوِيَةُ ٱلشَّيْخِ جَمَالِ ٱلدِّينِ ٱلسَّاوِيِّ قُدْوَةِ ٱلطَّائِفَةِ ٱلْمَعْرُوفَةِ بِٱلْقَرَنْدَرِيَّةِ وَهُمُ ٱلَّذِينَ يَحْلِقُونَ لِحَاهُمْ وَحَوَاجِبَهُمْ وَيَسْكُنُ ٱلزَّاوِيَةَ فِي هٰذَا ٱلْعَهْدِ ٱلشَّيْخُ فَتْحٌ ٱلتَّكْرُورِيُّ

ثُمَّ سَافَرْتُ إِلَى مَدِينَةِ كُورَ وَهِيَ مَدِينَةٌ عَلَى سَاحِلِ ٱلنِّيلِ وَٱلْكَافُ ٱلَّذِي فِي ٱسْمِهَا مَضْمُومٌ وَنَزَلْتُ بِخَارِجِهَا وَلَحِقَنِي هُنَالِكَ فَارِسٌ وَجَّهَهُ إِلَيَّ ٱلْأَمِيرُ ٱلْمُحْسِنِيُّ فَقَالَ لِي إِنَّ ٱلْأَمِيرَ سَأَلَ عَنْكَ وَعَرَفَ بِسِيرَتِكَ فَبَعَثَ إِلَيْكَ بِهٰذِهِ ٱلنَّفَقَةِ وَدَفَعَ إِلَيَّ جُمْلَةَ دَرَاهِمَ جَزَاهُ ٱللّٰهُ خَيْرًا

ثُمَّ سَافَرْتُ إِلَى مَدِينَةِ أَشْمُونِ ٱلرُّمَّانِ وَضَبْطُ ٱسْمِهَا بِفَتْحِ ٱلْهَمْزَةِ وَإِسْكَانِ ٱلشِّينِ ٱلْمُعْجَمَةِ وَنُسِبَتْ إِلَى ٱلرُّمَّانِ لِكَثْرَتِهِ بِهَا وَمِنْهَا يُحْمَلُ إِلَى مِصْرَ. وَهِيَ مَدِينَةٌ عَتِيقَةٌ كَبِيرَةٌ عَلَى خَلِيجٍ مِنْ خُلُجِ ٱلنِّيلِ وَبِهَا قَنْطَرَةُ خَشَبٍ تَرْسُو ٱلْمَرَاكِبُ عِنْدَهَا فَإِذَا كَانَ ٱلْعَصْرُ رُفِعَتْ تِلْكَ ٱلْخَشَبُ وَجَازَتِ

ٱلْمَرَاكِبُ صَاعِدَةً وَمُنْحَدِرَةً وَبِهٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ قَاضِي ٱلْقُضَاةِ وَوَالِي ٱلْوُلَاةِ. ثُمَّ سَافَرْتُ عَنْهَا إِلَى مَدِينَةِ سَمَنُّودَ وَهِيَ عَلَى شَاطِئِ ٱلنِّيلِ كَثِيرَةُ ٱلْمَرَاكِبِ حَسَنَةُ ٱلْأَسْوَاقِ وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلْمَحَلَّةِ ٱلْكَبِيرَةِ ثَلَاثَةُ فَرَاسِخَ وَضَبْطُ ٱسْمِهَا بِفَتْحِ ٱلسِّينِ ٱلْمُهْمَلِ وَٱلْمِيمِ وَتَشْدِيدِ ٱلنُّونِ وَضَمِّهَا وَوَاوٍ وَدَالٍ مُهْمَلٍ

مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ رَكِبْتُ ٱلنِّيلَ مُصَعِّدًا إِلَى مِصْرَ مَا بَيْنَ مَدَائِنَ وَقُرًى مُنْتَظِمَةٍ مُتَّصِلٍ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَلَا يَفْتَقِرُ رَاكِبُ ٱلنِّيلِ إِلَى ٱسْتِصْحَابِ ٱلزَّادِ لِأَنَّهُ مَهْمَا أَرَادَ ٱلنُّزُولَ بِٱلشَّاطِئِ نَزَلَ لِلْوُضُوءِ وَٱلصَّلٰوةِ وَشِرَاءِ ٱلزَّادِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ. وَٱلْأَسْوَاقُ مُتَّصِلَةٌ مِنْ مَدِينَةِ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ إِلَى مِصْرَ وَمِنْ مِصْرَ إِلَى مَدِينَةِ أَسْوَانَ مِنَ ٱلصَّعِيدِ. ثُمَّ وَصَلْتُ إِلَى مِصْرَ هِيَ أُمُّ ٱلْبِلَادِ وَقَرَارَةُ فِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ. ذَاتُ ٱلْأَقَالِيمِ ٱلْعَرِيضَةِ. وَٱلْبِلَادِ ٱلْأَرِيضَةِ. ٱلْمُتَنَاهِيَةُ فِي كَثْرَةِ ٱلْعِمَارَةِ. ٱلْمُتَبَاهِيَةُ بِٱلْحُسْنِ وَٱلنَّضَارَةِ. مَجْمَعُ ٱلْوَارِدِ وَٱلصَّادِرِ. وَمَحَطُّ رَحْلِ ٱلضَّعِيفِ وَٱلْقَادِرِ. وَبِهَا مَا شِئْتَ مِنْ عَالِمٍ وَجَاهِلٍ. وَجَادٍّ وَهَازِلٍ. وَحَلِيمٍ وَسَفِيهٍ. وَوَضِيعٍ وَنَبِيهٍ. وَشَرِيفٍ وَمَشْرُوفٍ. وَمُنْكَرٍ وَمَعْرُوفٍ. تَمُوجُ مَوْجَ ٱلْبَحْرِ بِسُكَّانِهَا. وَتَكَادُ أَنْ تَضِيقَ بِهِمْ عَلَى سَعَةِ مَكَانِهَا وَإِمْكَانِهَا. شَبَابُهَا يَجِدُّ عَلَى طُولِ ٱلْعَهْدِ. وَكَوْكَبُ تَعْدِيلِهَا لَا يَبْرَحُ عَنْ مَنْزِلِ ٱلسَّعْدِ. قَهَرَتْ قَاهِرَتُهَا ٱلْأُمَمَ. وَتَمَلَّكَتْ مُلُوكُهَا نَوَاحِيَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْعَجَمِ. وَلَهَا خُصُوصِيَّةُ ٱلنِّيلِ ٱلَّتِي جَلَّ خَطَرُهَا. وَأَغْنَاهَا عَنْ أَنْ يَسْتَمِدَّ ٱلْقَطْرَ قُطْرُهَا. وَأَرْضُهَا مَسِيرَةُ شَهْرٍ لِمُجِدِّ ٱلسَّيْرِ. وَفِيهَا يَقُولُ نَاصِرُ ٱلدِّينِ بْنُ نَاهِضٍ

شَاطِئُ مِصْرَ جَنَّـةٌ   مَا مِثْلُهَا مِنْ بَلَدِ

لَاسِيَّمَا مُذْ زُخْرِفَتْ ... بِنِيلِهَا ٱلْمُطَّرِدِ
وَلِلرِّيَاحِ فَوْقَهُ ... سَوَابِغٌ مِنْ زَرَدِ
مَسْرُودَةٌ مَا مَسَّهَا ... دَاوُدُهَا بِمِبْرَدِ
سَائِلَةٌ هَوَاؤُهَا ... بُرْعِدُ عَارِي ٱلْجَسَدِ
وَٱلْفُلْكُ كَٱلْأَفْلَاكِ ... بَيْنَ حَادِرٍ وَمُصْعَدِ

رَجَعَ وَيُقَالُ إِنَّ بِمِصْرَ مِنَ ٱلسَّقَّائِينَ عَلَى ٱلْجِمَالِ ٱثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ سَقَّاءٍ وَإِنَّ بِهَا ثَلَاثِينَ أَلْفَ مُكَارٍ. وَإِنَّ بِنِيلِهَا مِنَ ٱلْمَرَاكِبِ سِتَّةً وَثَلَاثِينَ أَلْفًا لِلسُّلْطَانِ وَٱلرَّعِيَّةِ تَمُرُّ صَاعِدَةً إِلَى ٱلصَّعِيدِ وَمُنْحَدِرَةً إِلَى ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَدِمْيَاطَ بِأَنْوَاعِ ٱلْخَيْرَاتِ وَٱلْمَرَافِقِ. وَعَلَى ضَفَّةِ ٱلنِّيلِ مِمَّا يُوَاجِهُ مِصْرَ ٱلْمَوْضِعُ ٱلْمَعْرُوفُ بِٱلرَّوْضَةِ وَهُوَ مَكَانُ ٱلنُّزْهَةِ وَٱلتَّفَرُّجِ. وَبِهِ ٱلْبَسَاتِينُ ٱلْكَثِيرَةُ ٱلْحَسَنَةُ. وَأَهْلُ مِصْرَ ذَوُو طَرَبٍ وَسُرُورٍ وَلَهْوٍ شَاهَدْتُ مَرَّةً فُرْجَةً بِسَبَبِ بُرْءِ ٱلْمَلِكِ ٱلنَّاصِرِ مِنْ كَسْرٍ أَصَابَ يَدَهُ فَزَيَّنَ كُلُّ أَهْلِ سُوقٍ سُوقَهُمْ وَعَلَّقُوا بِحَوَانِيتِهِمِ ٱلْحُلَلَ وَٱلْحُلِيَّ وَثِيَابَ ٱلْحَرِيرِ وَبَقُوا عَلَى ذٰلِكَ أَيَّامًا

ذِكْرُ مَسْجِدِ عَمْرِو بْنِ ٱلْعَاصِ وَٱلْمَدَارِسِ وَٱلْمَارِسْتَانِ وَٱلزَّوَايَا

وَمَسْجِدُ عَمْرِو بْنِ ٱلْعَاصِ مَسْجِدٌ شَرِيفٌ كَبِيرُ ٱلْقَدْرِ. شَهِيرُ ٱلذِّكْرِ تُقَامُ فِيهِ ٱلْجُمُعَةُ. وَٱلطَّرِيقُ يَعْتَرِضُهُ مِنْ شَرْقٍ إِلَى غَرْبٍ. وَبِشَرْقِهِ ٱلزَّاوِيَةُ حَيْثُ كَانَ يُدَرِّسُ ٱلْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ ٱلشَّافِعِيُّ. وَأَمَّا ٱلْمَدَارِسُ بِمِصْرَ فَلَا يُحِيطُ أَحَدٌ بِحَصْرِهَا لِكَثْرَتِهَا. وَأَمَّا ٱلْمَارِسْتَانُ ٱلَّذِي بَيْنَ ٱلْقَصْرَيْنِ عِنْدَ تُرْبَةِ ٱلْمَلِكِ ٱلْمَنْصُورِ قَلَاوُونَ فَيَعْجِزُ ٱلْوَاصِفُ عَنْ مَحَاسِنِهِ. وَقَدْ أُعِدَّ فِيهِ مِنَ ٱلْمَرَافِقِ وَٱلْأَدْوِيَةِ مَا لَا يُحْصَرُ وَيُذْكَرُ أَنَّ مُجْبَاهُ أَلْفُ دِينَارٍ كُلَّ

يَوْمٍ . وَأَمَّا الزَّوَايَا فَكَثِيرَةٌ وَهُمْ يُسَمُّونَهَا الْخَوَانِقَ وَاحِدَتُهَا خَانِقَةٌ وَالْأُمَرَاءُ بِمِصْرَ يَتَنَافَسُونَ فِي بِنَاءِ الزَّوَايَا . وَكُلُّ زَاوِيَةٍ بِمِصْرَ مُعَيَّنَةٌ لِطَائِفَةٍ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَأَكْثَرُهُمُ الْأَعَاجِمُ وَهُمْ أَهْلُ أَدَبٍ وَمَعْرِفَةٍ بِطَرِيقَةِ التَّصَوُّفِ

وَلِكُلِّ زَاوِيَةٍ شَيْخٌ وَحَارِسٌ وَتَرْتِيبُ أُمُورِهِمْ عَجِيبٌ وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ فِي الطَّعَامِ أَنَّهُ يَأْتِي خَدِيمُ الزَّاوِيَةِ إِلَى الْفُقَرَاءِ صَبَاحًا فَيُعَيِّنُ لَهُ كُلُّ وَاحِدٍ مَا يَشْتَهِيهِ مِنَ الطَّعَامِ . فَإِذَا اجْتَمَعُوا لِلْأَكْلِ جَعَلُوا لِكُلِّ إِنْسَانٍ خُبْزَهُ وَمَرَقَهُ فِي إِنَاءٍ عَلَى حِدَةٍ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ . وَطَعَامُهُمْ مَرَّتَانِ فِي الْيَوْمِ وَلَهُمْ كِسْوَةُ الشِّتَاءِ وَكِسْوَةُ الصَّيْفِ وَمُرَتَّبٌ شَهْرِيٌّ مِنْ ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا لِلْوَاحِدِ فِي الشَّهْرِ إِلَى عِشْرِينَ وَلَهُمُ الْحَلَاوَةُ مِنَ السُّكَّرِ فِي كُلِّ لَيْلَةِ جُمُعَةٍ وَالصَّابُونُ لِغَسْلِ أَثْوَابِهِمْ وَالْأُجْرَةُ لِدُخُولِ الْحَمَّامِ وَالزَّيْتُ لِلِاسْتِصْبَاحِ وَهُمْ أَعْزَابٌ . وَلِلْمُتَزَوِّجِينَ زَوَايَا عَلَى حِدَةٍ وَمِنَ الْمُشْتَرَطِ عَلَيْهِمْ حُضُورُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَالْمَبِيتُ بِالزَّاوِيَةِ وَاجْتِمَاعُهُمْ بِقُبَّةٍ دَاخِلَ الزَّاوِيَةِ. وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ أَنْ يَجْلِسَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى سَجَّادَةٍ مُخْتَصَّةٍ بِهِ وَإِذَا صَلَّوْا صَلَوٰةَ الصُّبْحِ قَرَأُوا سُورَةَ الْفَتْحِ وَسُورَةَ الْمُلْكِ وَسُورَةَ عم . ثُمَّ يُؤْتَى بِنُسَخٍ مِنَ الْقُرْآنِ مُجَزَّأَةٍ فَيَأْخُذُ كُلُّ فَقِيرٍ جُزْءًا وَيَخْتِمُونَ الْقُرْآنَ وَيَذْكُرُونَ . ثُمَّ يَقْرَأُ الْقُرَّاءُ عَلَى عَادَةِ أَهْلِ الْمَشْرِقِ . وَمِثْلَ ذٰلِكَ يَفْعَلُونَ بَعْدَ صَلَوٰةِ الْعَصْرِ . وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ مَعَ الْقَادِمِ أَنَّهُ يَأْتِي بَابَ الزَّاوِيَةِ فَيَقِفُ بِهِ مَشْدُودَ الْوَسَطِ وَعَلَى كَاهِلِهِ سَجَّادَةٌ وَبِيُمْنَاهُ الْعُكَّازُ وَبِيُسْرَاهُ الْإِبْرِيقُ فَيُعْلِمُ الْبَوَّابُ خَدِيمَ الزَّاوِيَةِ بِمَكَانِهِ فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ وَيَسْأَلُهُ مِنْ أَيِّ الْبِلَادِ أَتَى وَأَيَّ الزَّوَايَا نَزَلَ فِي طَرِيقِهِ وَمَنْ شَيْخُهُ . فَإِذَا عَرَفَ صِحَّةَ قَوْلِهِ أَدْخَلَهُ الزَّاوِيَةَ وَفَرَشَ

لَهُ سَجَّادَتَهُ فِي مَوْضِعٍ يَلِيقُ بِهِ وَأَرَاهُ مَوْضِعَ ٱلطَّهَارَةِ فَيُجَدِّدُ ٱلْوُضُوءَ وَيَأْتِي إِلَى سَجَّادَتِهِ فَيَحُلُّ وَسَطَهُ وَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ وَيُصَافِحُ ٱلشَّيْخَ وَمَنْ حَضَرَ وَيَقْعُدُ مَعَهُمْ . وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا كَانَ يَوْمُ ٱلْجُمُعَةِ أَخَذَ ٱلْخَادِمُ جَمِيعَ سَجَّادِهِمْ فَيَذْهَبُ بِهَا إِلَى ٱلْمَسْجِدِ وَيَفْرُشُهَا لَهُمْ هُنَالِكَ وَيَخْرُجُونَ مُجْتَمِعِينَ وَمَعَهُمْ شَيْخُهُمْ فَيَأْتُونَ ٱلْمَسْجِدَ وَيُصَلِّي كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى سَجَّادَتِهِ فَإِذَا فَرَغُوا مِنَ ٱلصَّلٰوةِ قَرَأُوا ٱلْقُرْآنَ عَلَى عَادَتِهِمْ ثُمَّ يَنْصَرِفُونَ مُجْتَمِعِينَ إِلَى ٱلزَّاوِيَةِ وَمَعَهُمْ شَيْخُهُمْ.

ثُمَّ كَانَ سَفَرِي مِنْ مِصْرَ عَلَى طَرِيقِ ٱلصَّعِيدِ بِرَسْمِ ٱلْحِجَازِ ٱلشَّرِيفِ فَبِتُّ لَيْلَةَ خُرُوجِي بِٱلرِّبَاطِ ٱلَّذِي بَنَاهُ ٱلصَّاحِبُ تَاجُ ٱلدِّينِ بْنُ حِنَّا بِدَيْرِ ٱلطِّينِ وَهُوَ رِبَاطٌ عَظِيمٌ بَنَاهُ عَلَى مَفَاخِرَ عَظِيمَةٍ وَآثَارٍ كَرِيمَةٍ. ثُمَّ خَرَجْتُ مِنَ ٱلرِّبَاطِ ٱلْمَذْكُورِ وَمَرَرْتُ بِمُنْيَةِ ٱلْقَائِدِ وَهِيَ بَلْدَةٌ صَغِيرَةٌ عَلَى سَاحِلِ ٱلنِّيلِ . ثُمَّ سِرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ بُوشَ وَضَبْطُهَا بِضَمِّ ٱلْبَاءِ ٱلْمُوَحَّدَةِ وَآخِرُهَا شِينٌ مُعْجَمَةٌ وَهٰذِهِ ٱلْمَدِينَةُ أَكْثَرُ بِلَادِ مِصْرَ كَتَّانًا وَمِنْهَا يُجْلَبُ إِلَى سَائِرِ ٱلدِّيَارِ ٱلْمِصْرِيَّةِ وَإِلَى أَفْرِيقِيَّةَ . ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا فَوَصَلْتُ إِلَى مَدِينَةِ دَلَاصَ وَضَبْطُ ٱسْمِهَا بِفَتْحِ ٱلدَّالِ ٱلْمُهْمَلِ وَآخِرُهَا صَادٌ مُهْمَلٌ وَهٰذِهِ ٱلْمَدِينَةُ كَثِيرَةُ ٱلْكَتَّانِ أَيْضًا بِمِثْلِ ٱلَّذِي ذَكَرْنَا قَبْلَهَا وَيُحْمَلُ أَيْضًا مِنْهَا إِلَى دِيَارِ مِصْرَ وَأَفْرِيقِيَّةَ . ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ بِبَا ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ ٱلْبَهْنَسَةِ وَهِيَ مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ وَبَسَاتِينُهَا كَثِيرَةٌ وَتُصْنَعُ بِهٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ ثِيَابُ ٱلصُّوفِ ٱلْجَيِّدَةُ

ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ مُنْيَةِ ٱبْنِ خَصِيبٍ وَهِيَ مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ

ٱلسَّاحَةِ. مُتَّسِعَةُ ٱلْمَسَاحَةِ. مَبْنِيَّةٌ عَلَى شَاطِئِ ٱلنِّيلِ. وَحَقِيقٌ حَقِيقٌ لَهَا عَلَى بِلَادِ ٱلصَّعِيدِ ٱلتَّفْضِيلُ. بِهَا ٱلْمَدَارِسُ وَٱلْمَشَاهِدُ. وَٱلزَّوَايَا وَٱلْمَسَاجِدُ. وَكَانَتْ فِي ٱلْقَدِيمِ مُنْيَةً لِخَصِيبٍ عَامِلِ مِصْرَ

حِكَايَةُ خَصِيبٍ

يُذْكَرُ أَنَّ أَحَدَ ٱلْخُلَفَاءِ مِنْ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمْ غَضِبَ عَلَى أَهْلِ مِصْرَ فَآلَى أَنْ يُوَلِّيَ عَلَيْهِمْ أَحْقَرَ عَبِيدِهِ وَأَصْغَرَهُمْ شَأْنًا قَصْدًا لِإِرْذَالِهِمْ وَٱلتَّنْكِيلِ. وَكَانَ خَصِيبٌ أَحْقَرَهُمْ إِذْ كَانَ يَتَوَلَّى تَسْخِينَ ٱلْحَمَّامِ. فَخَلَعَ عَلَيْهِ وَأَمَّرَهُ عَلَى مِصْرَ وَظَنَّهُ أَنَّهُ يَسِيرُ فِيهِمْ سِيرَةَ سُوءٍ وَيَقْصِدُهُمْ بِٱلْإِذَاءِ حَسْبَمَا هُوَ ٱلْمَعْهُودُ مِمَّنْ وَلِيَ عَنْ غَيْرِ عَهْدٍ بِٱلْعِزِّ. فَلَمَّا ٱسْتَقَرَّ خَصِيبٌ بِمِصْرَ سَارَ فِي أَهْلِهَا أَحْسَنَ سِيرَةٍ وَشُهِرَ بِٱلْكَرَمِ وَٱلْإِيثَارِ فَكَانَ أَقَارِبُ ٱلْخُلَفَاءِ وَسِوَاهُمْ يَقْصِدُونَهُ فَيُجْزِلُ ٱلْعَطَاءَ لَهُمْ وَيَعُودُونَ إِلَى بَغْدَادَ شَاكِرِينَ لِمَا أَوْلَاهُمْ. وَإِنَّ ٱلْخَلِيفَةَ ٱفْتَقَدَ بَعْضَ ٱلْعَبَّاسِيِّينَ وَغَابَ عَنْهُ مُدَّةً. ثُمَّ أَتَاهُ فَسَأَلَهُ عَنْ مَغِيبِهِ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَصَدَ خَصِيبًا وَذَكَرَ لَهُ مَا أَعْطَاهُ خَصِيبٌ وَكَانَ عَطَاءً جَزِيلًا. فَغَضِبَ ٱلْخَلِيفَةُ وَأَمَرَ بِسَمْلِ عَيْنَيْ خَصِيبٍ وَإِخْرَاجِهِ مِنْ مِصْرَ إِلَى بَغْدَادَ وَأَنْ يُطْرَحَ فِي أَسْوَاقِهَا. فَلَمَّا وَرَدَ ٱلْأَمْرُ بِٱلْقَبْضِ عَلَيْهِ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ دُخُولِ مَنْزِلِهِ. وَكَانَتْ بِيَدِهِ يَاقُوتَةٌ عَظِيمَةُ ٱلشَّأْنِ فَخَبَّأَهَا عِنْدَهُ وَخَاطَهَا فِي ثَوْبٍ لَهُ لَيْلًا وَسُمِلَتْ عَيْنَاهُ وَطُرِحَ فِي أَسْوَاقِ بَغْدَادَ. فَمَرَّ بِهِ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ فَقَالَ لَهُ يَا خَصِيبُ إِنِّي كُنْتُ قَصَدْتُ مِنْ بَغْدَادَ إِلَى مِصْرَ مَادِحًا لَكَ بِقَصِيدَةٍ فَوَافَقْتُ ٱنْصِرَافَكَ عَنْهَا وَأُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَهَا. فَقَالَ كَيْفَ بِسَمَاعِهَا وَأَنَا عَلَى مَا

تَرَاهُ: فَقَالَ إِنَّمَا قَصْدِي سَمَاعُكَ لَهَا. وَأَمَّا ٱلْعَطَاءُ فَقَدْ أَعْطَيْتَ ٱلنَّاسَ وَأَجْزَلْتَ جَزَاكَ ٱللهُ خَيْرًا: قَالَ فَٱفْعَلْ فَأَنْشَدَهُ

أَنْتَ ٱلْخَصِيبُ وَهٰذِهِ مِصْرُ   فَتَدَفَّقَا فَكِلَاكُمَا بَحْرُ

فَلَمَّا أَتَى عَلَى آخِرِهَا قَالَ لَهُ ٱفْتُقْ هٰذِهِ ٱلْخِيَاطَةَ فَفَعَلَ ذٰلِكَ فَقَالَ لَهُ خُذِ ٱلْيَاقُوتَةَ: فَأَبَى فَأَقْسَمَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَهَا فَأَخَذَهَا وَذَهَبَ بِهَا إِلَى سُوقِ ٱلْجَوْهَرِيِّينَ. فَلَمَّا عَرَضَهَا عَلَيْهِمْ قَالُوا لَهُ إِنَّ هٰذِهِ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِلْخَلِيفَةِ. فَرَفَعُوا أَمْرَهَا إِلَى ٱلْخَلِيفَةِ فَأَمَرَ ٱلْخَلِيفَةُ بِإِحْضَارِ ٱلشَّاعِرِ وَٱسْتَفْهَمَهُ عَنْ شَأْنِ ٱلْيَاقُوتَةِ فَأَخْبَرَهُ بِخَبَرِهَا. فَتَأَسَّفَ عَلَى مَا فَعَلَهُ بِخَصِيبٍ وَأَمَرَ بِمُثُولِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَجْزَلَ لَهُ ٱلْعَطَاءَ وَحَكَّمَهُ فِيمَا يُرِيدُ فَرَغِبَ أَنْ يُعْطِيَهُ هٰذِهِ ٱلْمُنْيَةَ فَفَعَلَ ذٰلِكَ وَسَكَنَهَا خَصِيبٌ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ وَأَوْرَثَهَا عَقِبَهُ إِلَى أَنِ ٱنْقَرَضُوا

فَوَصَلْتُ إِلَى مَدِينَةِ بِلْبِيْسَ وَضَبْطُ ٱسْمِهَا بِفَتْحِ ٱلْمُوَحَّدَةِ ٱلْأُولَى وَفَتْحِ ٱلثَّانِيَةِ ثُمَّ يَاءُ آخِرِ ٱلْحُرُوفِ مُسَكَّنَةٍ وَسِينٍ مُهْمَلٍ وَهِيَ مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ ذَاتُ بَسَاتِينَ كَثِيرَةٍ وَلَمْ أَلْقَ بِهَا مَنْ يَجِبُ ذِكْرُهُ. ثُمَّ وَصَلْتُ إِلَى ٱلصَّالِحِيَّةِ وَمِنْهَا دَخَلْنَا ٱلرِّمَالَ وَنَزَلْنَا مَنَازِلَهَا مِثْلَ ٱلسَّوَادَةِ وَٱلْوَرَّادَةِ وَٱلْمُطَيْلِبِ وَٱلْعَرِيشِ وَٱلْخَرُّوبَةِ وَبِكُلِّ مَنْزِلٍ مِنْهَا فُنْدُقٌ وَهُمْ يُسَمُّونَهُ ٱلْخَانَ يَنْزِلُهُ ٱلْمُسَافِرُونَ بِدَوَابِّهِمْ. وَبِخَارِجِ كُلِّ خَانٍ سَانِيَةٌ لِلسَّبِيلِ وَحَانُوتٌ يَشْتَرِي مِنْهَا ٱلْمُسَافِرُ مَا يَحْتَاجُهُ لِنَفْسِهِ وَدَابَّتِهِ. وَمِنْ مَنَازِلِهَا قَطْيَا ٱلْمَشْهُورَةُ وَهِيَ بِفَتْحِ ٱلْقَافِ وَسُكُونِ ٱلطَّاءِ وَيَاءِ آخِرِ ٱلْحُرُوفِ مَفْتُوحَةٍ وَأَلِفٍ وَٱلنَّاسُ يُبَدِّلُونَ أَلِفَهَا هَاءَ تَأْنِيثٍ. وَبِهَا تُؤْخَذُ ٱلزَّكَاةُ مِنَ ٱلتُّجَّارِ

وَتُفَتَّشُ أَمْتِعَتُهُمْ وَيُبْحَثُ عَمَّا لَدَيْهِمْ أَشَدَّ ٱلْبَحْثِ. وَفِيهَا ٱلدَّوَاوِينُ وَٱلْعُمَّالُ وَٱلْكُتَّابُ وَٱلشُّهُودُ. وَمَجْبَاهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ أَلْفُ دِينَارٍ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنَ ٱلشَّامِ إِلَّا بِبَرَاءَةٍ مِنْ مِصْرَ وَلَا إِلَى مِصْرَ إِلَّا بِبَرَاءَةٍ مِنَ ٱلشَّامِ ٱحْتِيَاطًا عَلَى أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ وَتَوَقِّيًا مِنَ ٱلْجَوَاسِيسِ ٱلْعِرَاقِيِّينَ. وَطَرِيقُهَا فِي ضَمَانِ ٱلْعَرَبِ قَدْ وُكِّلُوا بِحِفْظِهِ. فَإِذَا كَانَ ٱللَّيْلُ مَسَحُوا عَلَى ٱلرَّمْلِ لَا يَبْقَى بِهِ أَثَرٌ. ثُمَّ يَأْتِي ٱلْأَمِيرُ صَبَاحًا فَيَنْظُرُ إِلَى ٱلرَّمْلِ فَإِنْ وَجَدَ بِهِ أَثَرًا طَلَبَ ٱلْعَرَبَ بِإِحْضَارِ مُؤَثِّرِهِ فَيَذْهَبُونَ فِي طَلَبِهِ فَلَا يَفُوتُهُمْ فَيَأْتُونَ بِهِ ٱلْأَمِيرَ فَيُعَاقِبُهُ بِمَا يَشَاءُ

وَكَانَ بِهَا فِي عَهْدِ وُصُولِي إِلَيْهَا عِزُّ ٱلدِّينِ أُسْتَاذُ ٱلدَّارِ أَقْمَارِيٌّ مِنْ خِيَارِ ٱلْأُمَرَاءِ أَضَافَنِي وَأَكْرَمَنِي وَأَبَاحَ ٱلْجَوَازَ لِمَنْ كَانَ مَعِي. وَبَيْنَ يَدَيْهِ عَبْدُ ٱلْجَلِيلِ ٱلْمَغْرِبِيُّ ٱلْوَقَّافُ وَهُوَ يَعْرِفُ ٱلْمَغَارِبَةَ وَبِلَادَهُمْ فَيَسْأَلُ مَنْ وَرَدَ مِنْهُمْ مِنْ أَيِّ ٱلْبِلَادِ هُوَ لِئَلَّا يَلْبِسَ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ ٱلْمَغَارِبَةَ لَا يُعْتَرَضُونَ فِي جَوَازِهِمْ عَلَى قَطْيَا

ثُمَّ سِرْنَا حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى مَدِينَةِ غَزَّةَ وَهِيَ أَوَّلُ بِلَادِ ٱلشَّامِ مِمَّا يَلِي مِصْرَ مُتَّسِعَةُ ٱلْأَقْطَارِ كَثِيرَةُ ٱلْعِمَارَةِ حَسَنَةُ ٱلْأَسْوَاقِ بِهَا ٱلْمَسَاجِدُ ٱلْعَدِيدَةُ وَلَا سُورَ عَلَيْهَا. وَكَانَ بِهَا مَسْجِدٌ جَامِعٌ حَسَنٌ. وَٱلْمَسْجِدُ ٱلَّذِي تُقَامُ ٱلْآنَ بِهِ ٱلْجُمْعَةُ فِيهَا بَنَاهُ ٱلْأَمِيرُ ٱلْمُعَظَّمُ ٱلْجَاوِلِيُّ وَهُوَ أَنِيقُ ٱلْبِنَاءِ مُحْكَمُ ٱلصَّنْعَةِ وَمِنْبَرُهُ مِنَ ٱلرُّخَامِ ٱلْأَبْيَضِ وَقَاضِي غَزَّةَ بَدْرُ ٱلدِّينِ ٱلسَّلْخَتِيُّ ٱلْحَوْرَانِيُّ وَمُدَرِّسُهَا عَلَمُ ٱلدِّينِ بْنُ سَالِمٍ. وَبَنُو سَالِمٍ كُبَرَاءُ هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ وَمِنْهُمْ شَمْسُ ٱلدِّينِ قَاضِي ٱلْقُدْسِ

ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْ غَزَّةَ إِلَى مَدِينَةِ ٱلْخَلِيلِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا وَهِيَ مَدِينَةٌ صَغِيرَةُ ٱلسَّاحَةِ كَبِيرَةُ ٱلْمِقْدَارِ. مُشْرِقَةُ ٱلْأَنْوَارِ حَسَنَةُ ٱلْمَنْظَرِ. عَجِيبَةُ ٱلْمَخْبَرِ فِي بَطْنِ وَادٍ. وَمَسْجِدُهَا أَنِيقُ ٱلصَّنْعَةِ مُحْكَمُ ٱلْعَمَلِ. بَدِيعُ ٱلْحُسْنِ. سَامِي ٱلِٱرْتِفَاعِ مَبْنِيٌّ بِٱلصَّخْرِ ٱلْمَنْحُوتِ فِي أَحَدِ أَرْكَانِهِ صَخْرَةٌ أَحَدُ أَقْطَارِهَا سَبْعَةٌ وَثَلَاثُونَ شِبْرًا. وَيُقَالُ إِنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أَمَرَ ٱلْجِنَّ بِبِنَائِهِ. وَفِي دَاخِلِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْغَارُ ٱلْمُكَرَّمُ ٱلْمُقَدَّسُ فِيهِ قَبْرُ إِبْرٰهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِمْ وَيُقَابِلُهَا قُبُورٌ ثَلَاثَةٌ هِيَ قُبُورُ أَزْوَاجِهِمْ وَعَنْ يَمِينِ ٱلْمِنْبَرِ بِلِصْقِ جِدَارِ ٱلْقِبْلَةِ مَوْضِعٌ يُهْبَطُ مِنْهُ عَلَى دَرَجٍ رُخَامٍ مُحْكَمَةٍ إِلَى مَسْلَكٍ ضَيِّقٍ يُفْضِي إِلَى سَاحَةٍ مَفْرُوشَةٍ بِٱلرُّخَامِ فِيهَا صُوَرُ ٱلْقُبُورِ ٱلثَّلَاثَةِ وَيُقَالُ إِنَّهَا مُحَاذِيَةٌ لَهَا. وَكَانَ هُنَالِكَ مَسْلَكٌ إِلَى ٱلْغَارِ ٱلْمُبَارَكِ وَهُوَ ٱلْآنَ مَسْدُودٌ وَقَدْ نَزَلْتُ بِهٰذَا ٱلْمَوْضِعِ مَرَّاتٍ

ثُمَّ سَافَرْتُ إِلَى مَدِينَةِ ٱلرَّمْلَةِ وَهِيَ فَلَسْطِينُ مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ. كَثِيرَةُ ٱلْخَيْرَاتِ. حَسَنَةُ ٱلْأَسْوَاقِ. وَبِهَا ٱلْجَامِعُ ٱلْأَبْيَضُ وَيُقَالُ إِنَّ فِي قِبْلَتِهِ ثَلَاثَمِائَةٍ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ مَدْفُونِينَ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ. وَفِيهَا مِنْ كِبَارِ ٱلْفُقَهَاءِ مَجْدُ ٱلدِّينِ ٱلنَّابُلُسِيُّ. ثُمَّ خَرَجْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ نَابُلُسَ وَهِيَ مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ كَثِيرَةُ ٱلْأَشْجَارِ. مُطَّرِدَةُ ٱلْأَنْهَارِ. مِنْ أَكْثَرِ بِلَادِ ٱلشَّامِ زَيْتُونًا. وَمِنْهَا يُحْمَلُ ٱلزَّيْتُ إِلَى مِصْرَ وَدِمَشْقَ. وَبِهَا تُصْنَعُ حَلْوَاءُ ٱلْخَرُّوبِ وَتُجْلَبُ إِلَى دِمَشْقَ وَغَيْرِهَا. وَكَيْفِيَّةُ عَمَلِهَا أَنْ يُطْبَخَ ٱلْخَرُّوبُ ثُمَّ يُعْصَرَ وَيُؤْخَذَ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ مِنَ ٱلرُّبِّ فَتُصْنَعُ مِنْهُ ٱلْحَلْوَاءُ وَيُجْلَبُ ذٰلِكَ ٱلرُّبُّ أَيْضًا إِلَى مِصْرَ وَٱلشَّامِ. وَبِهَا ٱلْبِطِّيخُ ٱلْمَنْسُوبُ إِلَيْهَا وَهُوَ طَيِّبٌ عَجِيبٌ. وَمَسْجِدُهَا

ٱلْجَامِعُ فِي نِهَايَةٍ مِنَ ٱلْإِتْقَانِ وَٱلْحُسْنِ. وَفِي وَسَطِهِ بِرْكَةُ مَاءٍ عَذْبٍ. ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ عَجْلُونَ وَهِيَ بِفَتْحِ ٱلْعَيْنِ ٱلْمُهْمَلَةِ. وَهِيَ مَدِينَةٌ حَسَنَةٌ لَهَا أَسْوَاقٌ كَثِيرَةٌ. وَقَلْعَةٌ خَطِيرَةٌ وَيَشُقُّهَا نَهْرٌ مَاؤُهُ عَذْبٌ. ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا بِقَصْدِ ٱللَّاذِقِيَّةِ فَمَرَرْتُ بِٱلْغَوْرِ وَهُوَ وَادٍ بَيْنَ تِلَالٍ بِهِ قَبْرُ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ ٱلْجَرَّاحِ أَمِينِ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ زُرْنَاهُ وَعَلَيْهِ زَاوِيَةٌ فِيهَا ٱلطَّعَامُ لِأَبْنَاءِ ٱلسَّبِيلِ وَبِتْنَا هُنَالِكَ لَيْلَةً ثُمَّ وَصَلْنَا إِلَى ٱلْقُصَيْرِ وَبِهِ قَبْرُ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُ. تَبَرَّكْتُ أَيْضاً بِزِيَارَتِهِ

ثُمَّ سَافَرْتُ عَلَى ٱلسَّاحِلِ فَوَصَلْتُ إِلَى مَدِينَةِ عَكَّةَ وَهِيَ خَرَابٌ. وَكَانَتْ عَكَّةُ قَاعِدَةَ بِلَادِ ٱلْإِفْرَنْجِ بِٱلشَّامِ وَمَرْسَى سُفُنِهِمْ وَتُشْبِهُ قُسْطَنْطِينِيَّةَ ٱلْعُظْمَى وَبِشَرْقِهَا عَيْنُ مَاءٍ تُعْرَفُ بِعَيْنِ ٱلْبَقَرِ. يُقَالُ إِنَّ ٱللّٰهَ تَعَالَى أَخْرَجَ مِنْهَا ٱلْبَقَرَ لِآدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَيُنْزَلُ إِلَيْهَا فِي دَرَجٍ. وَكَانَ عَلَيْهَا مَسْجِدٌ بَقِيَ مِنْهُ مِحْرَابُهُ وَبِهٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ قَبْرُ صَالِحٍ عم. ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ صُورَ وَهِيَ خَرَابٌ وَبِخَارِجِهَا قَرْيَةٌ مَعْمُورَةٌ وَأَكْثَرُ أَهْلِهَا شِيعِيُّونَ وَلَقَدْ نَزَلْتُ بِهَا مَرَّةً عَلَى بَعْضِ ٱلْمِيَاهِ أُرِيدُ ٱلْوُضُوءَ. فَأَتَى بَعْضُ أَهْلِ تِلْكَ ٱلْقَرْيَةِ لِيَتَوَضَّأَ فَبَدَأَ بِغَسْلِ رِجْلَيْهِ ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ وَلَمْ يَتَمَضْمَضْ وَلَا ٱسْتَنْشَقَ. ثُمَّ مَسَحَ بَعْضَ رَأْسِهِ فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ فِي فِعْلِهِ فَقَالَ لِي إِنَّ ٱلْبِنَاءَ إِنَّمَا يَكُونُ ٱبْتِدَاؤُهُ مِنَ ٱلْأَسَاسِ. وَمَدِينَةُ صُورَ هِيَ ٱلَّتِي يُضْرَبُ بِهَا ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْحَصَانَةِ وَٱلْمَنَعَةِ لِأَنَّ ٱلْبَحْرَ مُحِيطٌ بِهَا مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتِهَا وَلَهَا بَابَانِ أَحَدُهُمَا لِلْبَرِّ وَٱلثَّانِي لِلْبَحْرِ. وَلِبَابِهَا ٱلَّذِي يَشْرَعُ لِلْبَرِّ أَرْبَعَةُ فُصْلَانٍ كُلُّهَا فِي سَتَائِرَ مُحِيطَةٍ بِٱلْبَابِ. وَأَمَّا ٱلْبَابُ ٱلَّذِي لِلْبَحْرِ فَهُوَ بَيْنَ بُرْجَيْنِ عَظِيمَيْنِ

وَبِنَاؤُهَا لَيْسَ فِي بِلَادِ ٱلدُّنْيَا أَعْجَبَ وَلَا أَغْرَبَ شَأْنًا مِنْهُ لِأَنَّ ٱلْبَحْرَ مُحِيطٌ بِهَا مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتِهَا . وَعَلَى ٱلْجِهَةِ ٱلرَّابِعَةِ سُورٌ تَدْخُلُ ٱلسُّفُنُ تَحْتَ ٱلسُّورِ وَتَرْسُو هُنَالِكَ . وَكَانَ فِيمَا تَقَدَّمَ بَيْنَ ٱلْبُرْجَيْنِ سِلْسِلَةُ حَدِيدٍ مُعْتَرِضَةٌ لَا سَبِيلَ إِلَى ٱلدَّاخِلِ هُنَالِكَ وَلَا إِلَى ٱلْخَارِجِ إِلَّا بَعْدَ حَطِّهَا وَكَانَ عَلَيْهَا ٱلْحُرَّاسُ وَٱلْأُمَنَاءُ فَلَا يَدْخُلُ دَاخِلٌ وَلَا يَخْرُجُ خَارِجٌ إِلَّا عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ . وَكَانَ لِعَكَّةَ أَيْضًا مِينَا مِثْلُهَا وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَحْمِلُ إِلَّا ٱلسُّفُنَ ٱلصِّغَارَ

ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ صَيْدَا وَهِيَ عَلَى سَاحِلِ ٱلْبَحْرِ حَسَنَةٌ كَثِيرَةُ ٱلْفَوَاكِهِ يُحْمَلُ مِنْهَا ٱلتِّينُ وَٱلزَّبِيبُ وَٱلزَّيْتُ إِلَى بِلَادِ مِصْرَ . نَزَلْتُ عِنْدَ قَاضِيهَا كَمَالِ ٱلدِّينِ ٱلْأَشْمُونِيِّ ٱلْمِصْرِيِّ وَهُوَ حَسَنُ ٱلْأَخْلَاقِ كَرِيمُ ٱلنَّفْسِ . ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ طَبَرِيَّةَ . وَكَانَتْ فِيمَا مَضَى مَدِينَةً كَبِيرَةً ضَخْمَةً وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا رُسُومٌ تُنْبِئُ عَلَى ضَخَامَتِهَا وَعِظَمِ شَأْنِهَا . وَبِهَا ٱلْحَمَّامَاتُ ٱلْعَجِيبَةُ لَهَا بَيْتَانِ أَحَدُهُمَا لِلرِّجَالِ وَٱلثَّانِي لِلنِّسَاءِ وَمَاؤُهَا شَدِيدُ ٱلْحَرَارَةِ وَلَهَا ٱلْبُحَيْرَةُ ٱلشَّهِيرَةُ طُولُهَا نَحْوُ سِتَّةِ فَرَاسِخَ وَعَرْضُهَا أَزْيَدُ مِنْ ثَلَاثَةِ فَرَاسِخَ . وَبِطَبَرِيَّةَ مَسْجِدٌ يُعْرَفُ بِمَسْجِدِ ٱلْأَنْبِيَاءِ فِيهِ قَبْرُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَبِنْتِهِ زَوْجَةِ مُوسَى ٱلْكَلِيمِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَقَبْرُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَقَبْرُ يَهُوذَا وَقَبْرُ رُوبِيلَ صَلَوَاتُ ٱللّٰهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ . وَقَصَدْنَا مِنْهَا زِيَارَةَ ٱلْجُبِّ ٱلَّذِي أُلْقِيَ فِيهِ يُوسُفُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ . وَهُوَ فِي صَحْنِ مَسْجِدٍ صَغِيرٍ وَعَلَيْهِ زَاوِيَةٌ وَٱلْجُبُّ كَبِيرٌ عَمِيقٌ شَرِبْنَا مِنْ مَائِهِ ٱلْمُجْتَمِعِ مِنْ مَاءِ ٱلْمَطَرِ وَأَخْبَرَنَا قَيِّمُهُ أَنَّ ٱلْمَاءَ يَنْبَعُ مِنْهُ أَيْضًا

ثُمَّ سِرْنَا إِلَى مَدِينَةِ بَيْرُوتَ وَهِيَ صَغِيرَةٌ . حَسَنَةُ ٱلْأَسْوَاقِ . وَجَامِعُهَا بَدِيعٌ

ٱلْحُسْنِ وَتُجْلَبُ مِنْهَا إِلَى دِيَارِ مِصْرَ ٱلْفَوَاكِهُ وَٱلْحَدِيدُ. وَقَصَدْنَا مِنْهَا زِيَارَةَ قَبْرِ أَبِي يَعْقُوبَ يُوسُفَ ٱلَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُ مِنْ مُلُوكِ ٱلْمَغْرِبِ وَهُوَ بِمَوْضِعٍ يُعْرَفُ بِكَرَكِ نُوحٍ مِنْ بِقَاعِ ٱلْعَزِيزِ. وَعَلَيْهِ زَاوِيَةٌ يُطْعَمُ بِهَا ٱلْوَارِدُ وَٱلصَّادِرُ وَيُقَالُ إِنَّ ٱلسُّلْطَانَ صَلَاحَ ٱلدِّينِ وَقَفَ عَلَيْهَا ٱلْأَوْقَافَ. وَقِيلَ ٱلسُّلْطَانُ نُورُ ٱلدِّينِ وَكَانَ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ وَيُذْكَرُ أَنَّهُ كَانَ يَنْسِجُ ٱلْحُصُرَ وَيَقْتَاتُ بِثَمَنِهَا

حِكَايَةُ أَبِي يَعْقُوبَ يُوسُفَ ٱلْمَذْكُورِ

يُحْكَى أَنَّهُ دَخَلَ مَدِينَةَ دِمَشْقَ فَمَرِضَ بِهَا مَرَضًا شَدِيدًا وَأَقَامَ مَطْرُوحًا بِٱلْأَسْوَاقِ. فَلَمَّا بَرَأَ مِنْ مَرَضِهِ خَرَجَ إِلَى ظَاهِرِ دِمَشْقَ لِيَلْتَمِسَ بُسْتَانًا يَكُونُ حَارِسًا لَهُ فَٱسْتُؤْجِرَ لِحِرَاسَةِ بُسْتَانٍ لِلْمَلِكِ نُورِ ٱلدِّينِ. وَأَقَامَ فِي حِرَاسَتِهِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ. فَلَمَّا كَانَ فِي أَوَانِ ٱلْفَاكِهَةِ أَتَى ٱلسُّلْطَانُ إِلَى ذٰلِكَ ٱلْبُسْتَانِ وَأَمَرَ وَكِيلُ ٱلْبُسْتَانِ أَبَا يَعْقُوبَ أَنْ يَأْتِيَ بِرُمَّانٍ يَأْكُلُ مِنْهُ ٱلسُّلْطَانُ. فَأَتَاهُ بِرُمَّانٍ فَوَجَدَهُ حَامِضًا. فَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَ بِغَيْرِهِ فَفَعَلَ ذٰلِكَ فَوَجَدَهُ أَيْضًا حَامِضًا. فَقَالَ لَهُ ٱلْوَكِيلُ: أَتَكُونُ فِي حِرَاسَةِ ٱلْبُسْتَانِ مُنْذُ سِتَّةِ أَشْهُرٍ وَلَا تَعْرِفُ ٱلْحُلْوَ مِنَ ٱلْحَامِضِ: فَقَالَ إِنَّمَا ٱسْتَأْجَرْتَنِي عَلَى ٱلْحِرَاسَةِ لَا عَلَى ٱلْأَكْلِ. فَأَتَى ٱلْوَكِيلُ إِلَى ٱلْمَلِكِ فَأَعْلَمَهُ بِذٰلِكَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ ٱلْمَلِكُ وَكَانَ قَدْ رَأَى فِي ٱلْمَنَامِ أَنَّهُ يَجْتَمِعُ مَعَ أَبِي يَعْقُوبَ وَتَحْصُلُ لَهُ مِنْهُ فَائِدَةٌ فَتَفَرَّسَ أَنَّهُ هُوَ فَقَالَ لَهُ. أَنْتَ أَبُو يَعْقُوبَ قَالَ نَعَمْ. فَقَامَ إِلَيْهِ وَعَانَقَهُ وَأَجْلَسَهُ إِلَى جَانِبِهِ. ثُمَّ ٱحْتَمَلَهُ إِلَى مَجْلِسِهِ. فَأَضَافَهُ بِضِيَافَةٍ مِنَ ٱلْحَلَالِ ٱلْمُكْتَسَبِ بِكَدِّ يَمِينِهِ وَأَقَامَ عِنْدَهُ أَيَّامًا. ثُمَّ خَرَجَ مِنْ دِمَشْقَ

فَارًّا بِنَفْسِهِ فِي أَوَانِ ٱلْبَرْدِ ٱلشَّدِيدِ. فَأَتَى قَرْيَةً مِنْ قُرَاهَا وَكَانَ بِهَا رَجُلٌ مِنَ ٱلضُّعَفَاءِ فَعَرَضَ عَلَيْهِ ٱلنُّزُولَ عِنْدَهُ فَفَعَلَ وَصَنَعَ لَهُ مَرَقَةً وَذَبَحَ لَهُ دَجَاجَةً فَأَتَاهُ بِهَا وَبِخُبْزِ شَعِيرٍ. فَأَكَلَ مِنْ ذٰلِكَ وَدَعَا لِلرَّجُلِ وَكَانَ عِنْدَهُ جُمْلَةُ أَوْلَادٍ مِنْهُمْ بِنْتٌ قَدْ آنَ بِنَاءُ زَوْجِهَا عَلَيْهَا. وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ فِي تِلْكَ ٱلْبِلَادِ أَنَّ ٱلْبِنْتَ يُجَهِّزُهَا أَبُوهَا وَيَكُونُ مُعْظَمُ ٱلْجِهَازِ أَوَانِيَ ٱلنُّحَاسِ وَبِهِ يَتَفَاخَرُونَ وَبِهِ يَتَبَايَعُونَ. فَقَالَ أَبُو يَعْقُوبَ لِلرَّجُلِ: هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ مِنَ ٱلنُّحَاسِ قَالَ نَعَمْ: قَدِ ٱشْتَرَيْتُ مِنْهُ لِتَجْهِيزِ هٰذِهِ ٱلْبِنْتِ: قَالَ ٱئْتِنِي بِهِ: فَأَتَاهُ بِهِ: فَقَالَ لَهُ ٱسْتَعِرْ مِنْ جِيرَانِكَ مَا أَمْكَنَكَ مِنْهُ: فَفَعَلَ وَأَحْضَرَ ذٰلِكَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَوْقَدَ عَلَيْهِ ٱلنِّيرَانَ وَأَخْرَجَ صُرَّةً كَانَتْ عِنْدَهُ فِيهَا ٱلْإِكْسِيرُ فَطَرَحَ مِنْهُ عَلَى ٱلنُّحَاسِ فَعَادَ كُلُّهُ ذَهَبًا وَتَرَكَهُ فِي بَيْتٍ مُقْفَلٍ وَكَتَبَ كِتَابًا إِلَى نُورِ ٱلدِّينِ مَلِكِ دِمَشْقَ يُعْلِمُهُ بِذٰلِكَ وَيُنَبِّهُهُ عَلَى بِنَاءِ مَارِسْتَانٍ لِلْمَرْضَى مِنَ ٱلْغُرَبَاءِ وَيُوقِفُ عَلَيْهِ ٱلْأَوْقَافَ وَيَبْنِي ٱلزَّوَايَا بِٱلطُّرُقِ وَيُرْضِي أَصْحَابَ ٱلنُّحَاسِ وَيُعْطِي صَاحِبَ ٱلْبَيْتِ كِفَايَتَهُ: وَقَالَ لَهُ فِي آخِرِ ٱلْكِتَابِ وَإِنْ كَانَ إِبْرٰهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ قَدْ خَرَجَ عَنْ مُلْكِ خُرَاسَانَ فَأَنَا قَدْ خَرَجْتُ مِنْ مُلْكِ ٱلْمَغْرِبِ وَعَنْ هٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ وَٱلسَّلَامُ. وَفَرَّ مِنْ حِينِهِ وَذَهَبَ صَاحِبُ ٱلْبَيْتِ بِٱلْكِتَابِ إِلَى ٱلْمَلِكِ نُورِ ٱلدِّينِ. فَوَصَلَ ٱلْمَلِكُ إِلَى تِلْكَ ٱلْقَرْيَةِ وَٱحْتَمَلَ ٱلذَّهَبَ بَعْدَ أَنْ أَرْضَى أَصْحَابَ ٱلنُّحَاسِ وَصَاحِبَ ٱلْبَيْتِ وَطَلَبَ أَبَا يَعْقُوبَ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ أَثَرًا وَلَا وَقَعَ لَهُ عَلَى خَبَرٍ. فَعَادَ إِلَى دِمَشْقَ وَبَنَا ٱلْمَارِسْتَانَ ٱلْمَعْرُوفَ بِٱسْمِهِ ٱلَّذِي لَيْسَ فِي ٱلْمَعْمُورِ مِثْلُهُ

ثُمَّ وَصَلْتُ إِلَى مَدِينَةِ طَرَابُلُسَ وَهِيَ إِحْدَى قَوَاعِدِ ٱلشَّامِ. وَبُلْدَانِهَا

ٱلضِّخَامِ. تَخْتَرِقُهَا ٱلْأَنْهَارُ. وَتَحُفُّهَا ٱلْبَسَاتِينُ وَٱلْأَشْجَارُ. وَتَكْتَنِفُهَا ٱلْبَحْرُ بِمَرَافِقِهِ ٱلْعَمِيمَةِ. وَٱلْبَرُّ بِخَيْرَاتِهِ ٱلْمُقِيمَةِ. وَلَهَا ٱلْأَسْوَاقُ ٱلْعَجِيبَةُ. وَٱلْمَسَارِحُ ٱلْخَصِيبَةُ. وَٱلْبَحْرُ عَلَى مِيلَيْنِ مِنْهَا وَهِيَ حَدِيثَةُ ٱلْبِنَاءِ. وَأَمَّا طَرَابُلُسُ ٱلْقَدِيمَةُ فَكَانَتْ عَلَى ضَفَّةِ ٱلْبَحْرِ وَتَمَلَّكَهَا ٱلرُّومُ زَمَانًا. فَلَمَّا ٱسْتَرْجَعَهَا ٱلْمَلِكُ ٱلظَّاهِرُ خَرِبَتْ وَٱتُّخِذَتْ هٰذِهِ ٱلْحَدِيثَةُ. وَبِهٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ نَحْوُ أَرْبَعِينَ مِنْ أُمَرَاءِ ٱلْأَتْرَاكِ وَأَمِيرُهَا طَيْلَانُ ٱلْحَاجِبُ ٱلْمَعْرُوفُ بِمَلِكِ ٱلْأُمَرَاءِ وَمَسْكَنُهُ مِنْهَا بِٱلدَّارِ ٱلْمَعْرُوفَةِ بِدَارِ ٱلسَّعَادَةِ. وَمِنْ عَوَائِدِهِ أَنْ يَرْكَبَ فِي كُلِّ يَوْمِ ٱثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ وَيَرْكَبَ مَعَهُ ٱلْأُمَرَاءُ وَٱلْعَسَاكِرُ وَيَخْرُجَ إِلَى ظَاهِرِ ٱلْمَدِينَةِ فَإِذَا عَادَ إِلَيْهَا وَقَارَبَ ٱلْوُصُولَ إِلَى مَنْزِلِهِ تَرَجَّلَ ٱلْأُمَرَاءُ وَنَزَلُوا عَنْ دَوَابِّهِمْ وَمَشَوْا بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّى يَدْخُلَ مَنْزِلَهُ وَيَنْصَرِفُونَ. وَتُضْرَبُ ٱلطَّبْلَخَانَةُ عِنْدَ دَارِ كُلِّ أَمِيرٍ مِنْهُمْ بَعْدَ صَلٰوةِ ٱلْمَغْرِبِ مِنْ كُلِّ يَوْمٍ وَتُوقَدُ ٱلْمَشَاعِلُ. وَمِمَّنْ كَانَ بِهَا مِنَ ٱلْأَعْلَامِ كَاتِبُ ٱلسِّرِّ بَهَاءُ ٱلدِّينِ بْنُ غَانِمٍ أَحَدُ ٱلْفُضَلَاءِ ٱلْحُبَسَاءِ مَعْرُوفٌ بِٱلسَّخَاءِ وَٱلْكَرَمِ. وَأَخُوهُ حُسَامُ ٱلدِّينِ هُوَ شَيْخُ ٱلْقُدْسِ ٱلشَّرِيفِ وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ وَأَخُوهُمَا عَلَاءُ ٱلدِّينِ كَاتِبُ ٱلسِّرِّ بِدِمَشْقَ وَمِنْهُمْ وَكِيلُ بَيْتِ ٱلْمَالِ قِوَامُ ٱلدِّينِ بْنُ مَكِينٍ مِنْ أَكَابِرِ ٱلرِّجَالِ. وَمِنْهُمْ قَاضِي قُضَاتِهَا شَمْسُ ٱلدِّينِ ٱبْنُ ٱلنَّقِيبِ مِنْ أَعْلَامِ عُلَمَاءِ ٱلشَّامِ. وَبِهٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ حَمَّامَاتٌ حِسَانٌ مِنْهَا حَمَّامُ ٱلْقَاضِي ٱلْقِرْمِيِّ وَحَمَّامُ سَنْدَمُورَ. وَكَانَ سَنْدَمُورُ أَمِيرَ هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ وَيُذْكَرُ عَنْهُ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ فِي ٱلشِّدَّةِ عَلَى أَهْلِ ٱلْجِنَايَاتِ مِنْهَا أَنَّ ٱمْرَأَةً شَكَتْ إِلَيْهِ بِأَنَّ أَحَدَ مَمَالِيكِهِ ٱلْخَوَاصِ تَعَدَّى عَلَيْهَا فِي لَبَنٍ كَانَتْ تَبِيعُهُ فَشَرِبَهُ وَلَمْ تَكُنْ لَهَا بَيِّنَةٌ. فَأَمَرَ بِهِ فَوُسِّطَ فَخَرَجَ ٱللَّبَنُ مِنْ مُصْرَانِهِ.

وَقَدِ اتَّفَقَ مِثْلُ هٰذِهِ الْحِكَايَةِ لِلْعَتْرِيسِ أَحَدِ أُمَرَاءِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ أَيَّامَ إِمَارَتِهِ عَلَى عَيْذَابَ وَاتَّفَقَ مِثْلُهَا لِلْمَلِكِ كَبَكَ سُلْطَانِ تُرْكِسْتَانَ

ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْ طَرَابُلُسَ إِلَى حِصْنِ الْأَكْرَادِ وَهُوَ بَلَدٌ صَغِيرٌ كَثِيرُ الْأَشْجَارِ وَالْأَنْهَارِ بِأَعْلَى تَلٍّ وَبِهِ زَاوِيَةٌ تُعْرَفُ بِزَاوِيَةِ الْإِبْرَاهِيمِيِّ نِسْبَةً إِلَى بَعْضِ كُبَرَاءِ الْأُمَرَاءِ وَنَزَلْتُ عِنْدَ قَاضِيهَا وَلَا أُحَقِّقُ الْآنَ اسْمَهُ. ثُمَّ سَافَرْتُ إِلَى مَدِينَةِ حِمْصَ وَهِيَ مَدِينَةٌ مَلِيحَةٌ. أَرْجَاؤُهَا مُونِقَةٌ. وَأَشْجَارُهَا مُورِقَةٌ. وَأَسْوَاقُهَا فَسِيحَةُ الشَّوَارِعِ. وَجَامِعُهَا مُتَمَيِّزٌ بِالْحُسْنِ الْجَامِعِ. وَفِي وَسَطِهِ بِرْكَةُ مَاءٍ. وَأَهْلُ حِمْصَ عَرَبٌ لَهُمْ فَضْلٌ وَكَرَمٌ وَبِخَارِجِ هٰذِهِ الْمَدِينَةِ قَبْرُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ. وَعَلَيْهِ زَاوِيَةٌ وَمَسْجِدٌ وَعَلَى الْقَبْرِ كِسْوَةٌ سَوْدَاءُ. وَقَاضِي هٰذِهِ الْمَدِينَةِ جَمَالُ الدِّينِ الشَّرِيشِيُّ مِنْ أَجْمَلِ النَّاسِ صُورَةً وَأَحْسَنِهِمْ سِيرَةً. ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ حَمَاةَ إِحْدَى أُمَّهَاتِ الشَّامِ الرَّفِيعَةِ. وَمَدَائِنِهَا الْبَدِيعَةِ. ذَاتُ الْحُسْنِ الرَّائِقِ. وَالْجَمَالِ الْفَائِقِ. تَحُفُّهَا الْبَسَاتِينُ وَالْجَنَّاتُ. عَلَيْهَا النَّوَاعِيرُ كَالْأَفْلَاكِ الدَّائِرَاتِ يَشُقُّهَا النَّهْرُ الْعَظِيمُ الْمُسَمَّى بِالْعَاصِي. وَلَهَا رَبَضٌ سُمِّيَ بِالْمَنْصُورِيَّةِ أَعْظَمُ مِنَ الْمَدِينَةِ فِيهِ الْأَسْوَاقُ الْحَافِلَةُ وَالْحَمَّامَاتُ الْحِسَانُ. وَبِحَمَاةَ الْفَوَاكِهُ الْكَثِيرَةُ وَمِنْهَا الْمِشْمِشُ اللَّوْزِيُّ إِذَا كُسِرَتْ نَوَاتُهُ وُجِدَتْ فِي دَاخِلِهَا لَوْزَةٌ حُلْوَةٌ

ثُمَّ سِرْنَا إِلَى مَدِينَةِ حَلَبَ الْمَدِينَةِ الْكُبْرَى وَالْقَاعِدَةِ الْعُظْمَى. قَالَ أَبُو الْحُسَيْنِ ابْنُ جُبَيْرٍ فِي وَصْفِهَا. قَدْرُهَا خَطِيرٌ. وَذِكْرُهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ يَطِيرُ. خُطَّابُهَا مِنَ الْمُلُوكِ كَثِيرٌ. وَمَحَلُّهَا مِنَ النُّفُوسِ أَثِيرٌ. فَكَمْ هَاجَتْ

مِنْ كِفَاحٍ . وَسُلَّ عَلَيْهَا بِيضُ الصِّفَاحِ . لَهَا قَلْعَةٌ شَهِيرَةُ الِامْتِنَاعِ . بَائِنَةُ الِارْتِفَاعِ . تَنَزَّهَتْ [illegible]انَةً أَنْ تُرَامَ أَوْ تُسْتَطَاعَ . مَنْحُوتَةُ الْأَرْجَاءِ . مَوْضُوعَةٌ عَلَى نِسْبَةِ اعْتِدَالٍ وَ[illegible]تِوَاءٍ . قَدْ طَاوَلَتِ الْأَيَّامَ وَالْأَعْوَامَ . وَشَيَّعَتِ الْخَوَاصَّ وَالْعَوَامَّ . [illegible] [illegible]مَرَاؤُهَا الْحَمْدَانِيُّونَ وَشُعَرَاؤُهَا . فَنِيَ جَمِيعُهُمْ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا بِنَاؤُهَا . [illegible] الْبِلَادِ تَبْقَى وَيَذْهَبُ أَمْلَاكُهَا . وَيَهْلِكُونَ وَلَا يُقْضَى هَلَاكُهَا . وَتُخْ[illegible]دَهُمْ فَلَا يَتَعَذَّرُ إِمْلَاكُهَا . وَتُرَامُ فَيَتَيَسَّرُ بِأَهْوَنِ شَيْءٍ إِدْرَا[illegible] [illegible]ذِهِ حَلَبُ كَمْ أَدْخَلَتْ مُلُوكَهَا فِي خَبَرِ كَانَ . وَنَسَخَتْ صَرْفَ الزَّمَانِ بِ[illegible]مَكَانِ . أُنِّثَ اسْمُهَا فَتَحَلَّتْ بِحِلْيَةِ الْغَوَانِ . وَدَانَتْ بِالْغَدْرِ فِيمَنْ دَانَ . وَتَجَلَّتْ عَرُوسًا بَعْدَ سَيْفِ دَوْلَتِهَا ابْنِ [illegible]دَانَ . هَيْهَاتَ سَيَ[illegible] [illegible]بَابُهَا . وَيُعْدَمُ خُطَّابُهَا . وَيُسْرِعُ فِيهَا بَعْدَ حِينٍ خَرَابُهَا [illegible] [illegible]الشَّهْبَاءَ . وَبِدَاخِلِهَا جُبَّانِ يَنْبُعُ مِنْهُمَا الْمَاءُ . فَلَا [illegible] . وَيُطِيفُ بِهَا سُورَانِ . وَعَلَيْهَا خَنْدَقٌ عَظِيمٌ يَنْبُعُ مِنْهُ الْمَاءُ . وَسُورُهَا مُتَدَانِي الْأَبْرَاجِ . وَقَدِ انْتَظَمَتْ بِهَا الْعَلَالِي الْعَجِيبَةُ الْمُفَتَّحَةُ الطِّيقَانِ . وَكُلُّ بُرْجٍ مِنْهَا مَسْكُونٌ وَالطَّعَامُ لَا يَتَغَيَّرُ بِهَذِهِ الْقَلْعَةِ عَلَى طُولِ الْعَهْدِ . وَبِهَا مَشْهَدٌ يَقْصِدُهُ بَعْضُ النَّاسِ . يُقَالُ إِنَّ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَتَعَبَّدُ بِهِ . وَهَذِهِ الْقَلْعَةُ تُشْبِهُ قَلْعَةَ رَحْبَةِ مَالِكِ بْنِ طَوْقٍ الَّتِي عَلَى الْفُرَاتِ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ . وَلَمَّا قَصَدَ قَازَانُ طَاغِيَةُ التَّتَرِ مَدِينَةَ حَلَبَ حَاصَرَ هَذِهِ الْقَلْعَةَ أَيَّامًا وَنَكَصَ عَنْهَا خَائِبًا . قَالَ ابْنُ جُزَيٍّ وَفِي هَذِهِ الْقَلْعَةِ يَقُولُ الْخَالِدِيُّ شَاعِرُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ

وَخَرْقَاءَ قَدْ قَامَتْ عَلَى مَنْ يَرُومُهَا ... بِمَرْقَبِهَا الْعَالِي وَجَانِبِهَا الصَّعْبِ

يَجُرُّ عَلَيْهَا ٱلْجَوُّ جَيْبَ غَمَامِهِ وَيُلْبِسُهَا عِقْدًا بِأَنْجُمِهِ ٱلشُّهْبِ
إِذَا مَا سَرَى بَرْقٌ بَدَتْ مِنْ خِلَالِهِ كَمَا لَاحَتِ ٱلْعَذْرَاءُ مِنْ خَلَلِ ٱلسُّحْبِ
فَكَمْ مِنْ جُنُودٍ قَدْ أَمَاتَتْ بِغُصَّةٍ وَذِي سَطَوَاتٍ قَدْ أَبَانَتْ عَلَى عَقْبِ

رَجَعَ وَيُقَالُ فِي مَدِينَةِ حَلَبَ حَلَبَ إِبْرٰهِيمَ لِأَنَّ ٱلْخَلِيلَ صَلَوَاتُ ٱللّٰهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ كَانَ يَسْكُنُهَا وَكَانَتْ لَهُ ٱلْغَنَمُ ٱلْكَثِيرَةُ فَكَانَ يَسْقِي ٱلْفُقَرَاءَ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱلْوَارِدَ وَٱلصَّادِرَ مِنْ أَلْبَانِهَا. فَكَانُوا يَجْتَمِعُونَ وَيَسْأَلُونَ حَلَبَ إِبْرٰهِيمَ فَسُمِّيَتْ بِذٰلِكَ وَهِيَ مِنْ أَعَزِّ ٱلْبِلَادِ ٱلَّتِي لَا نَظِيرَ لَهَا فِي حُسْنِ ٱلْوَضْعِ وَإِتْقَانِ ٱلتَّرْتِيبِ وَٱتِّسَاعِ ٱلْأَسْوَاقِ وَٱنْتِظَامِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ. وَأَسْوَاقُهَا مُسَقَّفَةٌ بِٱلْخَشَبِ. فَأَهْلُهَا دَائِمًا فِي ظِلٍّ مَمْدُودٍ. وَقَيْسَارِيَّتُهَا لَا تُمَاثَلُ حُسْنًا وَكِبَرًا وَهِيَ تُحِيطُ بِمَسْجِدِهَا. وَكُلُّ سِمَاطٍ مِنْهَا مُحَاذٍ لِبَابٍ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْمَسْجِدِ. وَمَسْجِدُهَا ٱلْجَامِعُ مِنْ أَجْمَلِ ٱلْمَسَاجِدِ. فِي صَحْنِهِ بِرْكَةُ مَاءٍ وَيُطِيفُ بِهِ بَلَاطٌ عَظِيمُ ٱلِٱتِّسَاعِ. وَمِنْبَرُهَا بَدِيعُ ٱلْعَمَلِ. مُرَصَّعٌ بِٱلْعَاجِ وَٱلْآبَنُوسِ. وَبِقُرْبِ جَامِعِهَا مَدْرَسَةٌ مُنَاسِبَةٌ لَهُ فِي حُسْنِ ٱلْوَضْعِ وَإِتْقَانِ ٱلصَّنْعَةِ تُنْسَبُ لِأُمَرَاءِ بَنِي حَمْدَانَ. وَبِٱلْبَلَدِ سِوَاهَا ثَلَاثُ مَدَارِسَ وَبِهَا مَارِسْتَانٌ. وَأَمَّا خَارِجُ ٱلْمَدِينَةِ فَهُوَ بَسِيطٌ أَفْيَحُ عَرِيضٌ بِهِ ٱلْمَزَارِعُ ٱلْعَظِيمَةُ وَشَجَرَاتُ ٱلْأَعْنَابِ مُنْتَظِمَةٌ بِهِ. وَٱلْبَسَاتِينُ عَلَى شَاطِئِ نَهْرِهَا. وَهُوَ ٱلنَّهْرُ ٱلَّذِي يَمُرُّ بِحَمَاةَ وَيُسَمَّى ٱلْعَاصِيَ. وَقِيلَ إِنَّهُ سُمِّيَ بِذٰلِكَ لِأَنَّهُ يُخَيَّلُ لِنَاظِرِهِ أَنَّ جَرَيَانَهُ مِنْ أَسْفَلَ إِلَى عُلْوٍ. وَٱلنَّفْسُ تَجِدُ فِي خَارِجِ مَدِينَةِ حَلَبَ ٱنْشِرَاحًا وَسُرُورًا وَنَشَاطًا لَا يَكُونُ فِي سِوَاهَا وَهِيَ مِنَ ٱلْمُدُنِ ٱلَّتِي تَصْلُحُ لِلْخِلَافَةِ. قَالَ ٱبْنُ جُزَيٍّ أَطْنَبَتِ ٱلشُّعَرَاءُ فِي وَصْفِ

محاسن حلب وذكر داخلها وخارجها. وفيها يقول أبو عبادة البحتري

يا برق أسفر عن قويق مطالبي ... حلب فأعلى القصر من بطياس
عن منبت الورد المعصفر صبغه ... في كل ضاحية ومجنى الآس
أرض إذا استوحشتكم بتذكر ... حشدت علي فأكثرت إيناسي

وقال فيها الشاعر المجيد أبو بكر الصنوبري

سقى حلب المزن مغنى حلب ... فكم وصلت طربا بالطرب
وكم مستطاب من العيش لذ ... بها إذ بها العيش لم يستطب
إذا نشر الزهر أعلامه ... بها ومطارفه والعذب
غدا وحواشيه من فضة ... تروق وأوساطه من ذهب

ثم سافرت إلى جبل لبنان وهو من أخصب جبال الدنيا. فيه أصناف الفواكه وعيون الماء والظلال الوافرة. ولا يخلو من المنقطعين إلى الله تعالى والزهاد والصالحين وهو شهير بذلك. ورأيت به جماعة من الصالحين قد انقطعوا إلى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه

حكاية

أخبرني بعض الصالحين الذين لقيتهم به قال: كنا بهذا الجبل مع جماعة من الفقراء أيام البرد الشديد. فأوقدنا نارا عظيمة وأحدقنا بها فقال بعض الحاضرين يصلح لهذه النار ما يشوى فيها: فقال أحد الفقراء ممن تزدريه الأعين ولا يوبه به. إني كنت عند صلوة العصر بمتعبد إبرهيم بن أدهم فرأيت بمقربة منه حمار وحش قد أحدق الثلج به من كل جانب وأظنه لا يقدر على الحراك فلو ذهبتم إليه لقدرتم

عَلَيْهِ وَشَوَيْتُمْ لَحْمَهُ فِي هٰذِهِ ٱلنَّارِ. قَالَ فَقُمْنَا إِلَيْهِ فِي خَمْسَةِ رِجَالٍ فَأَلْفَيْنَاهُ كَمَا وَصَفَ إِلَيْنَا. فَقَبَضْنَاهُ وَأَتَيْنَا بِهِ أَصْحَابَنَا وَذَبَحْنَاهُ وَأَشْوَيْنَا لَحْمَهُ فِي تِلْكَ ٱلنَّارِ وَطَلَبْنَا ٱلْفَقِيرَ ٱلَّذِي نَبَّهَ عَلَيْهِ فَلَمْ نَجِدْهُ وَلَا وَقَعْنَا لَهُ عَلَى أَثَرٍ فَطَالَ عَجَبُنَا مِنْهُ

ثُمَّ وَصَلْنَا مِنْ جَبَلِ لُبْنَانَ إِلَى مَدِينَةِ بَعْلَبَكَّ. وَهِيَ حَسَنَةٌ قَدِيمَةٌ مِنْ أَطْيَبِ مُدُنِ ٱلشَّامِ. تُحْدِقُ بِهَا ٱلْبَسَاتِينُ ٱلشَّرِيفَةُ. وَٱلْجَنَّاتُ ٱلْمُنِيفَةُ. وَتَخْتَرِقُ أَرْضَهَا ٱلْأَنْهَارُ ٱلْجَارِيَةُ. وَتُضَاهِي دِمَشْقَ فِي خَيْرَاتِهَا ٱلْمُتَنَاهِيَةِ. وَبِهَا مِنْ حَبِّ ٱلْمُلُوكِ مَا لَيْسَ فِي سِوَاهَا. وَبِهَا يُصْنَعُ ٱلدِّبْسُ ٱلْمَنْسُوبُ إِلَيْهَا وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ ٱلرُّبِّ يَصْنَعُونَهُ مِنَ ٱلْعِنَبِ. وَلَهُمْ تُرْبَةٌ يَضَعُونَهَا فِيهِ فَيَجْمُدُ وَتُكْسَرُ ٱلْقُلَّةُ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا فَيَبْقَى قِطْعَةً وَاحِدَةً وَتُصْنَعُ مِنْهُ ٱلْحَلْوَاءُ وَيُجْعَلُ فِيهَا ٱلْفُسْتُقُ وَٱللَّوْزُ وَيُسَمُّونَ حَلْوَاءَهُ بِٱلْمَلْبَنِ. وَهِيَ كَثِيرَةُ ٱلْأَلْبَانِ وَتُجْلَبُ مِنْهَا إِلَى دِمَشْقَ وَبَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ يَوْمٍ لِلْمُجِدِّ. وَأَمَّا ٱلرِّفَاقُ فَيَخْرُجُونَ مِنْ بَعْلَبَكَّ فَيَبِيتُونَ بِبَلْدَةٍ صَغِيرَةٍ تُعْرَفُ بِٱلزَّبْدَانِيِّ كَثِيرَةِ ٱلْفَوَاكِهِ وَيَغْدُونَ مِنْهَا إِلَى دِمَشْقَ. وَيُصْنَعُ بِبَعْلَبَكَّ ٱلثِّيَابُ ٱلْمَنْسُوبَةُ إِلَيْهَا مِنَ ٱلْإِحْرَامِ وَغَيْرِهِ وَيُصْنَعُ بِهَا أَوَانِي ٱلْخَشَبِ وَمَلَاعِقُهُ ٱلَّتِي لَا نَظِيرَ لَهَا فِي ٱلْبِلَادِ وَهُمْ يُسَمُّونَ ٱلصِّحَافَ بِٱلدُّسُوتِ وَرُبَّمَا صَنَعُوا ٱلصَّحْفَةَ وَصَنَعُوا صَحْفَةً أُخْرَى تَسَعُ فِي جَوْفِهَا وَأُخْرَى فِي جَوْفِهَا إِلَى أَنْ يَبْلُغُوا ٱلْعَشَرَةَ يُخَيَّلُ لِرَائِيهَا أَنَّهَا صَحْفَةٌ وَاحِدَةٌ. وَكَذٰلِكَ ٱلْمَلَاعِقُ يَصْنَعُونَ مِنْهَا عَشَرَةً وَاحِدَةً فِي جَوْفِ وَاحِدَةٍ وَيَصْنَعُونَ لَهَا غِشَاءً مِنْ جِلْدٍ وَيُمْسِكُهَا ٱلرَّجُلُ فِي حِزَامِهِ. وَإِذَا حَضَرَ طَعَامًا مَعَ أَصْحَابِهِ أَخْرَجَ ذٰلِكَ فَيَظُنُّ رَائِيهِ أَنَّهَا

مِلْعَقَةٌ وَاحِدَةٌ . ثُمَّ يُخْرِجُ مِنْ جَوْفِهَا تِسْعًا

وَكَانَ دُخُولِي لِبَعْلَبَكَّ عَشِيَّةَ ٱلنَّهَارِ وَخَرَجْتُ مِنْهَا بِٱلْغُدُوِّ لِفَرْطِ ٱشْتِيَاقِي إِلَى دِمَشْقَ وَوَصَلْتُ يَوْمَ ٱلْخَمِيسِ ٱلتَّاسِعَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ عَامَ سِتَّةٍ وَعِشْرِينَ إِلَى مَدِينَةِ دِمَشْقِ ٱلشَّامِ . فَنَزَلْتُ مِنْهَا بِمَدْرَسَةِ ٱلْمَالِكِيَّةِ ٱلْمَعْرُوفَةِ بِٱلشَّرَابِشِيَّةِ . وَدِمَشْقُ هِيَ ٱلَّتِي تَفْضُلُ جَمِيعَ ٱلْبِلَادِ حُسْنًا وَتَتَقَدَّمُهَا جَمَالًا وَكُلُّ وَصْفٍ وَإِنْ طَالَ فَهُوَ قَاصِرٌ عَنْ مَحَاسِنِهَا . وَلَا أَبْدَعَ مِمَّا قَالَهُ أَبُو ٱلْحُسَيْنِ بْنُ جُبَيْرٍ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى فِي ذِكْرِهَا قَالَ . وَأَمَّا دِمَشْقُ فَهِيَ جَنَّةُ ٱلْمَشْرِقِ . وَمَطْلَعُ نُورِهَا ٱلْمُشْرِقُ . وَخَاتِمَةُ بِلَادِ ٱلْإِسْلَامِ ٱلَّتِي ٱسْتَقْرَيْنَاهَا . وَعَرُوسُ ٱلْمُدُنِ ٱلَّتِي ٱجْتَلَيْنَاهَا . قَدْ تَحَلَّتْ بِأَزَاهِيرِ ٱلرَّيَاحِينَ . وَتَجَلَّتْ فِي حُلَلٍ سُنْدُسِيَّةٍ مِنَ ٱلْبَسَاتِينِ . وَحَلَّتْ مِنْ مَوْضِعِ ٱلْحُسْنِ بِٱلْمَكَانِ ٱلْمَكِينِ . وَتَزَيَّنَتْ فِي مَنَصَّتِهَا أَجْمَلَ تَزْيِينٍ . وَتَشَرَّفَتْ بِأَنْ أَوَى ٱلْمَسِيحُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَأُمُّهُ مِنْهَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ . ظِلٌّ ظَلِيلٌ . وَمَاءٌ سَلْسَبِيلٌ . تَنْسَابُ مَذَانِبُهُ ٱنْسِيَابَ ٱلْأَرَاقِمِ بِكُلِّ سَبِيلٍ . وَرِيَاضٌ يُحْيِي ٱلنُّفُوسَ نَسِيمُهَا ٱلْعَلِيلُ . وَقَدْ سَئِمَتْ أَرْضُهَا كَثْرَةَ ٱلْمَاءِ حَتَّى ٱشْتَاقَتْ إِلَى ٱلظَّمَاءِ . فَتَكَادُ تُنَادِيكَ بِهَا ٱلصُّمُّ ٱلصِّلَابُ . ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ . وَقَدْ أَحْدَقَتِ ٱلْبَسَاتِينُ بِهَا إِحْدَاقَ ٱلْهَالَةِ بِٱلْقَمَرِ . وَٱلْأَكْمَامِ بِٱلثَّمَرِ . وَٱمْتَدَّتْ بِشَرْقِيِّهَا غُوطَتُهَا ٱلْخَضْرَاءُ ٱمْتِدَادَ ٱلْبَصَرِ . وَكُلُّ مَوْضِعٍ لَحَظَتْ بِجِهَاتِهَا ٱلْأَرْبَعِ نَضْرَتُهُ ٱلْيَانِعَةُ قَيْدَ ٱلنَّظَرِ . وَلِلّٰهِ صِدْقُ ٱلْقَائِلِينَ عَنْهَا . إِنْ كَانَتِ ٱلْجَنَّةُ فِي ٱلْأَرْضِ فَدِمَشْقُ لَا شَكَّ فِيهَا . وَإِنْ كَانَتْ فِي ٱلسَّمَاءِ فَهِيَ تُسَامِيهَا وَتُحَاذِيهَا . قَالَ ٱبْنُ جُزَيٍّ

وَقَدْ نَظَمَ بَعْضُ شُعَرَائِهَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَقَالَ

إِنْ تَكُنْ جَنَّةُ ٱلْخُلُودِ بِأَرْضٍ   فَدِمَشْقُ وَلَا تَكُونُ سِوَاهَا
إِنْ تَكُنْ فِي ٱلسَّمَاءِ فَهْيَ عَلَيْهَا   فَـقَدْ أَبْدَتْ هَوَاءَهَا وَهَوَاهَا

وَذَكَرَهَا شَيْخُنَا ٱلْمُحَدِّثُ ٱلرَّحَّالُ شَمْسُ ٱلدِّينِ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ مُحَمَّدُ بْنُ جَابِرِ بْنِ حَسَّانِ ٱلْقَيْسِيُّ ٱلْوَادِيَاشِيُّ نَزِيلُ تُونُسَ وَنَصَّ كَلَامَ ٱبْنِ جُبَيْرٍ. ثُمَّ قَالَ وَلَقَدْ أَحْسَنَ فِيمَا وَصَفَ مِنْهَا وَأَجَادَ. وَتَوَّقَ ٱلْأَنْفُسَ لِلتَّطَلُّعِ عَلَى صُورَتِهَا بِمَا أَفَادَ. وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ بِهَا إِقَامَةٌ. فَيُعْرِبُ عَنْهَا بِحَقِيقَةِ عَلَامَةٍ. وَلَا وَصَفَ ذَهَبِيَّاتِ أَصِيلِهَا. وَقَدْ حَانَ مِنَ ٱلشَّمْسِ غُرُوبُهَا. وَلَا أَزْمَانَ جُفُولِهَا ٱلْمُنَوَّعَاتِ. وَلَا أَوْقَاتَ سُرُورِهَا ٱلْمُنَبِّهَاتِ. وَقَدِ ٱخْتَصَّ مَنْ قَالَ أَلْفَيْتُهَا كَمَا تَصِفُ ٱلْأَلْسُنُ. وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ. قَالَ ٱبْنُ جُزَيٍّ وَٱلَّذِي قَالَتْهُ ٱلشُّعَرَاءُ فِي وَصْفِ مَحَاسِنِ دِمَشْقَ لَا يُحْصَرُ كَثْرَةً. وَكَانَ وَالِدِي رَحِمَهُ ٱللهُ كَثِيرًا مَا يُنْشِدُ فِي وَصْفِهَا هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتَ وَهِيَ لِشَرَفِ ٱلدِّينِ بْنِ مُحْسِنٍ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى

دِمَشْقُ بِي شَوْقٌ إِلَيْهَا مُبَرِّحٌ   وَإِنْ لَجَّ وَاشٍ أَوْ أَلَحَّ عَذُولُ
بِلَادٌ بِهَا ٱلْحَصْبَاءُ دُرٌّ وَتُرْبُهَا   عَبِيرٌ وَأَنْفَاسُ ٱلشَّمَالِ شَمُولُ
تَسَلْسَلَ فِيهَا مَاؤُهَا وَهْوَ مُطْلَقٌ   وَصَحَّ نَسِيمُ ٱلرَّوْضِ وَهْوَ عَلِيلُ

وَهٰذَا مِنَ ٱلنَّمَطِ ٱلْعَالِي مِنَ ٱلشِّعْرِ. وَقَالَ فِيهَا عَرْقَلَةُ ٱلدِّمَشْقِيُّ ٱلْكَلْبِيُّ

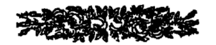
أَلشَّامُ شَامَةُ وَجْنَةِ ٱلدُّنْيَا كَمَا   إِنْسَانُ مُقْلَتِهَا ٱلْغَضِيضَةِ جِلِّقُ
مِنْ آسِهَا لَكَ جَنَّةٌ لَا تَنْقَضِي   وَمِنَ ٱلشَّقِيقِ جَهَنَّمٌ لَا تُحْرِقُ

وَلَهُ فِيهَا أَشْعَارٌ كَثِيرَةٌ سِوَى ذٰلِكَ. وَقَالَ فِيهَا أَبُو ٱلْوَحْشِ سَبُعُ بْنُ

خَلَقَ ٱلْأَسَدِيُّ

سَقَى دِمَشْقَ ٱللّٰهُ غَيْثًا مُحْسِنًا مِنْ مُسْتَهِلٍّ دِيمَةٍ دِهَاقِهَا
مَدِينَةٌ لَيْسَ يُضَاهَى حُسْنُهَا فِي سَائِرِ ٱلدُّنْيَا وَلَا آفَاقِهَا
تَوَدُّ زَوْرَاءُ ٱلْعِرَاقِ أَنَّهَا مِنْهَا وَلَا تُعْزَى إِلَى عِرَاقِهَا
فَأَرْضُهَا مِثْلُ ٱلسَّمَاءِ بَهْجَةً وَزَهْرُهَا كَٱلزُّهْرِ فِي إِشْرَاقِهَا
نَسِيمُ رَوْضِهَا مَتَى مَا قَدْ سَرَى فَكَّ أَخَا ٱلْهُمُومِ مِنْ وَثَاقِهَا
قَدْ رَتَعَ ٱلرَّبِيعُ فِي رُبُوعِهَا وَسِيقَتِ ٱلدُّنْيَا إِلَى أَسْوَاقِهَا
لَا تَسْأَمُ ٱلْعُيُونُ وَٱلْأُنُوفُ مِنْ رُؤْيَتِهَا يَوْمًا وَلَا ٱسْتِنْشَاقِهَا

انتهى المنقول من ابن بطوطة



مِنْ كِتَابِ
عَجَائِبِ ٱلْمَخْلُوقَاتِ وَغَرَائِبِ ٱلْمَوْجُودَاتِ لِلشَّيْخِ ٱلْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدٍ ٱلْقَزْوِينِيِّ

ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْكَائِنَاتِ وَهِيَ ٱلْأَجْسَامُ ٱلْمُتَوَلِّدَةُ مِنَ ٱلْأُمَّهَاتِ

فَنَقُولُ ٱلْأَجْسَامُ ٱلْمُتَوَلِّدَةُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ نَامِيَةً أَوْ غَيْرَ نَامِيَةٍ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ نَامِيَةً فَهِيَ ٱلْمَعْدِنِيَّاتُ وَإِنْ كَانَتْ نَامِيَةً فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ لَهَا قُوَّةُ ٱلْحِسِّ وَٱلْحَرَكَةِ أَوْ لَمْ تَكُنْ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ فَهِيَ ٱلنَّبَاتُ وَإِنْ كَانَتْ فَهِيَ ٱلْحَيَوَانَاتُ وَزَعَمُوا أَنَّ أَوَّلَ مَا تَسْتَحِيلُ إِلَيْهِ ٱلْأَرْكَانُ ٱلْأَبْخِرَةُ وَٱلْعُصَارَاتُ وَٱلْبُخَارُ مَا يَصْعَدُ مِنْ لَطَائِفِ مِيَاهِ ٱلْبَحْرِ وَٱلْآجَامِ وَٱلْأَنْهَارِ مِنْ تَسْخِينِ ٱلشَّمْسِ وَٱلْعُصَارَاتُ مَا يَتَحَلَّبُ فِي بَاطِنِ ٱلْأَرْضِ مِنْ مِيَاهِ ٱلْأَمْطَارِ وَتَخْتَلِطُ بِٱلْأَجْزَاءِ ٱلْأَرْضِيَّةِ وَتَغْلُظُ وَتُنْضِجُهَا ٱلْحَرَارَةُ ٱلْمُسْتَبْطِنَةُ فِي عُمْقِ ٱلْأَرْضِ فَتُصَيِّرُهَا مَادَّةً لِلْمَعَادِنِ وَٱلنَّبَاتِ وَٱلْحَيَوَانَاتِ وَأَنَّهَا مُتَّصِلَةٌ بَعْضُهَا بِٱلْبَعْضِ بِتَرْتِيبٍ عَجِيبٍ وَنِظَامٍ بَدِيعٍ تَعَالَى صَانِعُهَا عَمَّا يَقُولُ ٱلظَّالِمُونَ وَٱلْجَاحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا. فَأَوَّلُ مَرَاتِبِ هٰذِهِ ٱلْكَائِنَاتِ تُرَابٌ وَآخِرُهَا نَفْسٌ مَلَكِيَّةٌ طَاهِرَةٌ فَإِنَّ ٱلْمَعَادِنَ مُتَّصِلَةٌ أَوَّلُهَا بِٱلتُّرَابِ أَوِ ٱلْمَاءِ وَآخِرُهَا بِٱلنَّبَاتِ. وَٱلنَّبَاتُ مُتَّصِلٌ أَوَّلُهُ بِٱلْمَعَادِنِ وَآخِرُهُ بِٱلْحَيَوَانِ. وَٱلْحَيَوَانُ مُتَّصِلٌ أَوَّلُهُ بِٱلنَّبَاتِ وَآخِرُهُ بِٱلْإِنْسَانِ. وَٱلنُّفُوسُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ مُتَّصِلَةٌ

أَوَّلُهَا بِٱلْحَيَوَانِ وَآخِرُهَا بِٱلنُّفُوسِ ٱلْمَلَكِيَّةِ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ

ٱلنَّظَرُ ٱلْأَوَّلُ فِي ٱلْمَعْدِنِيَّاتِ

ٱلْمَعْدِنِيَّاتُ هِيَ أَجْسَامٌ مُتَوَلِّدَةٌ مِنَ ٱلْأَبْخِرَةِ وَٱلْأَدْخِنَةِ تَحْتَ ٱلْأَرْضِ إِذَا ٱخْتَلَطَتْ عَلَى ضُرُوبٍ مِنَ ٱلْاخْتِلَاطَاتِ مُخْتَلِفَةٍ فِي ٱلْكَمِّ وَٱلْكَيْفِ وَهِيَ إِمَّا قَوِيَّةُ ٱلتَّرْكِيبِ أَوْ ضَعِيفَةُ ٱلتَّرْكِيبِ. وَقَوِيَّةُ ٱلتَّرْكِيبِ إِمَّا أَنْ تَكُونَ مُنْطَرِقَةً أَوْ لَمْ تَكُنْ وَٱلْمُنْطَرِقَةُ هِيَ ٱلْأَجْسَادُ ٱلسَّبْعَةُ. أَعْنِي ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَٱلنُّحَاسَ وَٱلرَّصَاصَ وَٱلْحَدِيدَ وَٱلْأُسْرُبَّ وَٱلْخَارَصِينِيَّ. وَٱلَّتِي لَا تَكُونُ مُنْطَرِقَةً فَقَدْ تَكُونُ فِي غَايَةِ ٱللِّينِ كَٱلزِّئْبَقِ وَقَدْ تَكُونُ فِي غَايَةِ ٱلصَّلَابَةِ كَٱلْيَاقُوتِ. وَضَعِيفَةُ ٱلتَّرْكِيبِ قَدْ تَنْحَلُّ بِٱلرُّطُوبَاتِ وَهِيَ ٱلْأَجْسَامُ ٱلْمِلْحِيَّةُ كَٱلزَّاجِ وَٱلنُّوشَادِرِ وَقَدْ لَا تَنْحَلُّ بِهَا وَهِيَ ٱلْأَجْسَامُ ٱلدُّهْنِيَّةُ كَٱلزِّرْنِيخِ وَٱلْكِبْرِيتِ

وَٱلْأَجْسَادُ ٱلسَّبْعَةُ إِنَّمَا تَتَوَلَّدُ مِنِ ٱخْتِلَاطِ ٱلزِّئْبَقِ بِٱلْكِبْرِيتِ عَلَى ٱخْتِلَافٍ فِي ٱلْكَمِّ وَٱلْكَيْفِ. وَٱلزِّئْبَقُ يَتَوَلَّدُ مِنْ أَجْزَاءٍ مَائِيَّةٍ ٱخْتَلَطَتْ بِأَجْزَاءٍ أَرْضِيَّةٍ لَطِيفَةٍ كِبْرِيتِيَّةٍ. وَٱلْكِبْرِيتُ لَطِيفٌ يَتَوَلَّدُ مِنْ أَجْزَاءٍ مَائِيَّةٍ وَهَوَائِيَّةٍ وَأَرْضِيَّةٍ تُنْضِجُهَا حَرَارَةٌ قَوِيَّةٌ حَتَّى صَارَ مِثْلَ ٱلدُّهْنِ. وَأَمَّا ٱلْأَجْسَادُ ٱلصُّلْبَةُ ٱلشَّفَّافَةُ فَتَتَوَلَّدُ مِنْ مِيَاهٍ عَذْبَةٍ وَقَعَتْ فِي مَعَادِنِهَا ٱلْحِجَارَةُ ٱلصَّلْدَةُ زَمَانًا طَوِيلًا حَتَّى غَلُظَتْ وَصَفَتْ وَأَنْضَجَتْهَا حَرَارَةُ ٱلْمَعْدِنِ بِطُولِ وُقُوفِهَا. وَأَمَّا غَيْرُ ٱلشَّفَّافَةِ فَمِنِ ٱمْتِزَاجِ ٱلْمَاءِ بِٱلطِّينِ إِذَا كَانَتْ فِيهِ لُزُوجَةٌ وَأَثَّرَتْ فِيهِ حَرَارَةُ ٱلشَّمْسِ بِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ. وَأَمَّا ٱلْأَجْسَامُ ٱلَّتِي تَنْحَلُّ بِٱلرُّطُوبَاتِ فَمِنْ مَاءٍ مُخْتَلِطٍ بِأَجْزَاءٍ أَرْضِيَّةٍ مُحْتَرِقَةٍ يَابِسَةٍ

اَخْتِلَاطًا شَدِيدًا. وَأَمَّا ٱلْأَجْسَامُ ٱلدُّهْنِيَّةُ فَمِنَ ٱلرُّطُوبَاتِ ٱلْمُحْتَقِنَةِ فِي بَاطِنِ ٱلْأَرْضِ إِذَا ٱحْتَوَتْ عَلَيْهَا حَرَارَةُ ٱلْمَعْدِنِ حَتَّى تَحَلَّلَتْ وَلَطُفَتْ وَٱخْتَلَطَتْ بِتُرْبَةِ ٱلْقَاعِ وَحَرَارَةُ ٱلْمَعْدِنِ دَائِمًا فِي نُضْجِهَا وَطَبْخِهَا حَتَّى تَزْدَادَ غِلَظًا وَصَارَتْ مِثْلَ ٱلدُّهْنِ

اَلنَّظَرُ ٱلثَّانِي فِي ٱلنَّبَاتِ

اَلنَّبَاتُ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ ٱلْمَعَادِنِ وَٱلْحَيَوَانِ بِمَعْنَى أَنَّهُ خَارِجٌ عَنْ نُقْصَانِ ٱلْجَمَادِيَّةِ ٱلصِّرْفَةِ ٱلَّتِي لِلْمَعَادِنِ وَغَيْرُ وَاصِلٍ إِلَى كَمَالِ ٱلْحِسِّ وَٱلْحَرَكَةِ ٱللَّتَيْنِ ٱخْتَصَّ بِهِمَا ٱلْحَيَوَانُ. لٰكِنَّهُ يُشَارِكُ ٱلْحَيَوَانَ فِي بَعْضِ ٱلْأُمُورِ لِأَنَّ ٱلْبَارِئَ تَعَالَى يَخْلُقُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ ٱلْآلَاتِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي بَقَاءِ ذَاتِهِ وَنَوْعِهِ وَمَا زَادَ عَلَى ذٰلِكَ يَكُونُ ثِقْلًا وَكَلًّا عَلَيْهِ لَا يَخْلُقُهُ وَلَا حَاجَةَ لِلنَّبَاتِ إِلَى ٱلْحِسِّ وَٱلْحَرَكَةِ بِخِلَافِ ٱلْحَيَوَانِ

وَمِنْ عَجِيبِ صُنْعِ ٱلْبَارِئِ تَعَالَى أَنَّ ٱلْحَبَّ وَٱلنَّوَى إِذَا حَصَلَ فِي تُرْبَةٍ نَدِيَّةٍ وَأَصَابَهُمَا حَرُّ ٱلشَّمْسِ ٱنْشَقَّا وَجَذَبَا بِقُوَّةٍ خَلَقَ ٱللّٰهُ تَعَالَى فِيهِمَا ٱلْأَجْزَاءَ ٱللَّطِيفَةَ ٱلْأَرْضِيَّةَ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَٱلْمَائِيَّةَ مِنَ ٱلْمَاءِ. ثُمَّ إِنَّ تِلْكَ ٱلْأَجْزَاءَ يَتَرَاكَمُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ بِوَاسِطَةِ قُوًى خَلَقَ ٱللّٰهُ تَعَالَى فِيهَا حَتَّى يَصِيرَ ٱلْحَبُّ نَجْمًا بَالِغًا ذَا عُرُوقٍ وَقِضْبَانٍ وَأَوْرَاقٍ وَأَزْهَارٍ وَحَبُّ ٱلنَّوَى شَجَرًا عَظِيمًا ذَا عُرُوقٍ وَسَاقٍ وَأَغْصَانٍ وَأَوْرَاقٍ وَثَمَرَةٍ. وَٱلنَّبَاتُ قِسْمَانِ شَجَرٌ وَنَجْمٌ

ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوَّلُ

ٱلشَّجَرُ

ٱلشَّجَرُ هُوَ كُلُّ مَا لَهُ سَاقٌ مِنَ ٱلنَّبَاتِ وَٱلْأَشْجَارُ ٱلْعِظَامُ بِمَثَابَةِ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْعِظَامِ وَٱلنُّجُومُ بِمَثَابَةِ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلصِّغَارِ وَٱلْأَشْجَارُ ٱلْعِظَامُ لَا ثَمَرَ لَهَا كَٱلسَّاجِ وَٱلدُّلْبِ وَٱلعَرْعَرِ لِأَنَّ ٱلْمَادَّةَ كُلَّهَا صُرِفَتْ إِلَى نَفْسِ ٱلشَّجَرَةِ وَلَا كَذٰلِكَ ٱلْأَشْجَارُ ٱلْمُثْمِرَةُ فَإِنَّ مَادَّتَهَا صُرِفَتْ إِلَى ٱلشَّجَرَةِ وَٱلثَّمَرَةِ. وَيُشْبِهُ حَالُهَا حَالَ ٱلذُّكُورِ وَٱلْإِنَاثِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ فَإِنَّ ٱلذُّكْرَانَ أَعْظَمُ بَدَنًا مِنَ ٱلْإِنَاثِ لِأَنَّ بَعْضَ مَوَادِّ ٱلْإِنَاثِ يُصْرَفُ إِلَى ٱلْأَجِنَّةِ

وَمِنْ عَجِيبِ صُنْعِ ٱلْبَارِي تَعَالَى خَلْقُ ٱلْأَوْرَاقِ عَلَى ٱلْأَشْجَارِ زِينَةً لَهَا وَوِقَايَةً لِثِمَارِهَا مِنْ نِكَايَةِ ٱلشَّمْسِ وَٱلْهَوَاءِ. ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى خَلَقَهَا مُرْتَفِعَةً عَنِ ٱلثِّمَارِ مُتَفَرِّقَةً بَعْضَ ٱلتَّفَرُّقِ لَا مُتَكَاثِفَةً عَلَيْهَا وَلَا بَعِيدَةً عَنْهَا لِتَأْخُذَ ٱلثِّمَارُ مِنَ ٱلنَّسِيمِ تَارَةً وَمِنَ ٱلشَّمْسِ تَارَةً أُخْرَى. فَلَوْ تَكَاثَفَتْ عَلَيْهَا حَتَّى مَنَعَتْهَا إِصَابَةَ ٱلنَّسِيمِ وَشُعَاعَ ٱلشَّمْسِ لَبَقِيَتْ عَلَى فَجَاجَتِهَا غَلِيظَةَ ٱلْجِلْدِ قَلِيلَةَ ٱلْمَائِيَّةِ. وَإِذَا سَقَطَ عَنْهَا بَعْضُ ٱلْوَرَقِ أَصَابَتْهَا ٱلشَّمْسُ وَأَحْرَقَتْهَا كَمَا تَرَى فِي ٱلرُّمَّانَةِ ٱلَّتِي ٱحْتَرَقَ مِنْهَا أَحَدُ ٱلْجَوَانِبِ. ثُمَّ إِذَا فَرَغَتِ ٱلثَّمَرَةُ تَنَاثَرَتِ ٱلْأَوْرَاقُ حَتَّى لَا تُجْذَبَ مَائِيَّةُ ٱلشَّجَرَةِ فَتَضْعُفَ قُوَّتُهَا كَمَا تَرَى فِي ٱلْحَيَوَانِ فَإِنَّ ٱلْأُمَّ تَضْعُفُ مِنْ إِرْضَاعِ أَوْلَادِهَا

وَلْنَذْكُرْ بَعْضَ مَا يَتَعَلَّقُ بِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْجَارِ مُرَتَّبَةً عَلَى ٱلْمُعْجَمِ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى

دُلْبٌ. مِنْ أَعْظَمِ ٱلْأَشْجَارِ وَأَعْلَاهَا وَأَبْقَاهَا فَإِذَا طَالَتْ مُدَّتُهَا تَقَتَّتَ

جَوْفُهَا وَيَبْقَى سَاقُهَا مُحَرَّقًا وَوَرَقُهَا تَهْرُبُ مِنْهُ ٱلْخَنَافِسُ وَبَعْضُ ٱلطُّيُورِ تَجْعَلُهَا فِي أَوْكَارِهَا لِدَفْعِ ٱلْخَنَافِسِ فَإِنَّهَا تَمُوتُ مِنْهَا وَإِذَا غُسِلَ وَطُبِخَ وَضُمِّدَ بِهِ حَبَسَ ٱلنَّوَازِلَ عَنِ ٱلْعَيْنِ. قِشْرُهَا مَطْبُوخًا بِٱلْخَلِّ يَنْفَعُ مِنْ حَرْقِ ٱلنَّارِ وَوَجَعِ ٱلْأَسْنَانِ. ثَمَرَتُهَا يُقَالُ لَهَا جَوْزُ ٱلسِّرِّ وَمَعَ ٱلشَّحْمِ ضِمَادٌ جَيِّدٌ لِنَهْشِ ٱلْهَوَامِّ.

فُلْفُلٌ. شَجَرَةٌ تَنْبُتُ بِٱلْهِنْدِ بِنَاحِيَةٍ مِنْهَا تُسَمَّى مَلِيبَارَ وَهِيَ شَجَرَةٌ عَالِيَةٌ لَا يَزُولُ ٱلْمَاءُ مِنْ تَحْتِهَا فَإِذَا هَبَّتِ ٱلرِّيَاحُ تَسَاقَطَتْ حُبُوبُهَا عَلَى وَجْهِ ٱلْمَاءِ فَتُجْمَعُ مِنْهُ وَلِذَٰلِكَ فُسْحَةٌ وَهِيَ شَجَرَةٌ حُرَّةٌ لَا مُلْكَ لِأَحَدٍ فِيهَا وَحَمْلُهَا عَلَيْهَا شِتَاءً وَصَيْفًا وَهُوَ عَنَاقِيدُ. فَإِذَا حَمِيَتِ ٱلشَّمْسُ عَلَيْهَا ٱنْطَبَقَتْ عَلَى عَنْقُودٍ مِنْهَا أَوْرَاقٌ حَتَّى لَا يَحْتَرِقَ بِٱلشَّمْسِ فَإِذَا زَالَتِ ٱلشَّمْسُ عَنْهَا زَالَتِ ٱلْأَوْرَاقُ عَنِ ٱلْعَنَاقِيدِ لِتَنَالَ ٱلنَّسِيمَ. وَذَكَرَ مَنْ رَآهَا أَنَّ شَجَرَتَهَا مِثْلُ شَجَرَةِ ٱلرُّمَّانِ وَبَيْنَ ٱلْوَرَقَتَيْنِ شِمْرَاخَانِ مَنْظُومَانِ بِٱلْفُلْفُلِ وَشِمْرَاخُهُ فِي طُولِ ٱلْإِصْبَعِ. قَالَ جَالِينُوسُ أَوَّلَ مَا تَطْلَعُ ثَمَرَتُهَا تَكُونُ دَارَ فُلْفُلٍ ثُمَّ تَنْفَصِلُ عَنْ حَبٍّ يَكُونُ هُوَ ٱلْفُلْفُلَ

قَرَنْفُلٌ. شَجَرَةٌ تَنْبُتُ فِي بَعْضِ جَزَائِرِ ٱلْهِنْدِ ثَمَرَتُهَا كَٱلْيَاسَمِينِ إِلَّا أَنَّهَا أَشَدُّ سَوَادًا. وَذَكَرُوا أَنَّ أَهْلَ تِلْكَ ٱلْجَزِيرَةِ لَا يُخْرِجُونَهَا إِلَّا مَطْبُوخَةً لِئَلَّا تَنْبُتَ فِي غَيْرِهَا مِنَ ٱلْبِلَادِ

نَارَجِيلٌ. هُوَ ٱلْجَوْزُ ٱلْهِنْدِيُّ زَعَمَ أَهْلُ ٱلْحِجَازِ أَنَّ شَجَرَةَ ٱلنَّارَجِيلِ هِيَ ٱلْمُقْلُ لٰكِنَّهَا أَثْمَرَتْ نَارَجِيلًا لِطِبَاعِ ٱلتُّرْبَةِ وَٱلْأَهْوِيَةِ. عَلَى ثَمَرَتِهَا لِيفٌ يُتَّخَذُ مِنْهُ ٱلْحِبَالُ تُسْتَعْمَلُ فِي سُفُنِ ٱلْبَحْرِ تَصْبِرُ عَلَى ٱلْمَاءِ طَوِيلًا لَا تَتَعَفَّنُ.

لَبَنُهَا لَذِيذٌ كَثِيرُ ٱلْحَلَاوَةِ إِذَا كَانَ رَطْبًا

نَخْلٌ. شَجَرَةٌ مُبَارَكَةٌ لَا تُوجَدُ إِلَّا بِبِلَادِ ٱلْإِسْلَامِ قَالَ عَمَّتُكُمُ ٱلنَّخْلَةُ وَإِنَّمَا سَمَّاهَا عَمَّتَنَا لِأَنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ فَضْلَةِ طِينِ آدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَهِيَ تُشْبِهُ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ ٱسْتِقَامَةِ قَدِّهَا وَطُولِهَا وَٱمْتِيَازِ ذَكَرِهَا عَنْ أُنْثَاهَا وَٱخْتِصَاصِهَا بِٱللِّقَاحِ. وَلَوْ قُطِعَ رَأْسُهَا هَلَكَتْ. لِطَلْعِهَا غِلَافٌ كَٱلْمَشِيمَةِ ٱلَّتِي يَكُونُ ٱلْوَلَدُ فِيهَا. وَٱلْجُمَّارُ ٱلَّذِي عَلَى رَأْسِهَا لَوْ أَصَابَهُ آفَةٌ هَلَكَتِ ٱلنَّخْلَةُ كَهَيْئَةِ مُخِّ ٱلْإِنْسَانِ إِذَا أَصَابَهُ آفَةٌ. وَإِذَا قُطِعَ مِنْهَا غُصْنٌ لَا يَرْجِعُ بَدَلُهُ كَعُضْوِ ٱلْإِنْسَانِ وَعَلَيْهَا لِيفٌ كَشَعْرٍ يَكُونُ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ

قَالَ صَاحِبُ ٱلْفَلَاحَةِ إِذَا لَمْ يُثْمِرْ شَيْءٌ مِنَ ٱلنَّخْلِ يَأْخُذُ رَجُلٌ فَأْسًا وَيَقْرُبُ مِنْهَا وَيَقُولُ لِغَيْرِهِ إِنِّي أُرِيدُ قَطْعَ هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ لِأَنَّهَا لَا تُثْمِرُ. فَيَقُولُ ٱلْآخَرُ لَا تَفْعَلْ فَإِنَّهَا تُثْمِرُ فِي هٰذِهِ ٱلسَّنَةِ فَيَقُولُ ٱلرَّجُلُ إِنَّهَا لَا تَفْعَلُ شَيْئًا وَيَضْرِبُهَا ضَرْبَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً فَيُمْسِكُهُ ٱلْآخَرُ بِيَدِهِ وَيَقُولُ لَا تَفْعَلْ فَإِنَّهَا شَجَرَةٌ حَسَنَةٌ وَٱصْبِرْ عَلَيْهَا هٰذِهِ ٱلسَّنَةَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَٱفْعَلْ مَا بَدَا لَكَ. قَالَ فَإِذَا فَعَلَ ذٰلِكَ فَإِنَّ ٱلشَّجَرَةَ تُثْمِرُ ثَمَرًا كَثِيرًا وَكَذٰلِكَ غَيْرُ ٱلنَّخْلِ مِنَ ٱلْأَشْجَارِ إِذَا فُعِلَ بِهِ هٰذَا فَإِنَّهُ يُثْمِرُ. قَالَ أَيْضًا إِذَا قَارَبْتَ بَيْنَ ذُكْرَانِ ٱلنَّخْلِ وَإِنَاثِهَا فَإِنَّهَا تُكْثِرُ حَمْلَهَا لِأَنَّهَا تَسْتَأْنِسُ بِٱلْمُجَاوَرَةِ وَرُبَّمَا قُطِعَ إِلْفُهَا مِنَ ٱلذُّكْرَانِ فَلَا تَحْمِلُ شَيْئًا لِفِرَاقِهِ. وَإِذَا غَرَسْتَ ٱلذُّكْرَانَ وَسَطَ ٱلْإِنَاثِ وَهَبَّتِ ٱلرِّيحُ فَخَالَطَتِ ٱلْإِنَاثَ رَائِحَةُ طَلْعِ ٱلذُّكْرَانِ حَمَلَتْ مِنْ تِلْكَ ٱلرَّائِحَةِ كُلُّ أُنْثَى حَوْلَهُ

ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلنَّبَاتِ

ٱلنُّجُومُ

ٱلنَّجْمُ كُلُّ نَبَاتٍ لَيْسَ لَهُ سَاقٌ صُلْبٌ مُرْتَفِعٌ مِثْلُ ٱلزُّرُوعِ وَٱلْبُقُولِ وَٱلرَّيَاحِينِ وَٱلْحَشَائِشِ ٱلْبَرِّيَّةِ ...... وَمِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْعَجِيبَةِ ٱلْقُوَّةُ ٱلَّتِي خَلَقَهَا ٱللهُ فِي نَفْسِ ٱلْحَبِّ فَإِنَّهَا إِذَا وَقَعَتْ فِي ٱلْأَرْضِ جَذَبَتْ بِوَاسِطَةِ تِلْكَ ٱلْقُوَّةِ ٱلرُّطُوبَةَ مِنْ نَفْسِ ٱلْأَرْضِ مِمَّا حَوَالَيْهَا كَمَا تَجْذُبُ شُعْلَةُ ٱلنَّارِ فِي ٱلسِّرَاجِ تِلْكَ ٱلرُّطُوبَةَ فَتَعْمَلُ فِيهَا ٱلْقُوَى ٱلطَّبِيعِيَّةُ بِإِرَادَةِ ٱللهِ تَعَالَى حَتَّى تَبْلُغَ كَمَالَهَا كَمَا أَرَادَ ٱللهُ تَعَالَى. وَٱلنُّجُومُ فِي ٱلنَّبَاتِ كَٱلْحَيَوَانِ ٱلصَّغِيرِ فِي ٱلْحَيَوَانِ ٱلْكَبِيرِ فَكَمَا أَنَّ عِنْدَ شِدَّةِ ٱلْبَرْدِ لَا يَبْقَى مِنَ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلَّتِي لَا عِظَمَ لَهَا شَيْءٌ فَكَذَٰلِكَ لَا يَبْقَى مِنَ ٱلنَّبَاتِ ٱلَّتِي لَيْسَ لَهَا خَشَبٌ صُلْبٌ شَيْءٌ

وَٱعْلَمْ أَنَّ عُقُولَ ٱلْعُقَلَاءِ مُتَحَيِّرَةٌ فِي أَمْرِ ٱلْحَشَائِشِ وَعَجَائِبِهَا وَأَفْهَامَ ٱلْأَذْكِيَاءِ قَاصِرَةٌ عَنْ ضَبْطِ خَوَاصِّهَا وَفَوَائِدِهَا وَكَيْفَ لَا مَعَ مَا يُشَاهَدُ مِنِ ٱخْتِلَافِ صُوَرِ قُضْبَانِهَا وَٱخْتِلَافِ أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا وَعَجِيبِ صُوَرِ أَوْرَاقِهَا وَأَزْهَارِهَا . وَكُلُّ لَوْنٍ مِنْهَا يَنْقَسِمُ إِلَى أَقْسَامٍ كَٱلْحُمْرَةِ مَثَلًا فَإِنَّهَا وَرْدِيٌّ وَأُرْجُوَانِيٌّ وَسُوسَنِيٌّ وَشَقَائِقِيٌّ وَأَذْرِيُونِيٌّ وَإِلَى غَيْرِ ذَٰلِكَ مَعَ ٱشْتِرَاكِ كُلِّهَا فِي ٱلْحُمْرَةِ . ثُمَّ عَجَائِبُ رَوَائِحِهَا وَمُخَالَفَةُ بَعْضِهَا بَعْضًا مَعَ ٱشْتِرَاكِ ٱلْكُلِّ فِي ٱلطِّيبِ . ثُمَّ عَجَائِبُ أَشْكَالِ حُبُوبِهَا فَإِنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ شَكْلَ وَوَرَقٍ وَعِرْقٍ وَزَهْرٍ وَلَوْنٍ وَطَعْمٍ وَرَائِحَةٍ وَخَاصِّيَّةٍ بَلْ خَاصِّيَّاتٌ لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا ٱللهُ تَعَالَى وَٱلَّتِي عَرَفَهَا ٱلْإِنْسَانُ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى مَا لَمْ يَعْرِفْهُ

كَقَطْرَةٍ مِنْ بَحْرٍ. وَلْنَذْكُرْ شَيْئًا مِنْ خَوَاصِّهَا مُرَتَّبَةً عَلَى حُرُوفِ ٱلْمُعْجَمِ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى

بِيشٌ. نَبَاتٌ يَنْبُتُ بِأَرْضِ ٱلْهِنْدِ نِصْفُ دِرْهَمٍ مِنْهُ سَمٌّ قَاتِلٌ وَعَلَامَتُهُ أَنَّهُ يَعْرِضُ لِمَنْ سُقِيَ مِنْهُ جُحُوظُ ٱلْعَيْنِ وَوَرَمُ ٱلشَّفَتَيْنِ وَٱللِّسَانِ وَٱلدُّوَارُ وَٱلْغَشْيُ. وَٱلسُّمَانَى يَعْتَلِفُ مِنْهُ وَلَا يَضُرُّهُ شَيْئًا وَكَذٰلِكَ فَأْرَةُ ٱلْبِيشِ وَهُوَ حَيَوَانٌ يَسْكُنُ فِي أَصْلِهِ وَيَأْكُلُ مِنْهُ. قَالَ ٱبْنُ سِينَا إِنَّهُ يُذْهِبُ ٱلْبَرَصَ طِلَاءً وَشُرْبًا وَيَنْفَعُ مِنَ ٱلْجُذَامِ وَهُوَ سَمٌّ قَاتِلٌ يَقْتُلُ مِنْهُ نِصْفُ دِرْهَمٍ وَتِرْيَاقُهُ فَأْرَةُ ٱلْبِيشِ

دِفْلَى. مِنْهُ بَرِّيٌّ وَنَهْرِيٌّ فَٱلْبَرِّيُّ وَرَقُهُ كَوَرَقِ ٱلْحَمْقَى بَلْ أَدَقُّ وَقُضْبَانُهُ طِوَالٌ مُنْبَسِطَةٌ عَلَى ٱلْأَرْضِ يَنْبُتُ فِي ٱلْخَرَابَاتِ. وَٱلنَّهْرِيُّ عَلَى شُطُوطِ ٱلْأَنْهَارِ وَتَنْهَضُ قُضْبَانُهُ عَلَى ٱلْأَرْضِ وَشَوْكُهُ خَفِيٌّ وَوَرَقُهُ كَوَرَقِ ٱلْخِلَافِ وَأَعْلَى سَاقِهِ أَغْلَظُ مِنْ أَسْفَلِهِ وَفُقَّاحُهُ كَٱلْوَرْدِ ٱلْأَحْمَرِ وَثَمَرَتُهُ صُلْبَةٌ مَحْشُوَّةٌ شَيْئًا كَٱلصُّوفِ. قَالَ ٱبْنُ سِينَا وَرَقُهُ تَهْرُبُ مِنْهُ ٱلْبَرَاغِيثُ وَأَكْلُهُ يَقْتُلُ آكِلَهُ مِنْ جَمِيعِ بَنِي آدَمَ وَسَائِرِ ٱلْحَيَوَانَاتِ

قَالَ بَلِنْيَاسُ عَلِمَ بَعْضُ ٱلْمُلُوكِ بِعَدُوٍّ قَصَدَهُ فِي عَسْكَرٍ لَا طَاقَةَ لَهُ بِهِ فَأَخَذَ مِنَ ٱلشَّعِيرِ وَطَبَخَهُ بِٱلدِّفْلَى وَتَرَكَهُ حَتَّى جَفَّ وَأَخَذَ ٱلشَّعِيرَ مَعَهُ وَخَرَجَ إِلَى وَجْهِ ٱلْعَدُوِّ. فَلَمَّا قَرُبَ مِنَ ٱلْعَدُوِّ تَنَحَّى عَنْهُ وَتَرَكَ ٱلْأَثْقَالَ وَٱلْمِيرَةَ وَٱلشَّعِيرَ. فَوَرَدَ عَسْكَرُ ٱلْعَدُوِّ وَأَطْلَقُوا دَوَابَّهُمْ فِي ٱلشَّعِيرِ فَهَلَكَتْ كُلُّهَا فَكَرَّ عَلَيْهِمْ وَأَسَرَهُمْ

قِثَّاءٌ. قَالَ صَاحِبُ ٱلْفَلَاحَةِ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ ٱلْقِثَّاءُ عَلَى صُورَةٍ

شَيْءٍ مِنَ ٱلْحَيَوَانَاتِ فَخُذْ قَالِبًا لِلصُّورَةِ ٱلَّتِي أَرَدْتَ وَٱجْعَلْهَا فِيهِ وَهِيَ صَغِيرَةٌ وَٱسْتَوْثِقْ مِنْهَا رَبْطًا بِحَيْثُ لَا يَدْخُلُ ٱلْقَالِبَ رِيحٌ وَلَا غُبَارٌ فَإِنَّهَا إِذَا عَظُمَتْ فِيهَا كَانَتْ عَلَى صُورَةِ ٱلْقَالِبِ ٱلَّذِي جَعَلْتَهَا فِيهِ

ٱلنَّظَرُ ٱلثَّالِثُ

فِي ٱلْحَيَوَانِ

أَمَّا ٱلْحَيَوَانُ فَفِي ٱلْمَرْتَبَةِ ٱلثَّالِثَةِ مِنَ ٱلْكَائِنَاتِ وَأَبْعَدُ ٱلْمُوَلَّدَاتِ عَنِ ٱلْأُمَّهَاتِ لِأَنَّ ٱلْمَرْتَبَةَ ٱلْأُولَى لِلْمَعَادِنِ وَهِيَ بَاقِيَةٌ عَلَى ٱلْجَمَادِيَّةِ لِقُرْبِهَا مِنَ ٱلْبَسَائِطِ . وَٱلْمَرْتَبَةَ ٱلثَّانِيَةَ لِلنَّبَاتِ فَإِنَّهَا مُتَوَسِّطَةٌ بَيْنَ ٱلْمَعَادِنِ لِحُصُولِ ٱلنَّشْءِ وَٱلنُّمُوِّ وَفَوَاتِ ٱلْحِسِّ وَٱلْحَرَكَةِ. وَٱلْمَرْتَبَةَ ٱلثَّالِثَةَ لِلْحَيَوَانِ فَإِنَّهُ قَدْ جَمَعَ بَيْنَ ٱلنَّشْءِ وَٱلنُّمُوِّ وَٱلْحِسِّ وَٱلْحَرَكَةِ . وَهٰذِهِ قُوًى مَوْجُودَةٌ فِي جَمِيعِ أَفْرَادِ ٱلْحَيَوَانِ حَتَّى فِي ٱلذُّبَابِ وَٱلْبَعُوضِ

وَأَمَّا ٱلْحِسُّ فَلِأَنَّ ٱللهَ تَعَالَى لَمَّا قَضَى لِكُلِّ حَيَوَانٍ أَمَدًا مَعْلُومًا . وَأَبْدَانُ ٱلْحَيَوَانِ مُتَعَرِّضَةٌ لِلْآفَاتِ ٱلْمُفْسِدَةِ لَهَا ٱلْمُهْلِكَةِ إِيَّاهَا فَٱقْتَضَتِ ٱلْحِكْمَةُ ٱلْإِلٰهِيَّةُ لَهَا ٱلْقُوَّةَ ٱلْإِحْسَاسِيَّةَ لِتَشْعُرَ بِوَاسِطَتِهَا بِٱلْمُنَافِي فَتَدْفَعُهُ عَنْ نَفْسِهَا إِذَا أَحَسَّتْ بِأَلَمِهِ. فَلَوْلَا هٰذِهِ ٱلْقُوَّةُ لَمَا أَحَسَّ ٱلْحَيَوَانُ بِٱلْجُوعِ إِلَى أَنْ مَاتَ بَغْتَةً فَجْأَةً مِنْ عَدَمِ ٱلْغِذَاءِ وَلَكَانَ إِذَا نَامَ فَأَصَابَ يَدَهُ أَوْ رِجْلَهُ نَارٌ لَمْ يَكُنْ يُحِسُّ بِهِ حَتَّى يَنْتَبِهَ مِنْ نَوْمِهِ فَإِذَا هُوَ بِلَا يَدٍ أَوْ رِجْلٍ.

وَأَمَّا ٱلْحَرَكَةُ فَلِأَنَّ ٱلْحَيَوَانَ لَمَّا كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى ٱلْغِذَاءِ وَلَمْ يَكُنْ غِذَاؤُهُ بِجَنْبِهِ فِي جَمِيعِ ٱلْأَوْقَاتِ ٱقْتَضَتِ ٱلْحِكْمَةُ ٱلْإِلٰهِيَّةُ لَهُ آلَاتِ ٱلْحَرَكَةِ لِيَتَحَرَّكَ بِهَا إِلَى ٱلْغِذَاءِ . وَلَوْلَا هٰذِهِ ٱلْقُوَّةُ وَٱحْتَاجَ ٱلْحَيَوَانُ إِلَى ٱلْغِذَاءِ وَلَمْ

يقدر على ٱلمشي إليه فمات جوعًا كشجرة لا تجد ٱلماء حتى تجف ولكان إذا أصابه آفة من حرق أو غرق بقي على مكانه حتى أدركه ٱلحرق أو ٱلغرق

ولما كانت ٱلحيوانات بعضها عدوًا لبعض ٱقتضت ٱلحكمة ٱلإلهية لكل حيوان آلة يحفظ بها نفسه من عدوه. فمنها ما يدفع ٱلعدو بٱلقوة وٱلمقاومة كٱلفيل وٱلجاموس وٱلأسد. ومنها ما يسلم من عدوه بٱلفرار فأُعطي آلة ٱلفرار كٱلظباء وٱلأرانب وٱلطيور. ومنها ما يحفظ نفسه بسلاح كٱلقنفذ وٱلشيهم وٱلسلحفاة. ومنها يحفظ نفسه بحصن كٱلفار وٱلحية وٱلهوام. ومن مقتضى ٱلحكمة ٱلإلهية أن خلق لكل حيوان من ٱلأعضاء ما يتوقف عليه بقاء ذاته ونوعه لا زائدًا ولا ناقصًا. [illegible]بذلك ٱختلفت أشكالها وأعضاؤها وتنوعت أنواعًا كثيرة

ولنذكر ٱلآن بعض أنواع ٱلحيوان وعجائبها وخواصها

إن شاء ٱلله تعالى

ٱلنوع ٱلأول

ٱلإنسان

[illegible] أنَّ ٱلإنسانَ مجمو[illegible]كَّبٌ من ٱلنفس وٱلبدن فإنه أشرف ٱلحيوانات وخلاصة ٱلمخلوقات [illegible]ـه ٱلله تعالى في أحسن صورة روحًا وبدنًا وخصصه بٱلنطق وٱلعقل سرًّا وعلنًا وزين ظاهره بٱلحواس وٱلحظ ٱلأوفى وباطنه بٱلقوى ما هو أ[illegible]رف وأقوى وهيأ للنفس ٱلناطقة ٱلدماغ وأسكنه أعلى محل وأوفق [illegible]ـنه بٱلفكر وٱلذكر

وَٱلْحِفْظِ وَسَلَّطَ عَلَيْهِ ٱلْجَوَاهِرَ ٱلْعَقْلِيَّةَ لِتَكُونَ ٱلنَّفْسُ أَمِيرًا وَٱلْعَقْلُ وَزِيرَهُ وَٱلْقُوَى جُنُودَهُ وَٱلْحِسُّ ٱلْمُشْتَرِكُ بَرِيدَهُ وَٱلْأَعْضَاءُ خَدَمَهُ وَٱلْبَدَنُ مَحَلَّ سَمْلَكَتِهِ. وَٱلْحَوَاسُّ يُسَافِرُونَ فِي جَمِيعِ ٱلْأَوْقَاتِ فِي عَالَمِهِمْ وَيَلْتَقِطُونَ ٱلْأَخْبَارَ ٱلْمُوَافِقَةَ وَٱلْمُخَالِفَةَ وَيَعْرِضُونَهَا عَلَى ٱلْحِسِّ ٱلْمُشْتَرِكِ ٱلَّذِي هُوَ وَاسِطَةٌ بَيْنَ ٱلنَّفْسِ وَٱلْحَوَاسِّ عَلَى بَابِ ٱلْمَدِينَةِ وَهُوَ يَعْرِضُهَا عَلَى ٱلْقُوَّةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ تَخْتَارُ مَا يُوَافِقُ وَتَطْرَحُ مَا لَا يُوَافِقُ

فَمِنْ هٰذَا ٱلْوَجْهِ قَالُوا ٱلْإِنْسَانُ عَالَمٌ صَغِيرٌ وَمِنْ حَيْثُ أَنَّهُ يَتَغَذَّى وَيَنْمُو قَالُوا نَبَاتٌ وَمِنْ حَيْثُ أَنَّهُ يَحِسُّ وَيَتَحَرَّكُ قَالُوا حَيَوَانٌ وَمِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَعْلَمُ حَقَائِقَ ٱلْأَشْيَاءِ قَالُوا مَلَكٌ فَصَارَ مَجْمَعًا لِهٰذِهِ ٱلْمَعَانِي. فَإِذَا صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى جِهَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْجِهَاتِ يَلْتَحِقُ بِهَا. وَإِنْ كَانَ قَدْ صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى جِهَةِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ فَيَكُونُ رَضِيًّا مِنْ دُنْيَاهُ بِٱلتَّغَذِّي وَتَنْقِيَةِ ٱلْفُضُولِ. وَإِنْ كَانَ إِلَى ٱلْحَيَوَانِيَّةِ فَيَكُونُ إِمَّا غَضُوبًا كَسَبُعٍ أَوْ شَبِقًا كَتَيْسٍ أَوْ أَكُولًا كَثَوْرٍ أَوْ شَرِهًا كَخِنْزِيرٍ أَوْ ضَرِعًا كَكَلْبٍ أَوْ حَقُودًا كَجَمَلٍ أَوْ مُتَكَبِّرًا كَنَمِرٍ أَوْ ذَا رَوَغَانٍ كَثَعْلَبٍ أَوْ يَجْمَعُ هٰذَا كُلَّهُ فَيَكُونُ شَيْطَانًا مَرِيدًا. وَإِنْ كَانَ صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى ٱلْجِهَةِ ٱلْمَلَكِيَّةِ فَيَكُونُ مُتَوَجِّهًا إِلَى ٱلْعَالَمِ ٱلْأَعْلَى وَلَا يَرْضَى بِٱلْمَنْزِلِ ٱلْأَسْفَلِ وَٱلْمَرْبَعِ ٱلْأَدْنَى

ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْقُوَى

ٱلْقُوَى صِنْفٌ مِنَ ٱلْمَلٰئِكَةِ خَلَقَهَا ٱللّٰهُ تَعَالَى لِتَدْبِيرِ ٱلْأَبْدَانِ وَقِوَامِ مَنَافِعِ أَعْضَائِهَا مِنَ ٱلْأَفْعَالِ وَٱلْإِدْرَاكَاتِ فَتُشْبِهُ أَفْعَالُهَا فِيهَا أَفْعَالَ صُنَّاعِ ٱلْبِلَادِ وَسُكَّانِهَا. فَإِنَّ حَالَ ٱلْبَدَنِ مَعَ ٱلرُّوحِ وَهٰذِهِ ٱلْقُوَى تُشْبِهُ

مَدِينَةَ عَامِرَةً بِآلَائِهَا مَأْنُوسَةً بِسُكَّانِهَا مَفْتُوحَةَ الْأَسْوَاقِ مَسْلُوكَةَ الطُّرُقَاتِ مُشْتَغِلَةَ الصُّنَّاعِ وَحَالَهُ عِنْدَ النَّوْمِ وَهُدُوءِ الْحَوَاسِّ وَسُكُونِ الْحَرَكَاتِ تُشْبِهُ حَالَ الْمَدِينَةِ بِاللَّيْلِ إِذَا غُلِقَتْ أَبْوَابُهَا وَتَعَطَّلَتْ صُنَّاعُهَا وَنَامَ أَهْلُهَا

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّ الْبَدَنَ كَبَيْتٍ مُنَقَّشٍ بِنُقُوشٍ غَرِيبَةٍ وَصُوَرٍ عَجِيبَةٍ وَأَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ. وَالْقُوَى تِلْكَ النُّقُوشُ وَالصُّوَرُ وَالنَّفْسُ كَالسِّرَاجِ الَّذِي يُدَارُ فِي أَطْرَافِ الْبَيْتِ وَبِسَبَبِ وُصُولِ ضَوْءِهِ إِلَى أَجْزَاءِ الْبَيْتِ يُرَى فِي سَقْفِهِ وَحِيطَانِهِ وَفَرْشِهِ عَجَائِبُ تَبْهَرُ فِيهَا بَلْ فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا مِثْلُ الْحِسِّ وَالْعَقْلِ وَالْفَهْمِ وَالْقُوَى الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ وَالْجَمَالِ وَغَيْرِهَا. فَإِذَا فَارَقَ النَّفْسَ بَطَلَتْ هٰذِهِ الْمَعَانِي كُلُّهَا كَمَا أَنَّ الْبَيْتَ عِنْدَ انْطِفَاءِ السِّرَاجِ لَا يُرَى لِتِلْكَ الصُّوَرِ وَالنُّقُوشِ أَثَرٌ. وَعَجَائِبُ الْقُوَى خَارِجَةٌ عَنِ الْفَهْمِ لٰكِنْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَذْكُرَ بَعْضَ مَا أَدْرَكَهُ أَذْكِيَاءُ النُّفُوسِ مِنَ الْحُكَمَاءِ مِنَ الْعَجَائِبِ الْمَوْدُوعَةِ فِي الْأَنْوَاعِ الْأَرْبَعَةِ مِنَ الْقُوَى

الْقُوَى الظَّاهِرَةُ وَهِيَ الْحَوَاسُّ الْخَمْسُ

الْأَوَّلُ حَاسَّةُ اللَّمْسِ وَهِيَ قُوَّةٌ مُنْبَثَّةٌ فِي جَمِيعِ جِلْدِ الْبَدَنِ يُدْرِكُ بِهَا مَا يُلَاقِيهِ وَيُؤَثِّرُ فِيهِ. فَإِنَّهَا أَوَّلُ حَاسَّةٍ خُلِقَتْ لِلْحَيَوَانِ حَتَّى إِذَا مَسَّتْهُ نَارٌ أَوْ حَدِيدٌ جَارِحٌ يُحِسُّ بِهِ فَيَهْرُبُ مِنْهُ وَلَا يُتَصَوَّرُ حَيَوَانٌ إِلَّا وَلَهُ هٰذَا الْحِسُّ حَتَّى الدُّودَةُ الَّتِي فِي الطِّينِ فَإِنَّهَا إِذَا غُرِزَ فِيهَا إِبْرَةٌ انْقَبَضَتْ

الثَّانِيَةُ الشَّمُّ وَهِيَ قُوَّةٌ فِي مُقَدَّمِ الدِّمَاغِ تُدْرِكُ الرَّوَائِحَ الَّتِي يُؤَدِّيهَا

ٱلْهَوَاءُ ٱلْمُتَكَيِّفُ بِتِلْكَ ٱلْكَيْفِيَّةِ

أَلثَّالِثَةُ ٱلْبَصَرُ وَهِيَ قُوَّةٌ مُرَتَّبَةٌ فِي عَصَبَةٍ مُجَوَّفَةٍ فِي ٱلْعَيْنِ تُدْرِكُ بِحُصُولِ ٱلْأَشْيَاءِ ذَوَاتِ ٱلصُّوَرِ وَٱلْأَلْوَانِ. فَإِنَّ ٱلضَّوْءَ إِذَا سَرَى فِي ٱلْأَجْسَامِ ٱلشَّفَّافَةِ وَحَمَلَ مَعَهُ أَلْوَانَ ٱلْأَجْسَامِ وَٱتَّصَلَ بِحَدَقَةِ ٱلْحَيَوَانِ وَسَرَى فِيهَا كَمَا يَسْرِي فِي ٱلْأَجْسَامِ ٱلشَّفَّافَةِ ٱنْصَبَغَتِ ٱلْحَدَقَةُ بِتِلْكَ ٱلْأَلْوَانِ كَمَا يَنْصَبِغُ ٱلْهَوَاءُ بِٱلضِّيَاءِ فَعِنْدَ ذٰلِكَ يُحَسُّ بِٱلْقُوَّةِ ٱلْبَاصِرَةِ

أَلرَّابِعَةُ ٱلسَّمْعُ وَهِيَ قُوَّةٌ مُرَتَّبَةٌ فِي عَصَبٍ دَاخِلَ ٱلصِّمَاخِ تُدْرِكُ ٱلصَّوْتَ ٱلَّذِي يُؤَدِّي إِلَيْهِ ٱلْهَوَاءُ بِٱلتَّمَوُّجِ وَحَالُهُ تُشْبِهُ بِتَمَوُّجِ ٱلْمَاءِ فَإِنَّ ٱلْهَوَاءَ أَشَدُّ لَطَافَةً مِنَ ٱلْمَاءِ. فَإِذَا وَقَعَ شَيْءٌ فِي ٱلْمَاءِ تَحْدُثُ مِنْ وُقُوعِهِ دَوَائِرُ فَكُلَّمَا ٱتَّسَعَ ذٰلِكَ ٱلشَّكْلُ ضَعُفَتْ حَرَكَتُهُ وَتَمَوُّجُهُ إِلَى أَنْ يَضْمَحِلَّ. فَكَذٰلِكَ يَحْصُلُ مِنْ قَرْعِ ٱلصَّوْتِ ٱلْهَوَاءَ تَمَوُّجٌ فَأَيُّ سَامِعٍ حَصَلَ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَوْجِ دَخَلَ أُذُنَهُ فَتُحِسُّ بِهِ ٱلْقُوَّةُ ٱلسَّامِعَةُ

أَلْخَامِسَةُ ٱلذَّوْقُ وَهِيَ قُوَّةٌ مُنْبَثَّةٌ فِي جِرْمِ ٱللِّسَانِ يُدْرِكُ بِهَا مَا يُمَاسُّهُ مِنَ ٱلْمَطْعُومِ بِوَاسِطَةِ ٱلرُّطُوبَةِ ٱلْعَذْبَةِ ٱلَّتِي تَحْتَ ٱللِّسَانِ. فَإِنَّ تِلْكَ ٱلرُّطُوبَةَ تُخَالِفُ ٱلْجِسْمَ ٱلَّذِي فِيهِ كَيْفِيَّةُ ٱلطَّعْمِ فَتَتَكَيَّفُ بِتِلْكَ ٱلْكَيْفِيَّةِ فَيَحْصُلُ ٱلْإِحْسَاسُ بِٱلطَّعْمِ

فَصْلٌ فِي ٱلدَّوَابِّ
وَهِيَ ٱلنَّوْعُ ٱلثَّالِثُ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ

هٰذَا ٱلنَّوْعُ أَحْسَنُ ٱلْبَهَائِمِ صُورَةً وَأَكْثَرُهَا نَفعًا . وَلَمَّا كَانَ ٱلْإِنْسَانُ لَطِيفَ ٱلْبَدَنِ بَطِيَّ ٱلْمَشْيِ كَثِيرَ ٱلْعَدُوِّ مِنْ جِنْسِهِ وَتَحْتَ جِنْسِهِ وَحَرَكَاتُهُ قَاصِرَةٌ عَنِ ٱلْوَفَاءِ بِمَقَاصِدِهِ مِنَ ٱلطَّلَبِ وَٱلْهَرَبِ ٱقْتَضَتِ ٱلْحِكْمَةُ ٱلْإِلٰهِيَّةُ خَلْقَ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ وَهَدَاهُ إِلَى تَذْلِيلِهَا وَتَصْرِيفِهَا تَحْتَهُ فِي أَنْحَاءِ مَقَاصِدِهِ لِتَقُومَ لَهُ مَقَامَ ٱلْجَنَاحِ لِلطَّائِرِ وَٱلْقَوَائِمِ لِلْبَهَائِمِ وَٱلدَّوَابِّ. وَزَعَمُوا أَنَّ آذَانَهَا إِنَّمَا خُلِقَتْ فَوْقَ رَأْسِهَا ذَاتَ حَرَكَاتٍ شَتَّى لِيُحَاذِيَ ٱلثَّقْبُ جِهَاتٍ شَتَّى وَتَرِدَ ٱلْهَوَاءُ إِلَيْهِ فَتَكُونَ فَائِدَةُ ٱلسَّمْعِ أَكْثَرَ. وَلَمَّا كَانَ ٱلْفَرَسُ أَذْكَى حِسًّا مِنَ ٱلْحِمَارِ خُلِقَتْ أُذُنُهُ أَصْغَرَ مِنْ أُذُنِ ٱلْحِمَارِ وَذَنَبُهُ أَطْوَلَ مِنْ ذَنَبِ ٱلْحِمَارِ لِأَنَّ ٱلْفَرَسَ يَكْفِيهِ مِنْ قَرْعِ ٱلْهَوَاءِ دُونَ مَا يَكْفِي ٱلْحِمَارَ لِصَفَاءِ حِسِّ ٱلْفَرَسِ وَكُدُورَةِ حِسِّ ٱلْحِمَارِ وَكَذٰلِكَ طُولُ ذَنَبِهِ لِأَنَّ إِحْسَاسَهُ بِلَذْعِ ٱلْهَوَامِّ فَوْقُ إِحْسَاسِ ٱلْحِمَارِ فَجُعِلَ طَاقَاتُ ذَنَبِهِ طَوِيلَةً لِيَطْرُدَ بِهَا ٱلْهَوَامَّ عَنْ بَدَنِهِ

وَلَمَّا كَانَ ٱلْمَطْلُوبُ مِنَ ٱلدَّوَابِّ ٱلسَّيْرَ صُلِبَتْ حَوَافِرُهَا لِيُمْكِنَ ٱلْمَشْيُ ٱلْكَثِيرُ عَلَيْهَا وَلِتَكُونَ سِلَاحًا دَافِعًا لِلْعَدُوِّ . فَإِنَّ كُلَّ حَيَوَانٍ لَهُ حَافِرٌ لَا قَرْنَ لَهُ لِأَنَّ ٱلْمَادَّةَ لَا تَفِي بِهِمَا جَمِيعًا وَكُلُّ حَيَوَانٍ لَهُ قَرْنٌ لَا حَافِرَ لَهُ بَلْ لَهُ ظِلْفٌ فَإِنَّ ٱلْمَادَّةَ تَفِي بِهِمَا جَمِيعًا فَتَتِمُّ آلَةُ ٱلْمَشْيِ وَٱلسِّلَاحِ فَسُبْحَانَ مَنْ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ مَا يَسْتَحِقُّهُ دُونَ ٱلزِّيَادَةِ وَٱلنُّقْصَانِ

فَصْلٌ فِي ٱلنَّعَمِ وَهِيَ ٱلنَّوْعُ ٱلرَّابِعُ

هٰذَا ٱلنَّوْعُ كَثِيرُ ٱلْفَائِدَةِ شَدِيدُ ٱلِانْقِيَادِ لَيْسَ لَهُ شَرَاسَةُ ٱلدَّوَابِّ وَلَا نَفْرَةُ ٱلسِّبَاعِ وَلِشِدَّةِ حَاجَةِ ٱلنَّاسِ إِلَيْهَا لَمْ يُخْلَقْ لَهَا سِلَاحٌ شَدِيدٌ كَأَنْيَابِ ٱلسِّبَاعِ وَبَرَاثِنِهَا وَأَنْيَابِ ٱلْحَشَرَاتِ وَإِبَرِهَا. شَأْنُهَا ٱلثَّبَاتُ وَٱلصَّبْرُ عَلَى ٱلتَّعَبِ وَٱلْجُوعِ وَٱلْعَطَشِ وَخُلِقَتْ ذَلُولًا. وَخُلِقَ ٱلْقَرْنُ سِلَاحًا لَهَا لِيَتَدَارَكَ تَقْصِيرَ ٱلْحَافِرِ وَجُعِلَ لَهَا بَدَلَ ٱلْحَافِرِ ظِلْفٌ لِقُصُورِ ٱلْمَادَّةِ عَنِ ٱلْحَافِرِ وَٱلْقَرْنِ. وَرُبَّمَا صُرِفَتِ ٱلْمَادَّةُ فِي جِهَةٍ أَنْفَعَ وَتُرِكَتِ ٱلْجِهَةُ ٱلَّتِي هِيَ أَقَلُّ نَفْعًا كَتَرْكِ ٱلْفَكِّ ٱلْأَعْلَى لِلْبَقَرِ بِلَا سِنٍّ وَصَرْفِ مَادَّتِهَا إِلَى ٱلْقَرْنِ

وَٱلْقُوَّةُ ٱلْمُدَبِّرَةُ بِإِذْنِ ٱللهِ تَعَالَى تُؤَيِّدُ ٱلْحَيَوَانَ إِمَّا بِسِلَاحٍ أَوْ جُنَّةٍ أَوْ هَرَبٍ وَأَيُّ هٰذِهِ فُقِدَتْ مَادَّتُهُ دُبِّرَتْ بِمَادَّةٍ أُخْرَى حَتَّى يَكُونَ لَهُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي بَقَاءِ شَخْصِهِ وَنَوْعِهِ

ثُمَّ إِنَّ ٱلنَّعَمَ لَمَّا كَانَ أَكْلُهَا ٱلْحَشِيشَ ٱقْتَضَتِ ٱلْحِكْمَةُ ٱلْإِلٰهِيَّةُ لَهَا أَفْوَاهًا وَاسِعَةً وَأَسْنَانًا حِدَادًا وَأَضْرَاسًا صِلَابًا لِتَطْحَنَ بِهَا ٱلصُّلْبَ مِنَ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَى. وَلَمَّا ٱفْتَقَرَتْ إِلَى زِيَادَةِ قُوَّةٍ لِتَتَمَكَّنَ مِنَ ٱلْعَمَلِ ٱلْمَطْلُوبِ مِنْهَا خُلِقَ لَهَا كَرِشٌ وَاسِعٌ لِتَحْمِلَ فِيهِ مِنَ ٱلْعَلَفِ شَيْئًا كَثِيرًا يَفِي بِغِذَاءِهَا وَإِذَا رَجَعَتْ إِلَى أَمَاكِنِهَا تَجْعَلُهُ بِٱلِاجْتِرَارِ مُتَهَيِّئًا لِلنُّضْجِ. فَعِنْدَ ذٰلِكَ تُمَيِّزُ طَبِيعَتُهَا لَطِيفَهُ مِنْ ثَقِيلِهِ فَتَجْعَلُ ٱلتِّبْنَ ٱلْيَابِسَ لَحْمًا وَدَمًا. وَمِنَ ٱلْعَجَبِ ٱلْقُوَّةُ ٱلَّتِي خَلَقَهَا ٱللهُ تَعَالَى فِي أَضْرَاسِهَا فَإِنَّهَا بِٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ فِي ٱلطَّحْنِ لَا تَفْتُرُ إِلَّا قَلِيلًا فَلَوْ كَانَتْ مِنَ ٱلْحَدِيدِ ٱلذَّكَرِ لَٱنْخَسَفَتْ وَتَفَتَّتَتْ

وَلْنَذْكُرْ بَعْضَ مَا يَتَعَلَّقُ بِوَاحِدٍ وَاحِدٍ

زَرَافَةٌ . رَأْسُهَا كَرَأْسِ ٱلْإِبِلِ وَقَرْنُهَا كَقَرْنِ ٱلْبَقَرِ وَجِلْدُهَا كَجِلْدِ ٱلنَّمِرِ وَقَوَائِمُهَا كَمَا لِلْبَعِيرِ وَأَظْلَافُهَا كَمَا لِلْبَقَرِ . طَوِيلَةُ ٱلْعُنُقِ جِدًّا طَوِيلَةُ ٱلْيَدَيْنِ قَصِيرَةُ ٱلرِّجْلَيْنِ وَصُورَتُهَا بِٱلْبَعِيرِ أَقْرَبُ وَجِلْدُهَا بِٱلْبَبْرِ أَشْبَهُ وَذَنَبُهَا كَذَنَبِ ٱلظِّبَاءِ . قَالُوا ٱلزَّرَافَةُ مُتَوَلِّدَةٌ مِنْ نَاقَةِ ٱلْحَبَشَةِ وَٱلْبَقَرَةِ ٱلْوَحْشِيَّةِ وَٱلضِّبْعَانِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلضِّبْعَانَ بِبِلَادِ ٱلْحَبَشَةِ يَسْفِدُ ٱلنَّاقَةَ فَتَجِيءُ بِوَلَدٍ بَيْنَ خِلْقَةِ ٱلنَّاقَةِ وَٱلضِّبْعَانِ . فَإِنْ كَانَ وَلَدُ تِلْكَ ٱلنَّاقَةِ ذَكَرًا وَلَحِقَ بِٱلْمَهَاةِ أَتَتْ بِٱلزَّرَافَةِ

وَحَكَى طِيمَاتُ ٱلْحَكِيمُ أَنَّ بِجَانِبِ ٱلْجَنُوبِ بِقُرْبِ خَطِّ ٱلِٱسْتِوَاءِ بِٱلصَّيْفِ تَجْتَمِعُ حَيَوَانَاتٌ مُخْتَلِفَةُ ٱلْأَنْوَاعِ عَلَى مَصَانِعِ ٱلْمَاءِ مِنْ شِدَّةِ ٱلْعَطَشِ فَرُبَّمَا سَافَدَتْ غَيْرَ أَنْوَاعِهَا فَيَتَوَلَّدُ مِنْهُ مِثْلُ ٱلزَّرَافَةِ وَٱلسِّمْعِ وَٱلسِّبَارِ وَأَمْثَالِهَا . وَٱلزَّرَافَةُ مِنَ ٱلْخَلْقِ ٱلْعَجِيبِ لَيْسَ عِنْدَهَا إِلَّا ظَرَافَةُ ٱلصُّورَةِ وَغَرَابَةُ ٱلنِّتَاجِ

ظِبَاءُ ٱلْمِسْكِ . فَإِنَّهَا كَظِبَاءِ بِلَادِنَا إِلَّا أَنَّ لَهَا نَابَيْنِ مُعَقَّفَيْنِ خَارِجَيْنِ مِنَ ٱلْفَمِ كَمَا لِلْفِيلِ . فَرُبَّمَا ٱصْطِيدَتْ وَٱلْمِسْكُ فِي سُرَّتِهَا غَيْرُ نَضِيجٍ تَكُونُ فِيهِ زُهُوكَةٌ وَسَبِيلُهُ سَبِيلُ ٱلثِّمَارِ إِذَا قُطِفَتْ قَبْلَ إِدْرَاكِهَا فَإِنَّهَا تَكُونُ نَاقِصَةَ ٱلطَّعْمِ وَٱلرَّائِحَةِ . وَأَجْوَدُ ٱلْمِسْكِ مَا أَلْقَاهُ ٱلْغَزَالُ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلطَّبِيعَةَ تَدْفَعُ مَوَادَّ ٱلدَّمِ إِلَى سُرَّتِهِ فَإِذَا ٱسْتَحْكَمَ ٱلدَّمُ فِيهَا وَنَضِجَ يَجِدُ مِنْ ذٰلِكَ أَذِيَّةً وَحِكَّةً فِي سُرَّتِهِ فَيَفْزَعُ حِينَئِذٍ إِلَى صَخْرَةٍ حَادَّةٍ فَيَحُكُّ فِيهَا مُلْتَذًّا بِذٰلِكَ فَتَنْفَجِرُ ٱلْمَادَّةُ حِينَئِذٍ وَتَسِيلُ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْحَجَرِ كَٱنْفِجَارِ

ٱلْخُرَاجِ وَٱلدَّمَامِيلِ إِذَا نَضِجَتْ فَيَجِدُ ٱلْغَزَالُ بِخُرُوجِهَا لَذَّةً . وَٱلنَّاسُ يَتْبَعُونَ مَرَاعِيَهَا فِي ٱلْجِبَالِ فَيَجِدُونَ ذٰلِكَ ٱلدَّمَ قَدْ جَمَدَ عَلَى تِلْكَ ٱلصُّخُورِ فَيَحُكُونَهُ وَيَدَعُونَهُ فِي نَوَافِجَ مَعَهُمْ مُعَدَّةٍ لِذٰلِكَ . فَذٰلِكَ أَفْضَلُ ٱلْمِسْكِ تَسْتَعْمِلُهُ مُلُوكُهُمْ وَيَتَهَادَوْنَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ

فَصْلٌ فِي ٱلسِّبَاعِ وَهِيَ ٱلنَّوْعُ ٱلْخَامِسُ

دُبٌّ . حَيَوَانٌ جَسِيمٌ يُحِبُّ ٱلْعُزْلَةَ فَإِذَا جَاءَ ٱلشِّتَاءُ يَدْخُلُ وِجَارَهُ ٱلَّذِي ٱتَّخَذَهُ فِي ٱلْغِيرَانِ وَلَا يَخْرُجُ حَتَّى يَطِيبَ ٱلْهَوَاءُ إِذَا جَاعَ يَمُصُّ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ فَيَدْفَعُ بِذٰلِكَ جُوعَهُ وَيَخْرُجُ مِنْ وِجَارِهِ فَصْلَ ٱلرَّبِيعِ أَسْمَنَ مِمَّا كَانَ . وَيُخَاصِمُهُ ٱلْبَقَرُ فَإِذَا نَطَحَهُ ٱلْبَقَرُ ٱسْتَلْقَى وَيَأْخُذُ بِيَدَيْهِ قَرْنَيْهِ وَيَعَضُّهُ عَضًّا شَدِيدًا يَقْهَرُهُ

وَٱلدُّبَّةُ إِذَا وَلَدَتْ يَكُونُ وَلَدُهَا كَقِطْعَةِ لَحْمٍ تَخَافُ عَلَيْهَا مِنَ ٱلنَّمْلِ فَتَنْقُلُهَا مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ فَإِذَا صَلُبَ بَدَنُ ٱلْوَلَدِ أَقَرَّتْهُ فِي مَوْضِعٍ . وَرُبَّمَا تَتْرُكُ أَوْلَادَهَا وَتُرْضِعُ وَلَدَ ٱلضَّبُعِ . وَلِهٰذَا تَقُولُ ٱلْعَرَبُ فُلَانٌ أَحْمَقُ مِنْ جَهِيزَةٍ وَهِيَ ٱلْأُنْثَى مِنَ ٱلدُّبِّ

فَصْلٌ فِي ٱلطُّيُورِ وَهِيَ ٱلنَّوْعُ ٱلسَّادِسُ

هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ مُخْتَصٌّ بِخِفَّةِ ٱلْبَدَنِ وَفَقْدِ أَعْضَاءٍ كَثِيرَةٍ وُجِدَتْ فِي غَيْرِهِ . وَٱلْحِكْمَةُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱللّٰهَ تَعَالَى لَمَّا خَلَقَ ٱلْحَيَوَانَ وَجَعَلَ بَعْضَهَا عَدُوًّا لِبَعْضٍ أَعْطَى لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِمَّا قُوَّةً وَسِلَاحًا يَدْفَعُ بِهَا عَدُوَّهُ كَمَا لِلدَّوَابِّ وَٱلسِّبَاعِ أَوْ آلَةً يَهْرُبُ بِهَا كَمَا لِلْوُحُوشِ وَٱلطُّيُورِ . وَأَمَّا ٱلْوُحُوشُ فَآلَاتُهَا قَوَائِمُهَا وَأَمَّا ٱلطُّيُورُ فَآلَاتُهَا أَجْنِحَتُهَا .

ثُمَّ إِنَّ هٰذِهِ ٱلْآلَةَ ٱقْتَضَتْ خِفَّةَ ٱلْجُثَّةِ إِذْ لَوْ كَانَتِ ٱلْجُثَّةُ كَبِيرَةً ٱقْتَضَتْ كِبَرَ ٱلْجَنَاحِ وَٱلْجَنَاحُ ٱلْكَبِيرُ لَا يَحْصُلُ مِنْهُ سُرْعَةُ ٱلطَّيَرَانِ بَلْ يَكُونُ طَيَرَانُهُ بَطِيئًا لَا يَزِيدُ عَلَى سُرْعَةِ ٱلْمَشْيِ فَلَا يَحْصُلُ ٱلْغَرَضُ ٱلْمَطْلُوبُ

وَمِنَ ٱلْعَجَائِبِ طَيَرَانُ ٱلطَّيْرِ فِي ٱلْهَوَاءِ وَعَدَمُ سُقُوطِهِ وَٱلْهَوَاءُ أَخَفُّ مِنْهُ وَهُوَ أَثْقَلُ مِنْهَا . فَلَمَّا ٱقْتَضَى هٰذِهِ ٱلْآلَةُ خِفَّةَ ٱلْجُثَّةِ نَقَصَ مِنْهَا أَعْضَاءٌ كَثِيرَةٌ تُوجَدُ فِي غَيْرِهَا مِنَ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلَّتِي تَلِدُ وَتُرْضِعُ لِيَخِفَّ عَلَيْهَا ٱلنُّهُوضُ وَيَسْهُلَ ٱلطَّيَرَانُ كَٱلْأَسْنَانِ وَٱلْآذَانِ وَٱلْكَرِشِ وَٱلْمَثَانَةِ وَخَرَزَاتِ ٱلظَّهْرِ وَٱلْجِلْدِ ٱلثَّخِينِ. وَإِذَا تَأَمَّلْتَ خِلْقَةَ ٱلطَّيْرِ وَجَدْتَ نِسْبَةَ قُدَّامِهِ إِلَى أَسْفَلِهِ كَنِسْبَةِ يَمِينِهِ إِلَى شِمَالِهِ فَإِنْ كَانَ طَوِيلَ ٱلرَّقَبَةِ تَطُولُ أَيْضًا رِجْلَاهُ وَلَمَّا قَصَرَتْ رَقَبَتُهُ قَصَرَتْ رِجْلَاهُ . وَلَوْ نُتِفَ ذَنَبُ ٱلطَّيْرِ لَمَالَ إِلَى قُدَّامٍ كَٱلسَّفِينَةِ ٱلَّتِي خَفَّ مُؤَخَّرُهَا . قَالَ ٱلْجَاحِظُ كُلُّ طَائِرٍ جَيِّدِ ٱلْجَنَاحِ يَكُونُ ضَعِيفَ ٱلرِّجْلَيْنِ كَٱلزَّرَازِيرِ وَٱلْعَصَافِيرِ وَإِذَا قُطِعَتْ رِجْلَاهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى ٱلطَّيَرَانِ كَمَا إِذَا قُطِعَتْ يَدُ ٱلْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى ٱلْعَدْوِ. وَكُلُّ طَائِرٍ يَعُبُّ ٱلْمَاءَ يَزُقُّ فَرْخَهُ . وَمِنَ ٱلطُّيُورِ مَا أُعْطِيَ ٱلْعَجَبَ فِي لَوْنِهِ كَٱلطَّاوُوسِ وَٱلْبَبْغَا وَأَبِي بَرَاقِشَ. وَمِنْهَا مَا أُعْطِيَ فِي حَلْقِهِ كَٱلْحَمَامِ . وَمِنْهَا مَا أُعْطِيَ فِي حَنْجَرَتِهِ كَٱلْبَلَابِلِ وَٱلْقَنَابِرِ . وَمِنْهَا مَا أُعْطِيَ ٱلْعَجَبَ فِي تَرْكِيبِ أَعْضَائِهِ كَٱللَّقَالِقِ وَٱلْكَرَاكِيِّ وَٱلنَّعَائِمِ . وَمِنْهَا مَا أُعْطِيَ فِي صَنْعَتِهِ كَٱلْخُطَّافِ وَٱلتَّنَوُّطِ وَٱلْقُنْبَرَةِ . وَسَنَذْكُرُ بَعْضَهَا وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ ٱلْعَجَبِ وَتَرْتِيبَ أَسْمَائِهَا عَلَى حُرُوفِ ٱلْمُعْجَمِ

بُلْبُلٌ. يُقَالُ لَهُ بِٱلْفَارِسِيَّةِ هَزَارْ دَسْتَانْ طَائِرٌ صَغِيرُ ٱلْجُثَّةِ سَرِيعُ ٱلْحَرَكَةِ

فَصِيحُ ٱللِّسَانِ كَثِيرُ ٱلْأَلْحَانِ يَسْكُنُ ٱلْبَسَاتِينَ وَلَهُ شَغَبٌ وَيُوجَدُ أَيَّامَ ٱلْوَرْدِ. يَقُولُونَ إِنَّهُ يُحِبُّ ٱلْوَرْدَ فَإِذَا رَأَى مَنْ يَقْطِفُهُ يُكْثِرُ صِيَاحَهُ. لَا يَصْبِرُ عَنِ ٱلْمَاءِ سَاعَةً لِفَرْطِ حَرَارَتِهِ وَلَا يَتَزَاوَجُ إِلَّا فِي ٱلْبَسَاتِينِ وَٱلرِّيحُ تَعْصِفُ بِهِ مِنْ صِغَرِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ ذٰلِكَ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ ٱلرِّيحِ لَمْ يَخْرُجْ أَصْلًا

حُبَارَى. طَائِرٌ يُقَالُ لَهُ بِٱلْفَارِسِيَّةِ جرزٌ قَالُوا مَا فِي ٱلطُّيُورِ أَشَدُّ بَلَهًا مِنْهَا لِأَنَّهَا تَتْرُكُ بَيْضَهَا وَتَحْضُنُ بَيْضَ غَيْرِهَا وَفِي ٱلْمَثَلِ كُلُّ شَيْءٍ يُحِبُّ وَلَدَهُ حَتَّى ٱلْحُبَارَى. وَإِذَا وَقَعَ ذَرْقُهُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ ٱلطُّيُورِ يَعْمَلُ عَمَلَ ٱلدِّبْقِ. وَٱلْعَرَبُ تَقُولُ ٱلْحُبَارَى سِلَاحُهُ سُلَاحُهُ. وَإِذَا قَصَدَهُ ٱلصَّقْرُ لَا يَزَالُ يَعْلُو وَيَنْزِلُ مَعَ ٱلصَّقْرِ حَتَّى يَجِدَ فُرْصَةً فَرَمَاهُ بِذَرْقِهِ يَبْقَى ٱلصَّقْرُ مُقَيَّدًا مِثْلَ ٱلْمَكْتُوفِ. فَعِنْدَ ذٰلِكَ تَجْتَمِعُ عَلَيْهِ ٱلْحُبَارَيَاتُ وَتَنْتِفُ رِيشَهُ وَفِي ذٰلِكَ هَلَاكُ ٱلصَّقْرِ. وَٱلْحُبَارَى إِذَا تَحَسَّرَ وَتَحَسَّرَ مَعَهُ شَيْءٌ مِنَ ٱلطُّيُورِ فَيَنْبُتُ رِيشُ صَاحِبِهِ قَبْلَهُ فَيَمُوتُ كَمَدًا يُقَالُ فِي ٱلْمَثَلِ مَاتَ كَمَدَ ٱلْحُبَارَى

خُطَّافٌ. طَائِرٌ لَا يَزَالُ يَنْتَقِلُ مِنَ ٱلصُّرُودِ إِلَى ٱلْجُرُومِ وَيَتْبَعُ ٱلرَّبِيعَ. إِذَا عَرَفَ ٱسْتِقْبَالَ ٱلصَّيْفِ يَأْخُذُ فِرَاخَهُ وَيَمْشِي بِهَا إِلَى ٱلْوَكْرِ ٱلَّذِي تَرَكَهُ فِي ٱلْبِلَادِ ٱلْأُخَرِ وَلَا يَبْقَى مِنْهَا وَاحِدٌ إِلَّا رَجَعَ إِلَى وَكْرِهِ ٱلْقَدِيمِ. وَيَتَّخِذُ ٱلْوَكْرَ مِنَ ٱلطِّينِ ٱلْمَخْلُوطِ بِٱلشَّعْرِ لِيَبْقَى بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ وَيَقْوَى كَطِينِ ٱلْحِكْمَةِ. وَمِنَ ٱلْعَجَبِ أَنْ يَعْمَلَ بَعْضَهُ وَيَتْرُكَهُ حَتَّى يَجِفَّ ثُمَّ يَعْمَلُ ٱلْبَعْضَ ٱلْآخَرَ. فَلَوْ عَمِلَهُ كُلَّهُ دَفْعَةً وَاحِدَةً لَتَثَاقَلَ وَسَقَطَ

وَإِذَا أَرَادَ ٱتِّخَاذَ ٱلْوَكْرِ عَاوَنَتْهُ ٱلْخَطَاطِيفُ فَإِذَا فَرَغَتْ تَأْتِي بِٱلْمَاءِ فِي أَفْوَاهِهَا وَتُسَوِّي بِهِ بَاطِنَ ٱلْوَكْرِ وَتُمَلِّسُهُ وَتُزِيلُ خُشُونَتَهُ . وَتَضَعُ ٱلسَّذَابَ فِي أَوْكَارِهَا لِدَفْعِ ٱلْحَيَّاتِ وَٱلذُّبَابِ وَٱلْبَعُوضِ . وَمِنَ ٱلْمَشْهُورِ أَنَّ عُشَّ ٱلْخُطَّافِ يُحَلُّ فِي ٱلْمَاءِ وَيُسْقِي صَاحِبَةَ ٱلطَّلْقِ فَتَضَعُ بِسُهُولَةٍ

خُفَّاشٌ . طَائِرٌ مَشْهُورٌ ضَوْءُ بَصَرِهِ ضَعِيفٌ يَسْتُرُهُ شُعَاعُ ٱلشَّمْسِ لَا يَخْرُجُ إِلَّا بَيْنَ ٱلظَّلَامِ وَٱلضِّيَاءِ . شَبِيهٌ بِٱلْفَأْرِ جَنَاحُهُ جِلْدَةٌ رَقِيقَةٌ وَلَهُ أَسْنَانٌ وَٱلْأُنْثَى لَهَا ثَدْيٌ كَمَا لِلْفَأْرِ تُرْضِعُ أَوْلَادَهَا ...... تَصِيدُ ٱلذُّبَابَ وَٱلْبَقَّ وَأَمْثَالَهَا . وَرُبَّمَا تَأْخُذُ وَلَدَهَا فِي فِيهَا وَتَطِيرُ وَتُرْضِعُ وَلَدَهَا . وَتَأْكُلُ ٱلرُّمَّانَ عَلَى ٱلشَّجَرَةِ وَتَتْرُكُهَا قِشْرًا مُجَوَّفًا . وَتَهْرُبُ عَنْ وَرَقِ ٱلدُّلْبِ إِذَا نَزَلَ فِي مَكَانِهَا وَإِذَا عُلِّقَتْ خُفَّاشَةٌ فِي شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ جَاوَزَ ٱلْجَرَادُ عَنْهَا

غَوَّاصٌ . طَائِرٌ يُقَالُ لَهُ بِٱلْفَارِسِيَّةِ مَاهِي خَوَارْ . يُوجَدُ بِٱلْبَصْرَةِ عَلَى طَرَفِ ٱلْأَنْهَارِ يَغُوصُ فِي ٱلْمَاءِ مَعْكُوسًا بِقُوَّةٍ شَدِيدَةٍ وَيَلْبَثُ تَحْتَ ٱلْمَاءِ وَٱلْمَاءُ لَا يَعْلِيهِ مَعَ خِفَّةِ بَدَنِهِ . حَكَى بَعْضُهُمْ قَالَ رَأَيْتُ غَوَّاصًا غَاصَ وَطَلَعَ بِسَمَكَةٍ فَغَلَبَهُ ٱلْغُرَابُ وَأَخَذَ ٱلسَّمَكَةَ مِنْهُ فَغَاصَ مَرَّةً أُخْرَى وَطَلَعَ بِسَمَكَةٍ أُخْرَى وَقَرَّبَهَا مِنَ ٱلْغُرَابِ وَٱشْتَغَلَ ٱلْغُرَابُ بِأَخْذِهَا فَوَثَبَ ٱلْغَوَّاصُ وَأَخَذَ بِرِجْلِ ٱلْغُرَابِ وَغَاصَ بِهِ وَوَقَفَ تَحْتَ ٱلْمَاءِ حَتَّى ٱخْتَنَقَ ٱلْغُرَابُ وَخَرَجَ ٱلْغَوَّاصُ سَالِمًا .

قَطًا . طَائِرٌ مَعْرُوفٌ سُمِّيَ بِصَوْتِهِ يُقَالُ فُلَانٌ أَصْدَقُ مِنَ ٱلْقَطَا . تَبِيضُ فِي ٱلْبَرَارِي وَتَغِيبُ عَنْهَا أَيَّامًا وَتَعُودُ إِلَيْهَا يُقَالُ فُلَانٌ أَهْدَى مِنَ

ٱلْقَطَا وَلَا يَنَامُ ٱللَّيَالِي وَيَأْتِي ٱلْجَادَّةَ لِيَكُونَ عِنْدَهُ مِنَ ٱلْمَارِّينَ خَبَرٌ وَلَهُ أُفْحُوصَةٌ عَجِيبَةٌ فِي وَسْطِ ٱلْحَشِيشِ مَثَّلَ بِهَا ٱلْقَائِلُ مَنْ بَنَى لِلّٰهِ مَسْجِدًا وَلَوْ مِثْلَ مَفْحَصِ قَطَاةٍ بَنَى ٱللّٰهُ لَهُ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ

فَصْلٌ فِي ٱلْهَوَامِّ وَٱلْحَشَرَاتِ وَهِيَ ٱلنَّوْعُ ٱلسَّابِعُ

هٰذَا ٱلنَّوْعُ لَا يُمْكِنُ ضَبْطُ أَوْصَافِهِ وَأَصْنَافِهِ لِكَثْرَتِهَا. قَالَ بَعْضُ ٱلْمُفَسِّرِينَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ تَحْقِيقَ قَوْلِ مَنْ قَالَ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ فَلْيُوقِدْ نَارًا فِي وَسْطِ غَيْضَةٍ بِٱللَّيْلِ ثُمَّ لِيَنْظُرْ مَا يَغْشَى تِلْكَ ٱلنَّارَ مِنَ ٱلْحَشَرَاتِ فَإِنَّهُ يَرَى صُوَرًا عَجِيبَةً وَأَشْكَالًا غَرِيبَةً لَمْ يَكُنْ يَظُنُّ أَنَّ ٱللّٰهَ تَعَالَى خَلَقَ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ عَلَى أَنَّ ٱلْخَلْقَ ٱلَّذِي يَغْشَى نَارَهُ يَخْتَلِفُ بِٱخْتِلَافِ مَوَاضِعِ ٱلْغِيَاضِ وَٱلْجِبَالِ وَٱلسُّهُولِ وَٱلْبَرَارِي. فَإِنَّ فِي كُلِّ بُقْعَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْبِقَاعِ أَلْوَانًا مِنَ ٱلْمَخْلُوقَاتِ مُخَالِفَةً لِمَا فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْأُخْرَى. وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ أَيُّ فَائِدَةٍ فِي هٰذِهِ ٱلْهَوَامِّ مَعَ كَثْرَةِ ضَرَرِهَا وَلَمْ يَدْرِ أَنَّ ٱللّٰهَ تَعَالَى يُرَاعِي ٱلْمَصَالِحَ ٱلْكُلِّيَّةَ كَإِرْسَالِ ٱلْمَطَرِ فَإِنَّ فِيهِ مَصَالِحَ ٱلْبِلَادِ وَٱلْعِبَادِ وَإِنْ كَانَ فِيهِ خَرَابُ بَيْتِ ٱلْعَجُوزِ

فَهٰكَذَا خَلْقُ هٰذِهِ ٱلْحَشَرَاتِ مِنَ ٱلْمَوَادِّ ٱلْفَاسِدَةِ وَٱلْعُفُونَاتِ ٱلْكَائِنَةِ لِتَصْفُوَ ٱلْهَوَاءُ مِنْهَا وَلَا يَعْرِضَ لَهَا ٱلْفَسَادُ ٱلَّذِي هُوَ سَبَبُ ٱلْوَبَاءِ وَهَلَاكِ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلنَّبَاتِ وَإِنْ كَانَ يَتَضَمَّنُ لَسْعَ ٱلْبَقِّ. وَٱلَّذِي يُحَقِّقُ ذٰلِكَ أَنَّا نَرَى ٱلذُّبَابَ وَٱلدِّيدَانَ وَٱلْخَنَافِسَ فِي دُكَّانِ ٱلْقَصَّابِ وَٱلدَّبَّاسِ أَكْثَرَ مِمَّا نَرَى

---

(١) ان الحشرات لم تكن عن المواد الفاسدة العفنية بل عن زرعها الخاص بها فهي الحالة هذه تتناسل نظير كل حيوان على ما علمته العلوم الصحيحة المبنية على الاصول الصادقة

فِي دُكَّانِ ٱلْبَزَّازِ وَٱلْحَدَّادِ. فَٱقْتَضَتِ ٱلْحِكْمَةُ ٱلْإِلٰهِيَّةُ صَرْفَ ٱلْعُفُونَاتِ إِلَيْهَا لِتَصْفُوَ ٱلْهَوَآءُ مِنْهَا وَتَسْلَمَ مِنَ ٱلْوَبَآءِ. ثُمَّ جَعَلَ صِغَارَهَا مَأْكُولًا لِكِبَارِهَا وَإِلَّا ٱمْتَلَأَ وَجْهُ ٱلْأَرْضِ مِنْهَا. فَلَيْسَ فِي مَلَكُوتِهِ ذَرَّةٌ إِلَّا وَفِيهَا مِنَ ٱلْحِكَمِ مَا لَا يُحْصَى. وَأَعْجَبُ مِنْ هٰذَا أَنَّ كُلَّ مَا جُعِلَ سُمُّهُ سَبَبًا لِهَلَاكِ حَيَوَانٍ جُعِلَ لَحْمُهُ سَبَبًا لِدَفْعِ ذٰلِكَ ٱلسُّمِّ. فَإِنَّ ٱلْأَطِبَّآءَ ٱلْأَقْدَمِينَ وَجَدُوا فِي لَحْمِ ٱلْحَيَّةِ قُوَّةً تُقَاوِمُ سُمَّهَا فَأَدْخَلُوا لَحْمَهَا فِي ٱلتِّرْيَاقِ. وَٱلتَّجْرِبَةُ تَشْهَدُ أَنَّ مَنْ لَسَعَتْهُ ٱلْعَقْرَبُ يَلْطَخُ ٱلْمَوْضِعَ بِرُطُوبَةِ ٱلْعَقْرَبِ يَسْكُنُ أَلَمُهَا فِي ٱلْحَالِ

ثُمَّ إِنَّ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ يَخْتَلِفُ حَالُهَا عِنْدَ ٱلشِّتَآءِ. فَمِنْهَا مَا يَمُوتُ مِنْ بَرْدِ ٱلْهَوَآءِ كَٱلدِّيدَانِ وَٱلْبَقِّ وَٱلْبَرَاغِيثِ. وَمِنْهَا مَا يَكْمُنُ فِي ٱلشِّتَآءِ وَلَا يَأْكُلُ شَيْئًا كَٱلْحَيَّاتِ وَٱلْعَقَارِبِ. وَمِنْهَا مَا يَدَّخِرُ مَا يَكْفِيهَا لِشِتَآئِهَا كَٱلنَّحْلِ فَإِنَّهَا لَا تَعِيشُ بِلَا طُعْمٍ. وَلْنَذْكُرْ بَعْضَهَا مُرَتَّبًا عَلَى حُرُوفِ ٱلْمُعْجَمِ إِنْ شَآءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى

بُرْغُوثٌ. هُوَ أَسْوَدُ أَحْدَبُ ضَامِرٌ إِذَا وَقَعَ نَظَرُ ٱلْإِنْسَانِ عَلَيْهِ أَحَسَّ بِهِ فَيَثِبُ تَارَةً إِلَى ٱلْيَمِينِ وَتَارَةً إِلَى ٱلشِّمَالِ حَتَّى يَغِيبَ عَنْ نَظَرِ ٱلْإِنْسَانِ. قَالَ ٱلْجَاحِظُ إِنَّهَا تَبِيضُ وَتُفَرِّخُ. قَالُوا عُمْرُهُ خَمْسَةُ أَيَّامٍ. زَعَمُوا أَنَّ ٱلْبَرَاغِيثَ مِنَ ٱلْخَلْقِ ٱلَّذِي يَعْرِضُ لَهُ ٱلطَّيَرَانُ فَيَصِيرُ بَقًّا كَمَا يَعْرِضُ لِلدَّعَامِيصِ ٱلطَّيَرَانُ فَتَصِيرُ فَرَاشًا. وَزَعَمُوا أَنَّ ٱلْبُرْغُوثَ يَأْكُلُ ٱلْقَمْلَ ٱلَّذِي فِي ٱلثِّيَابِ وَيَمُوتُ مِنْ رَائِحَةِ وَرَقِ ٱلدِّفْلَى

بَعُوضٌ. هُوَ حَيَوَانٌ فِي غَايَةِ ٱلصِّغَرِ عَلَى صُورَةِ ٱلْفِيلِ وَكُلُّ عُضْوٍ خُلِقَ

لِلْفِيلِ فَلِلْبَعُوضِ مِثْلُهُ مَعَ زِيَادَةِ جَنَاحَيْنِ. فَسُبْحَانَ مَنْ قَسَّمَ لَهُ ٱلْأَعْضَاءَ ٱلظَّاهِرَةَ وَٱلْبَاطِنَةَ وَٱلْقُوَى كَذَٰلِكَ كَمَا لِلْحَيَوَانِ ٱلْكَبِيرِ. أُنْظُرْ إِلَى صِغَرِ جِسْمِهِ فَإِنَّ ٱلطَّرْفَ بِٱلشِّدَّةِ يُدْرِكُهُ لِصِغَرِهِ. ثُمَّ إِلَى رَأْسِهِ فَإِنَّ رَأْسَهُ كَمْ يَكُونُ مِنْ جِسْمِهِ وَفِيهِ ٱلْقُوَّةُ ٱلْبَاصِرَةُ وَٱلسَّامِعَةُ. ثُمَّ إِلَى دِمَاغِهِ وَٱنْظُرْ كَمْ يَكُونُ دِمَاغُهُ مِنْ رَأْسِهِ فَإِنَّ فِيهِ ٱلْقُوَى ٱلْبَاطِنَةَ ٱلْخَمْسَ(١). فِيهَا ٱلْحِسُّ ٱلْمُشْتَرِكُ لِأَنَّهَا تَرَى ٱلْحَيَوَانَ تَمْشِي إِلَيْهِ. وَفِيهَا ٱلْخَيَالُ لِأَنَّهَا إِذَا وَقَعَتْ عَلَى ٱلْحَيَوَانِ تَغْمِسُ خُرْطُومَهَا وَإِذَا وَقَعَتْ عَلَى ٱلْحَائِطِ لَا تَفْعَلُ ذَٰلِكَ. وَفِيهَا ٱلْوَهْمُ لِأَنَّهَا تَفْرِقُ بَيْنَ مَنْ يَقْصِدُهَا فَتَهْرُبُ وَبَيْنَ مَنْ لَا يَقْصِدُهَا فَتَبْقَى. وَفِيهَا ٱلْحَافِظَةُ لِأَنَّهَا إِذَا ٱجْتَذَبَتِ ٱلدَّمَ تَهْرُبُ فِي ٱلْحَالِ لِعِلْمِهَا بِأَنَّهَا أَوْجَعَتْ فَتَأْتِيهَا صَدْمَةُ ٱلْمُتَأَلِّمِ. وَفِيهَا ٱلْمُتَفَكِّرَةُ لِأَنَّهَا إِذَا أَحَسَّتْ بِحَرَكَةِ يَدِ ٱلْإِنْسَانِ تَهْرُبُ لِعِلْمِهَا أَنَّهَا مُهْلِكَةٌ وَإِذَا سَكَنَ يَدُهُ عَادَتْ إِلَى مَكَانِهَا لِعِلْمِهَا أَنَّ ٱلْمُنَافِيَ ذَهَبَ وَأَنَّ مَحَلَّ ٱلْغِذَاءِ خَلَا. وَلَهَا خُرْطُومٌ أَدَقُّ شَيْءٍ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ وَمَعَ دِقَّتِهِ مُجَوَّفٌ حَتَّى يَجْرِي فِيهِ ٱلدَّمُ ٱلرَّقِيقُ وَخُلِقَ فِي رَأْسِ ذَٰلِكَ ٱلْخُرْطُومِ قُوَّةٌ تَضْرِبُ بِهَا جِلْدَ ٱلْفِيلِ وَٱلْجَامُوسِ تُنْفِذُهُ فِيهِمَا وَٱلْفِيلُ وَٱلْجَامُوسُ يَهْرُبَانِ مِنَ ٱلْبَعُوضِ فِي ٱلْمَاءِ

دُودُ ٱلْقَزِّ. دُوَيْبَةٌ إِذَا شَبِعَتْ مِنَ ٱلْمَرْعَى طَلَبَتْ مَوَاضِعَهَا مِنَ ٱلْأَشْجَارِ وَٱلشَّوْكِ وَمَدَّتْ مِنْ لُعَابِهَا خُيُوطًا دِقَاقًا وَنَسَجَتْ عَلَى نَفْسِهَا كُبَّةً

---

(١) قد قسم القزويني القوى الباطنة في الحيوان الى قسمين الى مدركة والى عقلية فنسب المدركة الى الحيوان المحض وقد نشأت عن ميله الغريزي. اما العقلية فقد اخصها بالحيوان الناطق وهو الانسان لا غير

مِثْلَ كِيسٍ لِتَكُونَ سِرْبًا لَهَا مِنَ ٱلْحَرِّ وَٱلْبَرْدِ وَٱلرِّيَاحِ وَٱلْأَمْطَارِ وَنَامَتْ إِلَى وَقْتٍ مَعْلُومٍ بِإِلْهَامِ ٱللهِ تَعَالَى

وَأَمَّا كَيْفِيَّةُ ٱقْتِنَائِهَا فَمِنْ عَجَائِبِ ٱلدُّنْيَا وَهِيَ أَنَّهُمْ أَوَّلَ ٱلرَّبِيعِ يَأْخُذُونَ ٱلْبَزْرَ وَيَشُدُّونَهُ فِي خِرْقَةٍ وَيُجْعَلُ تَحْتَ ثَدْيِ ٱمْرَأَةٍ لِتَصِلَ إِلَيْهِ حَرَارَةُ ٱلْبَدَنِ إِلَى أُسْبُوعٍ . ثُمَّ يُنْثَرُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ وَرَقِ ٱلتُّوتِ ٱلْمَقْصُوصِ بِٱلْمِقْرَاضِ فَيَتَحَرَّكُ ٱلدُّودُ وَتَأْكُلُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْوَرَقِ ثُمَّ لَا تَأْكُلُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَيُقَالُ إِنَّهَا فِي ٱلنَّوْمَةِ ٱلْأُولَى. ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى ٱلْأَكْلِ فَتَأْكُلُ أُسْبُوعًا ثُمَّ تَتْرُكُ ٱلْأَكْلَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَيُقَالُ إِنَّهَا فِي ٱلنَّوْمَةِ ٱلثَّانِيَةِ. وَهٰكَذَا فِي ٱلْمَرَّةِ ٱلْأُخْرَى وَيُقَالُ إِنَّهَا فِي ٱلنَّوْمَةِ ٱلثَّالِثَةِ. وَبَعْدَ ٱلنَّوْمَاتِ يُطْلَقُ لَهَا مِنَ ٱلْعَلَفِ لِتَأْكُلَ كَثِيرًا وَتَشْرَعُ فِي عَمَلِ ٱلْفَيْلَجَةِ. فَيَظْهَرُ عِنْدَ ذٰلِكَ عَلَى ظَهْرِهَا شَيْءٌ مِثْلُ نَسْجِ ٱلْعَنْكَبُوتِ وَيَزْدَادُ شَيْئًا فَشَيْئًا فَإِذَا مَطَرَ فِي هٰذَا ٱلْوَقْتِ مَطَرٌ يَلِينُ ٱلْفَيْلَجَةَ بِرُطُوبَةِ ٱلنَّدَاوَةِ وَتَنْقُبُهَا ٱلدُّودَةُ وَتَخْرُجُ مِنْهَا وَقَدْ نَبَتَ لَهَا جَنَاحَانِ فَتَطِيرُ وَلَا يَحْصُلُ شَيْءٌ مِنَ ٱلْإِبْرِيسَمِ. وَإِذَا فَرَغَتِ ٱلدُّودَةُ مِنَ ٱلْفَيْلَجَةِ عُرِضَتْ عَلَى ٱلشَّمْسِ لِتَمُوتَ ٱلدُّودَةُ فِيهَا وَيَحْصُلَ مِنَ ٱلْفَيْلَجَةِ ٱلْإِبْرِيسَمُ. وَيُتْرَكُ بَعْضُ ٱلْفَيْلَجَاتِ لِتَنْقُبَهَا ٱلدُّودُ وَتَخْرُجَ وَتَبِيضَ وَبَيْضُهَا يُحْفَظُ لِلسَّنَةِ ٱلْآتِيَةِ فِي ظَرْفٍ نَقِيٍّ مِنَ ٱلْخَزَفِ أَوِ ٱلزُّجَاجِ. وَٱلثِّيَابُ ٱلْإِبْرِيسَمِيَّةُ تَنْفَعُ مِنَ ٱلْحِكَّةِ وَٱلْجَرَبِ وَلَا يَتَوَلَّدُ فِيهَا ٱلْقَمْلُ

عَنْكَبُوتٌ . أَصْنَافُهُ كَثِيرَةٌ لِكُلِّ صِنْفٍ فِعْلٌ عَجِيبٌ مِنْهَا ٱلطَّوِيلُ ٱلْأَرْجُلِ فَإِنَّهَا لَمَّا عَرَفَتْ ضَعْفَ قَوَائِمِهَا وَأَنَّهَا تَعْجِزُ عَنِ ٱلصَّيْدِ أَعَدَّ

لِلصَّيْدِ مَصَايِدَ وَحَبَائِلَ مِنَ ٱلْخُيُوطِ فَعَمَدَتْ إِلَى فُرْجَةٍ بَيْنَ حَائِطَيْنِ مُتَقَارِبَيْنِ . وَيُلْقِي لُعَابَهُ ٱلَّذِي هُوَ خَيْطُهُ إِلَى جَانِبٍ لِيَلْصَقَ بِهِ ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلَى ٱلْجَانِبِ ٱلْآخَرِ وَهٰكَذَا ثَانِيًا وَثَالِثًا وَهٰذَا هُوَ ٱلسَّدَى . ثُمَّ يُحْكِمُ لُحْمَتَهُ حَتَّى يَتِمَّ ٱلنَّسْجُ وَكُلُّ ذٰلِكَ عَلَى تَنَاسُبٍ هَنْدَسِيٍّ حَتَّى يَصِحَّ ٱلنَّسْجُ . ثُمَّ يَقْعُدُ فِي زَاوِيَةٍ مُتَرَصِّدًا وُقُوعَ ٱلصَّيْدِ فَإِذَا وَقَعَ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ ٱلذُّبَابِ أَوَ ٱلْبَقِّ بَادَرَ إِلَى أَخْذِهِ

وَمِنْهَا صِنْفٌ آخَرُ قَصِيرُ ٱلْأَرْجُلِ يُسَمَّى ٱلْفَهْدَ فَإِنَّهُ يَصِيدُ ٱلذُّبَابَ عَلَى شِبْهِ صَيْدِ ٱلْفَهْدِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ يَتَمَكَّنُ فِي زَاوِيَةٍ فَإِذَا طَارَتْ ذُبَابَةٌ بِقُرْبِهِ وَثَبَ إِلَيْهَا . وَرُبَّمَا مَدَّ خَيْطًا مِنَ ٱلسَّقْفِ وَعَلَّقَ نَفْسَهُ فِيهِ مُنَكَّسًا فَإِذَا طَارَ ذُبَابٌ بِقُرْبِهِ رَمَى بِنَفْسِهِ إِلَيْهِ وَأَخَذَهُ . وَمِنْهَا صِنْفٌ آخَرُ يُقَالُ لَهُ ٱللَّيْثُ وَلَهُ سِتُّ عُيُونٍ فَإِذَا رَأَى ٱلذُّبَابَ لَطِئَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ وَثَبَ فَلَمْ يُخْطِ وَثْبَتَهُ وَهُوَ آفَةُ ٱلذُّبَابِ . وَمِنْهَا صِنْفٌ يُقَالُ لَهُ ٱلرُّتَيْلَا إِذَا مَشَى عَلَى ٱلْإِنْسَانِ يَمُوتُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ لُعَابِهِ . وَيُسَمَّى عَقْرَبَ ٱلثُّعْبَانِ لِأَنَّهُ يَقْتُلُ ٱلثُّعْبَانَ . وَمِنْهَا صِنْفٌ دَقِيقُ ٱلصَّنْعَةِ يُهَيِّئُ نَسْجَهُ وَيَصْعَدُ بَيْتَهُ فَإِذَا وَقَعَتْ فِي مَصِيدَتِهِ ذُبَابَةٌ تَضْطَرِبُ فِيهَا فَيَمْشِي إِلَيْهَا وَيَمُصُّ رُطُوبَتَهَا وَٱلذُّبَابَةُ تَطِنُّ مِنَ ٱلْأَلَمِ إِلَى أَنْ تَمُوتَ وَيَحْمِلُهَا إِلَى خِزَانَتِهِ لِلذَّخِيرَةِ وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ فِي مَصِيدَتِهِ عِنْدَ غَيْبُوبَةِ ٱلشَّمْسِ

وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ ٱلْعَنَاكِبَ ٱلْإِنَاثَ هِيَ ٱلْعَوَامِلُ وَٱلذُّكُورَ خُرْقٌ تَعْمَلُ شَيْئًا . وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّ ٱلسَّدَى مِنَ ٱلْإِنَاثِ وَٱللُّحْمَةَ مِنَ ٱلذُّكُورِ لِأَنَّ ٱللُّحْمَةَ أَقْوَى مِنَ ٱلسَّدَى وَهُمَا كَٱلشَّرِيكَيْنِ فِي ٱلْعَمَلِ أَوْ

كَالْأُسْتَاذِ مَعَ التِّلْمِيذِ

فَرَاشٌ . هُوَ الْحَيَوَانُ الَّذِي يَتَهَافَتُ عَلَى السِّرَاجِ وَيَحْتَرِقُ . ذَكَرَ خَفِيفٌ السَّمَرْقَنْدِيُّ صَاحِبُ الْمُعْتَضِدِ أَنَّهُ كَثُرَ الْفَرَاشُ عَلَى الشَّمْعِ بِحَضْرَةِ الْمُعْتَضِدِ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي فَجَمَعْنَاهَا فَكَانَتْ مَكُّوكًا ثُمَّ مُيِّزَ فَكَانَ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ شَكْلًا . زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْفَرَاشَ دُعْمُوصٌ نَبَتَ جَنَاحُهَا . وَسَبَبُ وُقُوعِهَا عَلَى النَّارِ مَا ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهَا إِذَا رَأَتِ السِّرَاجَ بِاللَّيْلِ تَظُنُّ أَنَّهَا فِي بَيْتٍ مُظْلِمٍ وَأَنَّ السِّرَاجَ كُوَّةٌ مِنَ الْبَيْتِ الْمُظْلِمِ إِلَى الْمَكَانِ الْمُضِيءِ فَلَا تَزَالُ تَطْلُبُ الضَّوْءَ وَتَرْمِي نَفْسَهَا فِيهَا إِلَى أَنْ تَحْتَرِقَ

نَحْلٌ . حَيَوَانٌ ذُو هَيْئَةٍ لَطِيفَةٍ وَخِلْقَةٍ ظَرِيفَةٍ وَبِنْيَةٍ نَحِيفَةٍ وَسَطُ بَدَنِهِ مُرَبَّعٌ مُكَعَّبٌ وَرَأْسُهُ مُدَوَّرٌ مَبْسُوطٌ وَمُؤَخَّرُهُ مَخْرُوطٌ . وَرُكِّبَ فِي وَسَطِ بَدَنِهِ أَرْبَعَةُ أَرْجُلٍ وَيَدَانِ مُتَنَاسِبَةُ الْمَقَادِيرِ كَأَضْلَاعِ الشَّكْلِ الْمُسَدَّسِ وَقَدْ جُعِلَ فِيهَا مُلْكٌ وَيَتَوَارَثُ الْمُلْكَ أَوْلَادُهَا عَنْ آبَائِهَا . فَإِنَّ الْيَعَاسِيبَ لَا تَلِدُ إِلَّا الْيَعَاسِيبَ . وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّ الْيَعْسُوبَ لَا يَخْرُجُ مِنَ الْكُورِ لِأَنَّهُ إِنْ خَرَجَ خَرَجَ مَعَهُ جَمِيعُ النَّحْلِ فَيَقِفُ الْعَمَلُ وَإِنْ هَلَكَ الْيَعْسُوبُ وَقَفَتِ النَّحْلُ لَا تَعْمَلُ شَيْئًا فَتَهْلِكُ عَاجِلًا . وَالْيَعْسُوبُ تَكُونُ جُثَّتُهُ كَجُثَّةِ نَحْلَتَيْنِ وَهُوَ يُوَزِّعُ الْعَمَلَ عَلَى النَّحْلِ حَتَّى تَرَى بَعْضَهَا يُمَهِّدُ الْأَسَاسَ وَبَعْضَهَا يَعْمَلُ الْبَيْتَ وَبَعْضَهَا يَعْمَلُ الْعَسَلَ . وَمَنْ لَا يُحْسِنِ الْعَمَلَ لَا يُخَلِّيهَا فِي وَسَطِ النَّحْلِ بَلْ يُخْرِجُهَا وَيَنْصِبُ بَوَّابًا عَلَى بَابِ الْخَلِيَّةِ لِئَلَّا يَدْخُلَ إِلَيْهَا مَنْ وَقَعَ عَلَى النَّجَاسَاتِ فَإِنْ وَقَعَ شَيْءٌ مِنَ النَّحْلِ عَ النَّجَاسَاتِ مَنَعَهَا الدُّخُولَ

وَٱتِّخَاذُ بيُوتِهَا مُسَدَّسَةً مِنْ أَعْجَبِ ٱلْأَشْيَاءِ وَٱلْغَرَضُ مِنَ ٱلْمُسَدَّسَاتِ ٱلْمُتَسَاوِيَاتِ ٱلْأَضْلَاعِ لِخَاصِّيَّةٍ يَقْصُرُ فَهْمُ ٱلْمُهَنْدِسِ عَنْ إِدْرَاكِهَا لَا تُوجَدُ تِلْكَ ٱلْخَاصِّيَّةُ فِي ٱلْمُرَبَّعِ وَلَا فِي ٱلْمُخَمَّسِ وَلَا فِي ٱلْمُسْتَدِيرِ. وَهِيَ أَنَّ أَوْسَعَ ٱلْأَشْكَالِ وَأَجْوَدَهَا ٱلْمُسْتَدِيرُ وَمَا يَقْرُبُ مِنْهُ أَمَّا ٱلْمُرَبَّعُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ زَوَايَا ضَائِعَةٌ. وَشَكْلُ ٱلنَّحْلِ مُسْتَدِيرٌ مُسْتَطِيلٌ فَتَرَكَ ٱلْمُرَبَّعَ حَتَّى لَا تَضِيعَ ٱلزَّوَايَا فَتَبْقَى خَالِيَةً وَلَوْ بَنَاهَا مُسْتَدِيرَةً لَبَقِيَ خَارِجَ ٱلْبُيُوتِ فُرَجٌ ضَائِعَةٌ. فَإِنَّ ٱلْأَشْكَالَ ٱلْمُسْتَدِيرَةَ إِذَا جُمِعَتْ لَا تَجْتَمِعُ مُتَرَاصَّةً وَلَا شَكْلَ فِي ٱلْأَشْكَالِ ذَوَاتِ ٱلزَّوَايَا يَقْرُبُ فِي ٱلِٱحْتِوَاءِ مِنَ ٱلْمُسْتَدِيرِ ثُمَّ يَتَرَاصُّ ٱلْجُمْلَةُ مِنْهُ بِحَيْثُ لَا يَبْقَى بَعْدَ ٱجْتِمَاعِهَا فُرْجَةٌ إِلَّا ٱلْمُسَدَّسُ فَٱنْظُرْ كَيْفَ أَلْهَمَهَا ٱللهُ تَعَالَى ذٰلِكَ

وَتَعْمَلُ فَصْلَيْنِ فِي ٱلرَّبِيعِ وَٱلْخَرِيفِ فَتَجْمَعُ بِٱلْأَيْدِي وَٱلْأَرْجُلِ مِنْ وَرَقِ ٱلْأَشْجَارِ وَزَهْرِ ٱلثِّمَارِ ٱلرُّطُوبَاتِ ٱلدُّهْنِيَّةَ ٱلَّتِي تَبْنِي بِهَا مَنَازِلَهَا وَلَهَا مِشْفَرَانِ حَادَّانِ تَجْمَعُ بِهِمَا مِنْ ثَمَرَةِ ٱلْأَشْجَارِ رُطُوبَاتٍ لَطِيفَةً عَجَزَتْ عُقُولُ ٱلْأَكْثَرِينَ عَنْ مَعْرِفَتِهَا عَلَى ٱلطَّبَائِعِ. وَخُلِقَ فِي جَوْفِهَا قُوَّةٌ طَابِخَةٌ تُصَيِّرُ تِلْكَ ٱلرُّطُوبَاتِ عَسَلًا حُلْوًا لَذِيذًا غِذَاءً لَهَا وَلِأَوْلَادِهَا وَمَا فَضَلَ عَنْ غِذَائِهَا تَجْعَلُهُ مَخْزُونًا فِي بَعْضِ ٱلْبُيُوتِ وَتُغَطِّي رَأْسَهَا بِغِطَاءٍ رَقِيقٍ مِنَ ٱلشَّمْعِ حَتَّى يَكُونَ ٱلشَّمْعُ مُحِيطًا بِهَا مِنْ جَمِيعِ ٱلْجَوَانِبِ كَأَنَّهَا رَأْسُ ٱلْبَرَانِيِّ مَسْدُودَةٌ بِٱلْقَرَاطِيسِ وَتَدَّخِرُ ذٰلِكَ لِأَجْلِ ٱلشِّتَاءِ وَتَبِيضُ فِي بَعْضِ ٱلْبُيُوتِ وَتَحْضُنُ وَتُفْرِخُ وَتَأْوِي إِلَى بَعْضِ ٱلْبُيُوتِ وَتَنَامُ فِيهَا أَيَّامَ ٱلشِّتَاءِ وَيَوْمَ ٱلْبَرْدِ وَٱلرِّيَاحِ وَٱلْأَمْطَارِ وَتَتَقَوَّتُ مِنْ ذٰلِكَ

ٱلْعَسَلِ ٱلْمَخْزُونِ هِيَ وَأَوْلَادُهَا لَا إِسْرَافًا وَلَا تَقْتِيرًا إِلَى أَنْ تَأْتِيَ أَيَّامُ
ٱلرَّبِيعِ وَتَخْرُجَ ٱلْأَزْهَارُ وَٱلْأَنْوَارُ فَتَرْعَى كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ فِي ٱلْعَامِ ٱلْمَاضِي
وَلَمْ يَزَلْ هٰذَا دَأْبُهَا بِإِلْهَامٍ مِنَ ٱللهِ تَعَالَى. وَمِنْ عَجَائِبِ ٱلنَّحْلِ أَنَّهَا إِذَا
عَرَفَتْ أَخْذَ ٱلْعَسَلِ وَأَحَسَّتْ بِٱلدُّخَانِ جَعَلَتْ تَأْكُلُ مِنْهُ أَكْلًا ذَرِيعًا
حَكَى بَعْضُهُمْ أَنَّ خَلِيَّةً مِنْ خَلَايَا ٱلْعَسَلِ مَرِضَ نَحْلُهَا فَجَاءَ نَحْلُ خَلِيَّةٍ
أُخْرَى يُقَاتِلُهَا عَلَى ٱلْعَسَلِ ٱلَّذِي فِي بُيُوتِهَا يُرِيدُ إِخْرَاجَهَا مِنَ ٱلْخَلِيَّةِ
لِيَسْتَوْلِيَ عَلَى عَسَلِهَا فَأَقْبَلَ قَيِّمُ ٱلْخَلَايَا يُعَاوِنُ ٱلنَّحْلَ ٱلضَّعِيفَ ٱلْمَرِيضَ
وَكَانَ يَلْسَعُهُ ٱلنَّحْلُ ٱلْغَرِيبُ دُونَ ٱلْمَرِيضِ كَأَنَّهَا عَرَفَتْ أَنَّهُ يَدْفَعُ عَنْهَا.
وَأَمَّا ٱلْعَسَلُ فَذَكَرُوا أَنَّ ٱلْأَبْيَضَ عَمَلُ شُبَّانِهَا وَٱلْأَصْفَرَ عَمَلُ كُهُولِهَا
وَٱلْأَحْمَرَ عَمَلُ شِيبِهَا

[illegible]

من كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات
للقزويني

فهرس